مقدمة الطبعة الثالثة

هذا الكتاب «الشيخ الغزالي كما عرفته» صدر في حياة الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ. إذ لم أجد معنى لما يجري عليه الناس في بلادنا، ولا سيما بين عادة الإسلام، حيث يُهضَم عظماء الرجال، فلا ينوَّه بمكانتهم، ولا يكتب الناس عن مآثرهم، إلا بعد رحيلهم عن هذه الدنيا. هذا مع أن رسولنا الكريم بريء ممن لم يوقروا كبراءهم، ولم يعرفوا حق علمائهم، وشرف شرفائهم[1].

وقد صدرت الطبعة الأولى، والشيخ الإمام على قيد الحياة، ورآها بعينيه، وسرّ بها كثيرًا، وقرأ منها نحو مائة صفحة، كما أخبرني قارئه وسكرتيره الخاص. وحين سافر الشيخ سفرته الأخيرة للمشاركة في مؤتمر الجنادرية بالرياض، ووافاه الأجل هناك، كان الكتاب من متعلقاته الخاصة التي وجدت معه. اصطحبه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، ليكمل مطالعته كلما أتيحت له فرصة.

والآن تصدر هذه الطبعة، وقد مضت على وفاة الشيخ عدة سنوات، مشتملة على بعض التنقيحات والتصحيحات التي رأيتها ضرورية، وكنت أود أن أضيف إليها بعض الفقرات في بعض الفصول، ولكن كثرة المشاغل لم تمكِّني من ذلك. وأعتقد أن ما كتبته كاف في تحقيق الغرض من الكتاب.

بقي دَين على الجيل الجديد من أبنائنا الصاعدين: أن يعمق الجوانب التي تحدثت عنها، ويوسع القول فيها، ويغدو الشيخ الإمام موضعًا لأطروحات علمية

---

(1) إشارة إلى الحديث الشريف: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ولم يوقر كبيرنا، ويعرف لعالمنا حقه».

أكاديمية لرسائل الماجستير والدكتوراه، تتناول الجوانب الفكرية والدعوية والجهادية من حياة الشيخ، ولا سيما في كليات الدعوة وأصول الدين والدراسات الإسلامية. فهذا من حق الشيخ الغزالي على هذه الأمة، التي وهب لها حياته، وعاش طوال عمره المبارك، مجددًا لدينها، حارسًا لرسالتها، مشيدًا بحضارتها، ذائدًا عن حرماتها ومقدساتها، شاهرًا سيفه ضد أعدائها، والكائدين لها؛ ولم يكن له سيف غير قلمه ولسانه.

ولقد تحدث الكثيرون عن الشيخ بعد أن خلا مكانه، وغاب عن الساحة، وأغمد حسام طالما سل في سبيل الله، وظل مصلتًا حتى آخر لحظة في حياته، وسقط صاحبه وهو في يده مدافعًا عن الإسلام، رحمه الله.

لقد رثيته ببعض ما يستحقه في الصحف، وتحدثت عنه في خطبتي للجمعة في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، وصليت عليه مع المسلمين صلاة الغائب، وأقمنا له ليلة حافلة، تحدث فيها عدد من العلماء والدعاة من إخوانه وأحبابه.

كما أقام له الإخوة في مصر ليلة مماثلة نظمها الأخ الدكتور محمد سليم العوّا وإخوانه، وتحدث فيها عدد من العلماء والمفكرين، وشاركت فيها بكلمة بعثت بها الدوحة.

وفي الذكرى الأولى لوفاة الشيخ، أقام المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن، بالاشتراك مع جميعة البحوث والدراسات الإسلامية، والمعهد العالي للفكر الإسلامي، ندوة في «عمّان» استمرت يومًا كاملًا، ساهم فيها عدد من المفكرين والباحثين بأوراق علمية مقدورة، حول تراث الشيخ الفكري، ونشاطه المتنوع في خدمة الإسلام، ونصرة قضاياه. وكان لي شرف الحضور والمشاركة فيها

كذلك، كما حضرها من أبناء الشيخ الدكتور علاء الغزالي.

ولا يزال الحديث عن الشيخ الجليل موصولًا، وسيظل إن شاء الله. وما زال إخوانه وأبناؤه وتلاميذه يذكرونه كلما جد الجد، وأدلهم الخطب، وتلبدت السماء بالغيوم، على نحو ما قال الشاعر قديمًا:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر!

رحم الله شيخنا الغزالي، وتقبله في الأئمة الهداة المهديين، وأخلف الأمة فيه خيرًا.

والحمد لله أولًا وآخرًا.

القاهرة: جمادى الأولى عام 1420هـ

سبتمبر عام 1999م

يوسف القرضاوي

* * *

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على حبيبه ومصطفاه، سيدنا محمد بن عبد الله، إمام الدعاة، وأسوة المعلمين الهداة، ورحمة الله المهداة، ونعمته المسداة، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فلم يكن في نيتي أن أكتب كتابًا كاملًا عن الشيخ الإمام محمد الغزالي، فأنا أتهيّب الكتابة عن الأئمة والمصلحين الكبار، وخصوصًا بعد أن سمعت الشيخ مرة يقول: لا يكتب عن الأئمة إلا إمام. قال هذا تعليقًا على كتب الشيخ محمد أبي زهرة عن الأئمة الفقهاء الكبار: أئمة المذاهب، وابن حزم، وابن تيمية.

وقد أخذ الشيخ هذا المعنى عن الأستاذ العقاد، الذي قال في مقام الحديث عن عبقرياته المتعددة التي كتبها: إنه لا يحسن الكتابة عن العباقرة إلا عبقري!

ومن لي بالإمامة أو بالعبقرية حتى أكتب عن إمام وعن عبقري مثل الغزالي؟!

ولكني بدأت هذا الكتاب على أنه مقالة عن الشيخ، ضمن كتاب يُهدى إليه - حفظه الله - بمناسبة بلوغه سن السبعين من عمره المديد المبارك إن شاء الله، وذلك في عام (1987م).

وكانت هناك مجموعة من مريدي الشيخ وأحبائه[2] - وأنا منهم - تنادوا أن

---

(2) منهم: د. أحمد العسال، ود. محمد عمارة، ود. عبد الحليم عويس، ود. جمال عطية، والفقير إليه تعالى.

يصدروا هذا الكتاب، وقسموا موضوعاته على عدد من المفكرين والكتّاب، وكان عليّ أن أكتب مقالة عن الشيخ من خلال معرفتي به ومعايشتي له.

وطفقت أكتب المقالة المطلوبة، فإذا هي تتسع أمامي، وتزداد صفحاتها أكثر مما يحتمله حجم الكتاب المنشود. وقد وجدت مجال القول ذا سعة، فتركت نفسي على سجيتها، وأطلقت لقلمي العنان، وقلت: لا بأس أن يكون هذا كتابًا عن الشيخ الإمام، فهذا بعض حقه على من عرفه. وأكد هذا التوجه لديّ: أن الكتاب الذي افترض إهداؤه إلى الشيخ لم يصدر، على عادتنا في معظم الأعمال الجماعية، إذ إنها قلما تنجح وتؤتي أكلها. ولم يف بوعده إلا الدكتور محمد عمارة، فقد أنجز مقالته وأصدرها في رسالة عن الشيخ، جزاء الله خيرًا عما صنع[3].

وانتهت المقالة إلى هذه الدراسة التي أقدمها اليوم عن الشيخ في فصولها العشرة:

1 - الغزالي الشاب في قلب المعركة.

2 - الغزالي وحسن البنا.

3 - الغزالي وحسن الهضيبي.

4 - الغزالي وثورة (23) من يوليو.

5 - الغزالي رجل الدعوة.

---

(3) كما علمت أن الدكتور عبد الحليم عويس كتب - بعد ذلك - هو وبعض الأفاضل من غير المستكتبين - كالدكتور عماد الدين خليل، والدكتور رمضان عبد التواب، والدكتور محفوظ عزام - مقالات عن الشيخ الغزالي، ضُمِّنت كتابًا أصدرته دار الصحوة في القاهرة عن الشيخ الغزالي.

6 – الغزالي رجل القرآن.

7 – الغزالي مع السيرة والسنَّة.

8 – الغزالي والفقه.

9 – الغزالي مصلحًا مجددًا.

10 – الغزالي رجل المواقف.

بالإضافة إلى الخاتمة.

وليس هذا الكتاب تاريخًا للغزالي، فلا أزعم أني أملك كل أدوات المؤرخ، ولا أملك المعلومات الكافية لمثل هذا العمل. وأنا أعلم أن الشيخ – بارك الله في عمره – قد كتب قصة حياته، وأسأل الله أن يمد في عمره في عافية وتوفيق وبركة حتى يضيف إلى كتابه فصولًا وفصولًا، كما أرجو أن يوفق الله بعض أبنائنا الدارسين في أقسام الدعوة وغيرها إلى أن يقدموا في أطروحاتهم العلمية دراسات ضافية عن الشيخ وعطاءاته الخصبة والمتنوعة، بما يليق بمكانة الشيخ العلمية والدعوية والإصلاحية.

ما أقدمه اليوم إنما هو ذكريات وخواطر وأفكار، تحاول أن تقدم صورة للشيخ الإمام، صادرة من معرفتي به، ومعايشتي له، وقراءتي وسماعي له، نحو نصف قرن من الزمان.

أجل، لست أؤرخ للغزالي، فما أنا بالمؤرخ، ولكني أشير إلى ملامح من حياته وسيرته، عرفتها عن معايشة وقرب، ولا أزعم أني رسمت له صورة بينة الملامح، فما أنا ممن يحسن الرسم.

وربما قيل: إنك تكتب بقلم المحب لا بقلم الناقد، وأنا أشهد أني أحب الغـزالي وأتقرب إلى اللَّه بحبه، ولكني لم أعْدُ الحق فيما خـط قلمـي، ولا ينبغـي أن يغمـط الإنسان من يحب، فرارًا من أن يـتهم بـالتحيز، فالعـدل يحكـم القريـب والبعيـد، والصديق والعدو ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: 152].

وإني لأنكر على الإسلاميين أنهم لا يعطون مفكريهم وعلماءهـم وأدبـاءهم مـا يسـتحقون مـن تكـريم وتقـدير، ينـزلهم منـازلهم، في حـين يصـنع العلمانيـون والماركسيون هالات مكبرة حول رجالاتهم، حتى يجعلوا من الحبة قبة، ومن القط جملًا! وصدق فيهم قول الشاعر:

وبقيت في خَلف يُزيِّن بعضـهم بعضًا ليدفع مُعْـور عـن معـور!

وإذا قيل: إنك تنظر إلى الشيخ بعين الرضا، وعـين الرضـا لا تبصر العيـوب، فحسبي أن أقول: إني لا أزعم أن الغزالي مبرأ من العيوب، فما هو بالملـك المطهـر، ولا بالنبي المعصوم، إنما هو بشر يخطئ كما يخطئ البشر، ويصيب كما يصيب البشر، ولكن أخطاءه وزلاته مغمورة في محيط حسناته وميزاته.

و«إذا بلغ الماء قُلّتين لم يحمل الخبث»، فكيف إذا كان بحرًا لا تكدره الدلاء؟!

الدوحة: ربيع الآخر عام 1415هـ

أكتوبر عام 1994م

يوسف القرضاوي

***

الفصل الأول

الغزالي الشاب . . . في قلب المعركة

* * *

الغزالي الشاب . . . في قلب المعركة

بداية معرفتي بالشيخ الإمام:

عرفتُ شيخنا الإمام الغزالي – غزالي هذا العصر – أول ما عرفته قارئًا له، في أواسط الأربعينات، وأنا في أواخر المرحلة الابتدائية، وأوائل المرحلة الثانوية، طالب بمعهد طنطا الديني الأزهري، بعد أن ارتبطت بدعوة الإخوان المسلمين، كبرى الحركات الإسلامية الحديثة، وركيزة التجديد الإسلامي، والعمل الإسلامي الجماعي، بعد سقوط الخلافة، وتمزق الأمة الواحدة إلى أمم متفرقة.

وكان الغزالي أحد كتاب الدعوة البارزين.

كان الغزالي يكتب في مجلة «الإخوان المسلمين» الأسبوعية، في باب ثابت تحت عنوان: «خواطر حرة»، وكان يشدني إليه فكره الثائر، وبيانه الساحر، وأسلوبه الساخر. فقد كنت أرى فيه – إلى جوار كونه داعية – أديبًا من الطراز الأول. وكان الأدب والشعر في تلك المرحلة هو شغلي الشاغل، ومحور قراءتي واهتمامي، وكان أول ما قرأته أدب المنفلوطي والرافعي، وأحيانًا العقاد. وكان الغزالي يحمل روح الرافعي وتألقه، وسهولة المنفلوطي وتدفقه، وتأمل العقاد وتعمقه. وانعقدت بيني وبين الغزالي الكاتب – على بُعد – صلة عقلية وروحية عميقة، من جانب واحد طبعًا، هو جانبي، بحيث كنت أترقب المجلة، لأقرأ – أول ما أقرأ فيها – مقالتين: مقالة محمد الغزالي، ومقالة عبد العزيز كامل.

ولم يكن يخطر ببالي أن صاحب هذا القلم البليغ شيخ أزهري؛ فعندي بالمشايخ الذين قرأت لهم – في بعض المجلات الدينية مثل مجلة «الإسلام» – أن يكتبوا في غير الموضوعات التي يكتب فيها الغزالي، وبروح غير روحه، وطريقة غير طريقته.

ولكني فوجئت يومًا بأنه وقّع على إحدى مقالاته: محمد الغزالي «الواعظ»، فسألت بعض الناس عن هذا الوصف الجديد «الواعظ»: أهو «لقب» أم وظيفة؟ فأكد لي العارفون أنها وظيفة، وأن الغزالي واعظ أزهري، وشيخ معمم، وخريج كلية أصول الدين، التي أحبها، وأتطلع للانتساب إليها، فعمّق ذلك ارتباطي الفكري والنفسي بالشيخ، وازددت إعجابًا به وحبًّا له؛ فقد أضيف إلى رابطة الدعوة، ورابطة الأدب، رابطة أخرى هي «الأزهرية»، فقد كان أبناء الأزهر في تلك الأيام يعتزون بالانتماء إليه، ويباهون به، ويَعُدّونه قلعة الدفاع عن الإسلام والعربية، وكان على رأسه شيوخ لهم مكانتهم العلمية والدينية، على المستويين المحلي والعالمي، فكل أزهري ينبغ، يفرح به الأزهريون، ويضيف إلى رصيد الأزهر شيئًا جديدًا.

وظللت أتابع الشيخ فيما يكتب، فإذا هو يخوض معركة بالغة الخطر، كان هو فارسها المقدم، ورائدها الأول، وكان سلاحه فيها قلمه الصُّلْب الذي لا يكسر ولا يفلّ. تلك هي المعركة ضد الظلم الاجتماعي، والامتيازات الطبقية، والفوارق الاقتصادية الفاحشة، التي جعلت بعض الناس يزرعون القمح ويأكلون التبن، ويزرعون القطن ويلبسون «الخيش»، ويبنون العمارات الشامخة على أكتافهم، ويسكنون هم وعائلاتهم في «البدرونات» على أحسن الفروض! على حين يعيش آخرون غرقى في الذهب والحرير، دون أن يقدموا للحياة عملًا.

وفي هذه الفترة ظهر للشيخ كتابه البكر: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية»، وهو أول ما دخل به ميدان التأليف، وهو في مقتبل شبابه.

ومن نظر في الكتاب نظرة تأمل وإنصاف، رأى فيه أفكارًا أصيلة، ونظرات جديدة غير مسبوقة ولا مطروقة، مثل: هل للفضائل أسباب اقتصادية؟ وهل

للرذائل أسباب اقتصادية؟ الاستعمار الداخلي يمهد للاستعمار الخارجي. في هذا الباب يطرق فكرة نسبت بعد ذلك للمفكر الجزائري مالك بن نبي، وهي أن الاستعمار الغازي لا يأتي إلا بعد قابلية من الشعوب المستعمَرة، والغزالي يذكر هذا المعنى، ويؤيده من القرآن بما ورد في قصة بني إسرائيل في أوائل سورة الإسراء؛ فحيث يتغلغل الفساد والإفساد في الداخل، يأتي تسليط العدو من الخارج.

لم يدرس الشيخ الغزالي الاقتصاد الوضعي، ولم يطلع على مدارسه ومناهجه - اشتراكية ورأسمالية - اطلاع المدقق الخبير، إنما عرف روح هذه الفلسفات وأساس هذه الأنظمة، واعتقد أن الاشتراكية - وهو يعني المثالية منها - تقف مع الكادحين والمستضعفين، الذين وقف دائمًا في صفهم، باسم الإسلام.

وقد اشتبكت مرة - وأنا طالب بكلية أصول الدين - مع بعض الحقوقيين الذين درسوا شيئًا في علم المالية وعلم الاقتصاد؛ حين هاجموا الشيخ الغزالي لأنه كتب تحت عنوان كبير وهو: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» دون أن يدرس الاقتصاد ويحيط به!

قلت لهم: إن الشيخ لم يزعم ذلك لنفسه، ولكنه رأى أوضاعًا عوجًا، تتمسح بالإسلام ظلمًا وزورًا، فأراد أن يبرئ الإسلام منها، وأن يبين موقف الإسلام الصحيح من هذا الانحراف، وهذا ما بينه بجلاء في مقدمة الطبعة الأولى، إذ يقول:

«هذا بحث مجمل في موقف الدين من الأوضاع الاقتصادية، اعتمدت في موضوعه على الدراسة المجردة لنصوص الدين والفهم المستقل لآثاره الثابتة، ولم أجنح في هذه الدراسة إلى المقارنة بين نظام ونظام، أو المفاضلة بين مذهب ومذهب، من هذه الأنظمة والمذاهب التي تمخض عنها تطور الفكر الإنساني في

العصر الأخير، فليس هذا ما يعنيني، ولست أملك العدة اللازمة لاستقصاء البحث فيه! وإنما ألفت هذه الرسالة ورتبت فصولها المحدودة لغاية واحدة، هي إعطاء القارئ صورة صادقة عن الفكرة الذاتية للدين، والروح العامة لمبادئه، والموقف الذي قد يقفه بإزاء الأفكار الاقتصادية المختلفة، وللقارئ بعدئذ أن يقارن ويفاضل ويستخلص من النتائج ما يشاء.

وحاشاي بهذا الكلام أن أقحم الدين فيما ليس له، أو أن أحمله من الآراء ما لا شأن له به، فما إلى هذا قد قصدت. كل ما أبغيه أن أنصف الدين من سوء الفهم، وسوء الاستغلال. فقد أنكرت الشيوعية الدين؛ لأنها حسبته مخدرًا للشعوب، ومسكنًا لآلام الطبقات المظلومة، وصارفًا لهمم أبنائها عن المطالبة بحقوقهم المضيعة. واحتقرت الرأسمالية الدين، إذ توسلت به إلى إشباع المطامع الجشعة وإقرار الفوارق الجائرة، وتعويق النهضات الحرة. والدين مظلوم بين من كفروه ومن حقروه: بين الشيوعية المتطرفة والرأسمالية المتعجرفة! ولا بد من أن نكشف عن حقائقه، وأن نبيّن عن معالمه، لنرد عنه سوء الفهم وسوء الاستغلال جميعًا. والسبيل العادلة إلى ذلك هي تحديد موقفه من نصوصه نفسها.

ذلك أن الدين - للأسف الشديد - مصاب منذ القدم بإضافات زائدة، وأفكار فاسدة، شابت جوهره، وعكرت حقيقته، ولبست تراث النبيين الهداة بأضاليل الشياطين الغواة. وعلينا أن نفصل الحق من الباطل، وأن نميز الخبيث من الطيب، حتى لا تختلط أمام النظرات السطحية أسباب الهدى والضلال، فإذا تميز الخير عن الشر، وانفصل كذب الأرض عن وحي السماء، لم يبق ثمة موضع لسوء الفهم وسوء الاستغلال!! ولم يبق على التنكر للدين إلا أقوام من المتنطعين والمتعنتين، وإلى هؤلاء لا يساق حديث ولا ينتظر إقناع.

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة – بشأن الدين وما يطرأ عليه من أوهام، وما يضاف إلى حقيقته من بدع وخرافات – فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ 52 لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ 53 وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج: 52 – 54] ... أجل فإن حقائق الدين من منابعه الفريدة الأولى لم تكد تسري في مجراها من هذا الحياة، حتى علقت بها من رواسب البيئات، ومخلفات القرون، وجهالات العامة، وشهوات الخاصة، ونزوات الحكام، ما ذهب بالكثير من صفائها ونقائها، حتى لتشبه ماء «النيل» في مجراه الأدنى، لا يصلح للشراب إلا بعد مجهودات متعاقبة من الترشيح والتنقية ترده «سماويًّا» كما كان». اهـ.

ثم ظهر له بعد ذلك كتابه الثاني في نفس الاتجاه: «الإسلام والمناهج الاشتراكية».

وكتب جملة مقالات في مجلة «الإخوان»، ضمها فيما بعد كتابُه الثالث: «الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين»، وكان ذلك قبل أن يصدر الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه: «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، وقد كتب في قائمة مراجعه – بالطبعة الأولى – كتابَيْ الغزالي: «الإسلام والأوضاع» و«الإسلام والمناهج».

وربما راجع الشيخ بعض ما كتبه في هذه الكتب الأولى، منقحًا ومعدلًا، كما هو شأن الإنسان دائمًا يتغير اجتهاده من حين إلى الآخر. ومن فضائل الشيخ أنه رجّاع إلى ما يعتقد أنه الحق.

وكان الشهيد سيد قطب قد أصدر مجلة «الفكر الجديد»، وهي مجلة ثورية تُعنى بالمسألة الاجتماعية، وتستلهم الإسلام، ولم تستمر أكثر من بضعة أشهر، وكان الغزالي أحد كتابها.

ثم جاءت محنة ديسمبر عام (1948م)، حين صدر قرار حل جماعة الإخوان، ومصادرة ممتلكاتها، والتنكيل بأعضائها، واعتقال عدد كبير منهم، وانتهى الأمر باغتيال الحكومة جهرة لمؤسس الجماعة ومرشدها الأول الإمام حسن البنا.

وكان مما قدر الله لي أن أكون من المعتقلين في تلك المحنة التي أحالها الله منحة، وأنا طالب في السنة الخامسة الثانوية بمعهد طنطا الديني. وقد حُجزت أكثر من شهر في «سجن» القسم الأول للشرطة في مدينة طنطا، مع مجموعة من الإخوة الزملاء[4]، ثم رحلنا إلى معتقل «الهايكستب» فترة قصيرة، ومنه إلى معتقل «الطور» في سيناء، حيث ركبنا الباخرة «عايدة» من السويس مجتازين خليج السويس إلى مقامنا الجديد في الطور.

وما زلت أذكر تلك اللحظة التي هاج فيها ركاب الباخرة لسبب ما، وحدث شيء من الهرج والمرج، وكاد يفلت الزمام، فإذا شاب قصير القامة، مشرق الوجه، يلبس ثوبًا أبيض، حاسر الرأس، يتوقد ذكاءً وحيويةً، يخاطب الركاب في حزم: أيها الإخوة، يجب أن نضبط أنفسنا، حتى نصل إلى مستقرنا الجديد، في أرض انطلقت منها شرارة الوحي المقدس، لتحرير أمة مستعبدة، من طغيان المتألهين في الأرض

---

(4) منهم من الأحياء: د. أحمد العسال، والمهندس حكمت بكير، والمهندس شفيق أبو باشا، والحاج إبراهيم الباجوري - حفظهم الله - . وممن انتقل إلى رحمة الله: الأستاذ حسني الزمرمي، والحاج محمود عبية، والأستاذ جمال الدين فكيه، والزميلان الصديقان: محمد الدمرداش مراد، ومصباح محمد عبده - رحم الله الجميع.

...

وقد لاحظت أنه حين بدأ كلامه، صمت الجميع كأن على رءوسهم الطير، ولم يكد يتم كلمته الموجزة، حتى ساد الهدوء وسار الركب في أمان، وكأن شيئًا لم يكن.

قلت لبعض الإخوة من أهل القاهرة: من هذا المتكلم؟ قالوا: ألا تعرفه؟ إنه الشيخ محمد الغزالي!

كم كانت فرحتي غامرة بتلك اللحظة السعيدة! لقد لقيت الرجل الذي أحببته عن بعد، فها هو ذا اليوم مني غير بعيد.

وشاء اللَّه أن نوزع على أقسام معتقل الطور، فأكون من القسم الذي فيه الغزالي، وكان يسمى «الحذا». وكان حذانا رقم (1). فها أنا ذا ألتقي به صباح مساء.

كان الشيخ الغزالي إمامنا في الصلوات، وخطيبنا في الجمعة، ومدرسنا في الحلقات، مع أخيه ورفيقه العالم الفقيه الشيخ سيد سابق. كان يصلي بنا الصلوات الخمس ويقنت بنا قنوت النوازل، وكان من دعائه في هذا القنوت: اللهم افكك بقوتك أسرنا، واجبر برحمتك كسرنا، وتولّ بعنايتك أمرنا. اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، اللهم عليك بالظالمين!

وكان الشيخ يلقي علينا محاضرات في موقف الإسلام من استبداد الحكام، كانت نواة الكتاب الذي أصدره بعد الخروج من المعتقل، وهو: «الإسلام والاستبداد السياسي».

ومما لا ينسى: أن الإخوان كانوا قد اختاروا مسئولًا عنهم، كما هي سنة الإسلام: «**إذا كنتم ثلاثة فأمّروا أحدكم**»، وكان هو أستاذنا الداعية الكبير البهي

الخولي، صاحب «تذكرة الدعاة» وغيرها من الكتب الأصيلة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجزاه عن الدعوة خيرًا.

ولكن الأستاذ البهي قد استدعي إلى القاهرة، حيث وجه إليه اتهام في قضية تتعلق بالنظام الخاص. فاجتمعت كلمة الإخوان على اختيار الشيخ الغزالي قائدًا لهم داخل المعتقل، برغم أن في المعتقلين من هو أكبر منه سنًّا.

وفي تلك الآونة، كان العسكريون الذين يحكمون المعتقل يأكلون حق المعتقلين، من الأطعمة الجافة و«المعلّبات» التي تصرف لهم وباسمهم من الدولة.

وكان هؤلاء يحسبون أن المعتقلين أسرى تحت أيديهم ولا يملكون أن يقولوا: لِمَ؟ بله أن يقولوا: لا.

ولكن الشيخ الغزالي خطب الجمعة، فألهب العواطف، وفجّر بركان الثورة على هذا الظلم البيّن، وهذه السرقة العلنية، متحديًا أولئك الطغاة المتمردين على عدل اللَّه، معلنًا الحرب على ذلك الثنائي الدنس، المتمثل في الفرعونية الحاكمة بأمرها في بلاد اللَّه، والقارونية الكانزة لمال اللَّه عن عباد اللَّه.

وما إن قُضِيت الصلاة، حتى قاد الشيخ مظاهرة تندد بالظلم وتعلن العصيان وتملأ هتافاتها الفضاءَ: تسقط اللصوصية المنظمة! تسقط سياسة التجويع!!

وكانت مفاجأة للعسكر حكام المعتقل، فلم يملكوا إلا أن يذعنوا لمطالب المعتقلين في تسليمهم المقررات الجافة من الأطعمة ليتولوا هم طبخها وتوزيعها بمعرفتهم.

وظللنا مدة لم تطل بمعتقل الطور، ثم فوجئنا بأن نودي علينا نحن طلاب المرحلة الثانوية، لينقلونا إلى معتقل «هايكستب»، قريبًا من القاهرة، وقد قيل: إن

ذلك تمهيد للإفراج عنا.

وما كان هذا بالشيء الذي سررنا به أو هششنا له، فقد كنا لا نريد فراق إخواننا بالطور، وعلى رأسهم الشيخ الغزالي.

وبعد رحلة قاسية في صحراء سيناء، كانت مطايانا فيها «اللوريات» المكشوفة التي حشرونا فيها كالأنعام أو الأبقار، يكوينا فيها وهج الشمس بالنهار، ويعَضنا فيها برد الصحراء بالليل، حتى وصلنا إلى «هايكستب»، فقضينا فيه عدة أشهر. ثم غيروا رأيهم، فأعادونا مرة أخرى إلى الطور، ظانين أنهم بهذا يضايقوننا ويضيقون علينا، وما دوروا أننا كنا بذلك جد مسرورين، فقد التأم الشمل، وائتلف حبات العقد المتناثرة.

وكان من حسن حظي أن أكون في نفس القسم الذي يؤمه ويخطبه الغزالي، فحمدت الله تعالى. وكنا في شهر رمضان المبارك، وكان الشيخ يصلي بنا التراويح، ثماني ركعات يقرأ فيها بجزء من القرآن الكريم، فعشنا مع القرآن كله، فسمعته منه غضًّا طريًّا، وهو يحفظه عن ظهر قلب، ويتلوه في صلواته بانتظام، لا يَخْرم منه حرفًا. وكان رمضان بصيامه وقيامه ودروسه، مأدبة روحية حافلة، وخصوصًا وراء إمام كالغزالي، تصلك بالله تلاوته، ويدلك على الله كلامه، ويذكرك بالآخرة عمله وسلوكه.

وفي أواخر شهر رمضان، أذن الله بسقوط وزارة الطاغية الأثيم إبراهيم عبد الهادي، وبدأت الإفراجات، وكنت في أوائل من أفرج عنهم، ولم يشب فرحة الإفراج عندي إلا البعد عن الشيخ الغزالي.

ثم ازددت اقترابًا من الشيخ، في فترة الدراسة بكلية أصول الدين، فكنت أنا

وأخي وزميلي أحمد العسال على صلة وثيقة به، نزوره، ونتحدث إليه، ونستمع منه، وكثيرًا ما كان يدعونا إلى الغداء في بيته في «درب سعادة» بحي الأزهر، فنشبع من جيد طعامه، كما نشبع من جيد كلامه، هذا لعقولنا، وذاك لبطوننا.

وقد وجدنا الشيخ الذي يشتد ويحتد في نزاله الفكري، فيَهدِر كالموج، ويقصف كالرعد، ويزأر كالليث، حتى إنك لتحسبه في بعض ما يكتب مقاتلًا في معركة، لا مجادلًا في قضية، وتحسب القلم الذي في يده، السيف أو الرمح في يد ابن الوليد! وجدناه - عن كثب - إنسانًا رقيق القلب، قريب الدمعة، نقي السريرة، صافي الروح، حلو المعشر، رضي الخلق، باسم الثغر، موطأ الأكتاف، عذب الحديث، سريع النكتة، بسيطًا متواضعًا، هينًا لينًا، بعيدًا عن التكلف والتعقيد والتظاهر والادعاء. تسبق العبرة إلى عينيه إذا سمع أو رأى موقفًا إنسانيًا، ويهتز خشوعًا وتأثرًا إذا ذكر الله والدار الآخرة، ولا يأنف أن يتعلم حتى من تلاميذه، يعترف لكل ذي موهبة بموهبته، لا يحسد ولا يحقد، يكره الظلم والتسلط على عباد الله، يقول بصراحة: لا أحب أن أتسلط على أحدٍ، ولا أن يتسط عليّ أحد.

كان الغزالي بعد خروجنا من المعتقل أواخر سنة (1949م)، هو اللسان الأول الناطق باسم الدعوة إلى الإسلام، والمحامي الأول عن حرماته، ومفاهيمه.

فهو يسطر المقالات الممتعة في مجلة «المباحث» التي استأجرها الإخوان، لتعبر عن رسالتهم، ويؤلف الكتب التي تخاطب عقل المسلم وقلبه، وتعمل عملها في إيقاظ الوعي الإسلامي العام.

وهو يقف بالمرصاد لكل متطاول على قيم الإسلام وأحكامه، ليرسل عليه شواظًا من نار، مسلحًا بقلم لا يصدأ، ولا يفل، ولا يستكين.

وقد سعدت مصر في تلك المرحلة بزيارة الداعية الإسلامي الهندي الشاب، المتوقد روحانية وحيوية: السيد أبي الحسن على الحسني النْدْوي، الذي كنا عرفناه من خلال كتابه القيم: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، وقد تعرف على الغزالي في لقاءات شتى، وسافر معه في رحلات دعوية متعددة، وسجل ذلك في كتابيه: «مذكرات سائح في الشرق الأوسط» و«مسيرة الحياة» فيقول:

«فقد خرجت في تلك الفترة مع الشيخ محمد الغزالي - الذي هو أكبر كاتب وباحث إخواني، وأوثق ترجمان للجماعة - إلى كثير من قرى مصر وأريافها مرارًا وتكرارًا».

صدر له في هذه الفترة جملة من الكتب التي اشتهرت وذاع صيتها في عالم الثقافة والفكر، مثل: «الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين»، «الإسلام والاستبداد السياسي»، «تأملات في الدين والحياة»، «عقيدة المسلم»، «خلق المسلم».

ومن أشهر كتبه في تلك المرحلة: كتاب: «من هنا نعلم»، وهو كتاب رد به على كتاب: «من هنا نبدأ» للشيخ خالد محمد خالد، الذي كان صديقًا للغزالي من قبل، وكانا قد تعارفا وتعاونا على العمل الإسلامي، وإن كان ذاك في الجمعية الشرعية، وهذا في الإخوان.

وارتضيا أن يكوِّنا لجنة لنشر الثقافة الإسلامية الصحيحة، تحت عنوان: «الدين في خدمة الشعوب»، ردًّا على الشيوعيين الذين يزعمون أن «الدين أفيون الشعوب»!

وكان الشيخ خالد قد وعد بنشر كتاب في هذا الاتجاه بعنوان: «يا أربعمائة مليون

هبوا»! يخاطب فيه المسلمين في أنحاء الأرض، وكان هذا عددهم الذي يذكر في ذلك الحين.

فلما خرجنا من المعتقل، فوجئ الجميع بأن الشيخ خالدًا قد غير اتجاهه بزاوية مقدارها (180) درجة، وأصدر كتابه الجديد: «من هنا نبدأ»، الذي صفقت له، وروّجت له كل القوى المعادية للإسلام: شيوعية، وصليبية، وماسونية، وعلمانية.

وهنا تصدى له الغزالي، في سلسلة مقالات قوية، نقد فيها شبهات خالد ورد على دعاويه، ثم جمعت هذه المقالات في كتاب: «من هنا نعلم»، الذي كان أقوى ما رد به على الكتاب المذكور، مع رفق وأدب، ورعاية لرابطة الود القديم. وكان الغزالي – رغم خلافه لخالد – يظن به خيرًا، وقد صدَّقت الأيام ظنه.

والأستاذ خالد – والحق يقال – ليس كاتبًا عاديًا. إن له قلمًا يفتن قارئه برشاقة عبارته، وسحر أسلوبه، وروعة بيانه، وقوة معاصرته، لا يجحد بذلك إلا مكابر. ثم إنه رجل حر، يقول ما يؤمن به، ويكتب ما يريد لا ما يراد منه. فهو من النوع الذي لا يباع ولا يستأجر، فكان لا بد أن يتصدى له قلم في مثل مقدرته وإخلاصه لما يدعو إليه، إن لم يزد عليه. ولم يكن في الساحة مثل الغزالي، الذي كان كتابه كما قال الشاعر:

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر!

وصدر بعد ذلك للغزالي كتاب آخر في المواجهة والرد أيضًا على من يتحاملون على الإسلام، ذلكم هو كتاب: «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام»، ردًّا على كتاب أصدره أحد النصارى الأقباط، افترى فيه على الإسلام، واجترأ على حماه. لم يشأ أن يذكر اسم الكتاب ولا اسم مؤلفه، حتى يموت في مهده. كل ما

ذكره عن المؤلف: أنه صاحب منصب مرموق في الدولة.

وقد كلفه الأستاذ حسن الهضيبي – مرشد الإخوان حينئذ – أن يتولى الرد على الكتاب بالعلم والحجة، بلا سب ولا تجريح.

ومن عايش هذه المرحلة من تاريخ مصر في عهد الملكية، يعلم أن كُتب الغزالي ومقالاته كان لها دور مهم في إيقاظ العقول، وتنبيه القلوب، وإذكاء المشاعر، وتهيئتها للثورة على الأوضاع الظالمة.

ظلت الكتب تتوالى، في ميادين الدعوة المختلفة، وأبرزها: «فقه السيرة»، ألّفه الشيخ في رحاب المسجد النبوي، وفي ظلال الروضة الشريفة، حين كان مديرًا للتكية المصرية بالمدينة المنورة. وهو كتاب يتجلى فيه قلم الأديب، وفكر العالم، وروح الداعية، وعاطفة المحب للرسول العظيم ﷺ. حتى ذكر أنه كثيرًا ما كان يكتب ودموعه تنهمر على الورق الذي يكتب فيه، فيختلط الدمع بالمداد!!

كما ظهر له كتابان – في أثناء خلافه مع الأستاذ الهضيبي – فيهما كثير من المرارة الممزوجة بالحدة والعنف في نقده للحركة الإسلامية وقيادتها، وهما: «في موكب الدعوة» و«من معالم الحق»، وقد اعتذر الشيخ فيما بعد عما صدر منه فيهما، وسنعرض لذلك في حينه.

وظهر له مجموعة من الكتب في مجال التنوير والتبصير بحقائق الإسلام، وفي مجال التنبيه والتحذير من أعداء الإسلام. من هذه الكتب:

- «الاستعمار أحقاد وأطماع».

- «ظلام من الغرب».

- «ليس من الإسلام».
- «كيف نفهم الإسلام؟».
- «كفاح دين».
- «جدد حياتك».
- «الجانب العاطفي من الإسلام».
- «هذا ديننا».
- «الإسلام في وجه الزحف الأحمر».
- «دفاع عن العقيدة والشريعة».
- «حقوق الإنسان بين الإسلام وميثاق الأمم المتحدة».
- «قذائف الحق».
- «معركة المصحف في العالم الإسلامي».

وغيرها من الكتب ...

وفي السنوات الأخيرة، جند الشيخ قلمه، لكشف التدين المغشوش أو المغلوط، ومطاردة الأفهام السقيمة للإسلام، التي ابتليت به الساحة الإسلامية في هذا الزمن، والتي شغلت الناس بالمسائل الصغيرة في الدين، على حساب القضايا الكبرى. وقد بدأ ذلك من قديم، كما يتجلى ذلك في كتبه: «تأملات في الدين والحياة» و «ليس من الإسلام» و «ركائز الإيمان بين العقل والقلب».

وقد صدرت له في هذا جملة من الكتب الناقدة، ابتدأها بكتابيه الشهيرين:

1 – «دستور الوحدة الثقافية للمسلمين»، وبه شرح الأصول العشرين للشهيد حسن البنا.

2 – «مشكلات في طريق الحياة الإسلامية»، وهو الكتاب الأول من كتب مجلة «الأمة» القطرية، الذي قدم له مدير تحريرها الأستاذ عمر عبيد حسنة، بمقدمة ضافية عن الشيخ وجهوده، وآثاره في ميدان الثقافة والفكر الإسلامي.

وسنعرض لذلك فيما بعد.

لقد كانت كتب الشيخ ومقالاته في شبابه صرخات عالية من شأنها أن توقظ النيام، ولم تكن همسات خافتة تبعث على التثاؤب، وتنيم اليقظان! كانت ثورة على الظلم والطغيان قبل أن يسمع الناس كلمة «الثورة».

وكان كثير من الشباب يحفظ كلمات الغزالي ويرددها لما تحمله من نصاعة البيان، وقوة الإيمان، وروح القرآن، وكان فيها من الحرارة والحيوية، ما يلائم توثب الشباب، وطموح الشباب.

أذكر أن الأخ عبد الله العقيل(5) – حين كان يدرس في كلية الشريعة بالأزهر في أوائل الخمسينات – كان يحفظ مقدمة الطبعة الثانية لكتاب: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» ومطلعها:

«لم تستذل – في هذا العصر – شعوب كما استذلت شعوب الشرق، ولم يستغل شيء – في هضم حقوقها – كما استغل الدين، لقد أنطقوه حيث يجب عليه أن يسكت، وأخرسوه حيث يجب أن يرسل الصراخ العالي، كما يصرخ الحارس اليقظ

(5) الأمين العام المساعد الآن لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

إذا رأى جرأة اللصوص الوقحين».

وفي آخرها يقول:

«يا ضحايا الكبت والفاقة والحرمان، إن الشفاه التي تأمر بإذلالكم يجب أن تقص، والأوضاع التي تغتال حقوقكم يجب أن تقصى، والفراغ الذي خامر أفئدتكم تحت وطأة الاستعباد، يجب أن تنزاح غمته إلى الأبد».

المبارز الشريف:

لقد كانت تلك المرحلة من حياة الغزالي مرحلة «المبارزة» للباطل وأعوانه ودعاته، ولكنها مبارزة متميزة. فإن من عاشر الغزالي عرف فيه طبيعة الفرسان الشرفاء، إنه «مبارز» واثق بنفسه، لا يفر من معركة، ولا يطعن من الخلف، ولا يهاب المواجهة، ولو مع أعتى العتاة، ولا ينازل ضعيفًا، أو يتبع مدبرًا، أو يجهز على جريح!

لقد رد على الأستاذ خالد محمد خالد في كتابه: «من هنا نبدأ»، ولكن عندما اقترح بعض الناس أن يجرده الأزهر من شهادة العالمية، استنكر الغزالي ذلك، ولم يقبل أن تدخل السلطة طرفًا في الموضوع، متكئة على الأزهر، وقال في مقدمة كتابه: «من هنا نعلم»:

«إن حرية الرأي لا تعني حماية الخطأ، وإعطاءه حق الحياة.

وأقصى ما يناله الخطأ أن يعيش ريثما يعدم ويتوارى. والطريق التي نؤثرها أن نحارب الفكرة بالفكرة.

ونحن الذين نعمل للإسلام لا نهاب أي هجوم عليه؛ لأننا موقنون أنه سوف

ينكسر على حدوده.

ولقد تحدث الناس أن الأزهر ربما سحب شهادة العالمية من الشيخ خالد، وهذا إجراء أرى أن التعليق عليه واجب.

فإن الأزهر يكيل بكيلين، بل بعدة مكاييل في هذا الموضوع، فقد أصدر قرارًا ضد الشيخ علي عبد الرازق – صاحب كتاب: «الإسلام وأصول الحكم» – ثم عاد بأبطله! واكتفى بنقل الشيخ عبد المتعال الصعيدي من الكليات إلى القسم العام – وقد زعم أن الأمر بالحدود المستقرة في الكتاب والسنة للندب لا للوجوب، وأن الأمر لا يقتضي التكرار الدائم! إلخ ... – وجرم خالد هو جرم هؤلاء الأشياخ».

إنه خلق المبارز الشريف، أو قل: هو خلق المسلم، الذي لا يخرجه الغضب عن الحق، ولا يدخله الرضا في الباطل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8].

***

الفصل الثاني
الغزالي وحسن البنا

***

الغزالي وحسن البنا

حسن البنا في عين الغزالي:

كبر الشيخ وعظم مقامه في عالم الإسلام كله، ولكنه لم يكبر على حسن البنا، الرجل الذي عرف على يديه حقيقة الإسلام الحي المتحرك، وآمن بمواهبه العقلية والنفسية والروحية والعملية لقيادة الدعوة الإسلامية، والعمل الإسلامي، في عصر ابتلي الإسلام فيه بعجز علمائه، وجهل أبنائه، وكيد أعدائه، وفساد أمرائه، وشح أغنيائه. يقول عنه الغزالي:

«كان حسن البنا – حيث حل – يترك وراءه أثرًا صالحًا، وما لقيه امرؤ في نفسه استعداد لقبول الخير إلا وأفاد منه ما يزيده صلة بربه، وفقهًا في دينه، وشعورًا بتبعته نحو الإسلام والمسلمين.

والرجل الذي يشتغل بتعليم الناس لا يستطيع في أحيانه كلها أن يرسل النفع فيضًا غدقًا، فله ساعات يخمد فيها، وساعات يتألق وينير. إن الإشعاع الدائم طبيعة الكواكب وحدها. وقد كان حسن البنا، في أفقه الداني البعيد، من هذا الطراز الهادي بطبيعته؛ لأن جوهر نفسه لا يتوقف عن الإشعاع.

سل الألوف المؤلفة التي التقت به ... أو التي أشرق عليها الرجل في مداره العتيد، ما من أحد منهم إلا وفي حياته ومشاعره وأفكاره، أثر من توجيهات حسن البنا، أثر يعتز به، ويغالي بقيمته، ويَعُدّه أثمن ما أحرز في دنياه».

ويتحدث الغزالي عن أول لقاء تعرف فيه على حسن البنا، فيقول:

«كنت طالبًا بمعهد «الإسكندرية» عندما اتصلت بحسن البنا. كان ذلك من

عشرين عامًا تقريبًا[6]. بيد أن الأمسية الرفافة العذبة التي وصلتني به لا تزال محفورة في ذاكرتي. ولست أنسى طريقة هذا الرجل في صقل الأرواح، ووصلها بينابيع الحياة والحركة من كتاب الله وسنة رسوله ...

والتربية الروحية فن دقيق.

إن النار على مسافة محدودة تدفئ، وعلى مسافة أقل تحرق، وكذلك تحديث الناس عن الدنيا والآخرة ... إن هذا الحديث قد يخلق الفدائيين، وقد يخلق الانطوائيين المتواكلين.

وأشهد أن حسن البنا عرف كيف ينقل الإسلام إلى قلوب واعية، فإذا بها تتحدى الحتوف في ميادين البطولة، وتكسب الساحات في ميادين العمل للدنيا.

إن خدمة الإسلام لا تصح خبط عشواء، وإنما تصح كما رسم القرآن: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ...﴾ [يوسف: 108].

والفتيان الأخيار الذين شرفوا الإسلام في هذا العصر - هم ثمار ناضجة لهذه التربية الروحية الموفقة. فُروسيتهم بالنهار وليدة رهبانيتهم بالليل. ونجاح خطاهم في الحياة أثر صلتهم الموثقة بالله.

ترى هل تعود الليالي المباركات التي كنا نصفي فيها قلوبنا، ثم نصف أقدامنا ونصلي لله؟ ليتها تعود!».

ظل الشيخ الغزالي محبًّا لحسن البنا، وفيًّا لبيعته، معترفًا بإمامته، ذاكرًا لفضله، مشيدًا بجهوده البناءة والسباقة في سبيل البعث الإسلامي، منافحًا عن دعوته

---

(6) كتب هذا في أوائل الخمسينات من القرن العشرين.

وسيرته إذا مسه أحد بسوء.

ذكر أمامه – ونحن في المعتقل – ما كتبه «العقاد» في جريدة «الأساس» – لسان حال «السعديين» – عن الأستاذ البنا ووالده وأسرته، وكان كلامًا سخيفًا متحاملًا، فقال الغزالي في غضب: «أما والله لو كان لنا حرية التعبير، ومكنا من الرد، لاستطاعت أقلامنا الشابة أن تكسر تلك الأقلام التي شاخت في الضلال!».

وفي الذكرى الأولى لاستشهاد الإمام البنا، أصدر الأستاذ صالح عشماوي عددًا خاصًّا من مجلة «الدعوة»، وكتب فيه الغزالي مقالًا بعنوان: «غصن باسق في شجرة الخلود»، عبر فيه عن حقيقة مشاعره نحو المرشد الشهيد، الذي عاش حياته يسوق الناس إلى الله، ويحشدهم ألوفًا ألوفًا في ساحة الإسلام.

وفي أكثر من مناسبة كتب عنه بمثل هذه الحرارة.

ومنذ سنوات، حين سعدنا به أستاذًا في جامعة قطر، زارنا بكلية الشريعة أخ قديم، وزميل كريم، من أساتذة الأزهر، عرفته من الإخوان طوال عهد الدراسة، وكان يسكن معي في شقة واحدة في شبرا. ثم تحول إلى إحدى الطرق الصوفية، ودخل فيما يدخل فيه المتصوفة من أحوال ومواجيد. وكان يقول للشيخ بإخلاص: كم أود يا شيخنا – بل كم أدعو الله – أن تختم حياتك بالدخول في الطريق، وتأخذ العهد على شيخي!

وكان رد الشيخ حفظه الله: يا فلان، وهل رأيت شيخًا أفضل من حسن البنا؟

لقد أغنانا حسن البنا عن الأخذ عن أي شيخ بعده!

وتوج ذلك شرحه لـ «الأصول العشرين» التي جعلها الشهيد أساسًا لوحدة الفهم لدى العاملين للإسلام، ولهذا سمى الغزالي هذا الشرح: «دستور الوحدة

الثقافية للمسلمين».

وكتب له مقدمة قال فيها:

«مُلهِم هذا الكتاب وصاحب موضوعه الأستاذ الإمام حسن البنا، الذي أصفه ويصفه معي كثيرون بأنه مجدد القرن الرابع عشر للهجرة. فقد وضع جملة مبادئ تجمع الشمل المتفرق، وتوضح الهدف الغانم، وتعود بالمسلمين إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم، وتتناول ما عراهم خلال الماضي من أسباب العوج والاسترخاء بيد آسية، وعين لماحة، فلا تدع سببًا لضعف أو خمول.

وعملي كان تأصيل هذه المبادئ وشرحها في ضوء تجاربي المستفادة خلال أربعين عامًا في ميدان الدعوة، قضيت بعضها مع الإمام الشهيد، وبعضها مع الرجال الذين رباهم، وبعضًا آخر مع مؤمنين مخلصين أحبوا دينهم، وجاهدوا في سبيله، وقاوموا ببأس شديد جميع القوى التي أغارت عليه، وحاولت إطفاء نوره، وتنكيس رايته ...

ومن الخطأ القول بأن حسن البنا أول من رفع راية المقاومة في هذا القرن الذليل. لقد سبقه في المشرق العربي، والمغرب العربي، وأعماق الهند وإندونيسيا، وغيرها، رجال اشتبكوا مع الأعداء في ميادين الحرب والسياسة والتعليم والتربية، وأبلوا بلاءً حسنًا في خدمة دينهم وأمتهم.

وليس يضيرهم أبدًا أنهم انهزموا آخر الأمر، فقد أدوا واجبهم لله، وأتم من بعدهم بقية الشوط الذي هلكوا دونه.

إن حسن البنا استفاد من تجارب القادة الذين سبقوه، وجمع الله في شخصه مواهب تفوقت في أناس كثيرين.

كان مدمنًا لتلاوة القرآن، يتلوه بصوت رخيم، وكان يحسن تفسيره كأنه الطبري، أو القرطبي، وله قدرة ملحوظة على فهم أصعب المعاني ثم عرضها على الجماهير بأسلوب سهل قريب.

وهو لم يحمل عنوان التصوف، بل لقد أُبعِد من طريقة كانت تنتمي إليها بيئته(7).

ومع ذلك فإن أسلوبه في التربية، وتعهد الأتباع، وإشعاع مشاعر الحب في الله كان يذكر بالحارث المحاسبي، وأبي حامد الغزالي ...

وقد درس السنة المطهرة على والده، الذي أعاد ترتيب «مسند أحمد بن حنبل»، كما درس الفقه المذهبي باقتضاب، فأفاده ذلك بصرًا سديدًا بمنهج السلف والخلف.

ووقف حسن البنا على منهج محمد عبده وتلميذه صاحب المنار الشيخ محمد رشيد رضا، ووقع بينه وبين الأخير حوار مهذب، ومع إعجابه بالقدرة العلمية للشيخ رشيد، وإفادته منها، فقد أبى التورط فيما تورط فيه(8).

ولعله كان أقدر الناس على رفع المستوى الفكري للجماهير، مع محاذرة لبقة من أسباب الخلاف ومظاهر التعصب.

وقد أحاط الأستاذ البنا بالتاريخ الإسلامي، وتتبع عوامل المد والجزر في مراحله المختلفة، وتعمق تعمقًا شديدًا في حاضر العالم الإسلامي، ومؤثرات الاحتلال

---

(7) يقصد: الطريقة الحصافية التي حدثنا عنها الإمام الشهيد في «مذكرات الدعوة والداعية».

(8) يريد: اشتباكه مع مشايخ الأزهر، ورجال الطرق الصوفية بأسلوب حادّ!

الأجنبي ضده ...

ثم في صمت غريب أخذ الرجل الصالح ينتقل من مدن مصر وقراهـا، وأظنـه دخل ثلاثة آلاف قرية من القرى الأربعة آلاف التي تكون القطر كله.

وخلال عشرين عامًا تقريبًـا صـنع الجماعـة التـي صـدعت الاسـتعمار الثقـافي والعسكري، ونفخت روح الحياة في الجسد الهامد ... ».

كان الغزالي محبًّا لحسن البنـا معجبًـا بـه، ولكنـه لـيس إعجـاب التقـديس أو التهويل، وكان يرى أن حسن البنـا مهَّـد الطريـق، وعلينـا أن نكمـل المسـيرة، لا نتراجع ولا نتوقف. لقد أدى الرجل الفذ ما عليه، وبقـي عـلى أبنائـه وإخوانـه أن يؤدوا ما عليهم.

وفي معتقل الطور كان للشيخ الغزالي بين الحين والحين - وخصوصًا في أعقاب بعض الصلوات - مواعظ بليغة، تميزت - ككل مواعظـه - بالإيجـاز لا بالإطالـة والإسهاب وبما فيها من أفكار حية، ونظرات جديدة. وكـان يغـرس فيهـا معـاني الإصرار والثبات والتحدي، وأن موت حسن البنا لا يعني أن المعركة قد انتهت مع أعداء الله وأعداء الأمة، وأن الراية التي رفعها البنا قد تلقفها جنوده وتلاميذه مـن بعده، ولن يدعوها تسقط أبدًا. وكان يستشهد بقول مهلهل بن ربيعة بعـد مقتـل أخيه كليب:

ولست بخالع درعـي وسـيفي إلى أن يخلـــع الليـــل النهـــار!

ومن الطرائف التي تذكر هنا لتأكيد هذا المعنى الذي حرص الشيخ على تغذيته وتثبيته: أن أحد الناس - بعد خروجنا من المعتقل - جلس مع الغزالي يترحم على حسن البنا، الذي كان أمة وحده، ويذكر خسارة الدعوة والوطن والأمة الإسلامية

بموته. فرد عليه الغزالي شاكرًا له ثناءه على الشهيد البنا، ثم قال له: ولكن دعوة البنا حية لم تمت. قال الرجل: ولكن الدعوة تحتاج إلى رجال! قال الغزالي: لقد ربى حسن البنا وراءه رجالًا صدقوا ما عاهدوا الله عليه. قال الرجل: لا أظن أن هناك من يرث البنا ويحمل اللواء من بعده! وهنا قال له الشيخ مغضبًا: يا هذا، أتمدح حسن البنا بكلامك أم تذمه؟ إذا كان البنا لم يخلف وراءه رجالًا يخلفونه في حمل الدعوة فقد كان يستحق القتل إذن!! وهنا لم ينطق الرجل ببنت شفة.

وفي مقابلة صحفية للأخ الصحفي المسلم اللامع الأستاذ محمد عبد القدوس – صهر الشيخ – على صفحات مجلة «الدعوة» الصادرة في غرة ربيع الأول عام (1415هـ) أغسطس عام (1994م) كان هذا السؤال الذي وجهه للشيخ الغزالي:

سألت الداعية الإسلامي الكبير عما أعجبه في إمامنا الشهيد ... أعني مميزاته. أجابني قائلًا: قدرة خارقة على دراسة الحقائق الكبيرة والفلسفات الخطيرة والثقافات العالية، ثم تلخيصها بأسلوب سهل قريب من العامة، لكنه لا يهبط إليها. ولذلك فهو يملك تقديم معارف جديدة للناس لم يسمعوها من قبل، وأعتقد أنه كان قارئًا من الطراز الأول، وأتذكر أنني شاركت في جرد مكتبته الخاصة عقب وفاته، فوجدت بها ألوف الكتب وعلى بعضها تعليقات له.

ومع سعة معرفته، فإنه ليس عارض ثقافات تستهوي الألباب بقدر ما هو صاحب رسالة يجمع الناس حولها ويربطهم بمبادئها، ويجندهم فكريًّا وسلوكيًّا لخدمتها ... كان ذكاؤه مدهشًا، وذاكرته حديدية، وقدرته على تأليف القلوب عجيبة. كان المستمع يخرج من لقائه وهو عاشق للإسلام غيور على تعاليمه، راغب في الدفاع عنه والموت في سبيله.

وقد سأل الأستاذ محمد المجذوب الشيخ الغزالي عن الشخصيات التي تأثر بها في حياته العلمية والدعوية، فكان جوابه:

«تأثرت بالشيخ عبد العظيم الزرقاني، الذي كان مدرسًا بكلية أصول الدين، وهو صاحب كتاب: «مناهل العرفان في علوم القرآن»، وكان عالمًا يجمع بين العلم والأدب، وعباراته في كتابه المذكور تدل على أنه راسخ القدم في البيان وحسن الديباجة ونقاء العرض.

وفي معهد الإسكندرية الديني تأثرت بالشيخ إبراهيم الغرباوي، والشيخ عبد العزيز بلال، وكانا يشتغلان بالتربية النفسية، ولهما درجة عالية في العبادة والتقوى، وكانا يمزجان الدرس برقابة الله وطلب الآخرة وعدم الفتنة بنيل الإجازات العلمية؛ لأن للألقاب العلمية طنينًا ربما ذهب معه الإخلاص المنشود في الدين.

وقد تأثرت أيضًا بالشيخ محمود شلتوت الذي أصبح فيما بعد شيخًا للأزهر، إذ كان مدرسًا للتفسير، وله قدرة ملحوظة في هذا المجال، إلى جانب رسوخ قدمه في مجال الفقه وعلوم الشريعة إجمالًا، وقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ شخصية عالمية بارزة يلتف حولها الكثيرون.

أما تأثري الأكبر فقد كان بالإمام الشهيد حسن البنا، وكان عالمًا بالدين كأفقه ما يكون علماء العقيدة والشريعة، وكان خطيبًا متدفقًا ينساب الكلام منه أصولًا لا فضولًا وحقائق لا خيالات ... وكان حسن البنا يدرك المرحلة الرهيبة التي يمر بها الإسلام بعد ما سقطت خلافته، وذهبت دولته، ونجح المستعمرون شرقًا وغربًا في انتهاب تركته، فكان الرجل يعارض هذا الطوفان المدمر عن طريق تكوين الجماعات التي تعتز بدينها، وتتشبث بالحق مهما واجهت من متاعب أو عوائق أو

ويلات.

حسن البنا كان صديقًا لكل من يلقى من أهل الإيمان، فتغمرك بشاشته عندما تراه، وتشعر كأنك أصبحت صديقًا أثيرًا لديه، وكان يضن بوقته على اللغو، فما تمر ثانية – ولا أقول دقيقة – إلا وهو يخدم الإسلام بكلمة أو توجيه، أو عمل نافع، أو دعابة لطيفة تربط بين القلوب.

وذاكرة حسن البنا كانت حديدية، وكأنها شريط مسجل، يستوعب الأسماء والمعاني، فلو التقيت به وناقشت معه إحدى القضايا، أو ذكرت له اسم إخوتك مثلًا ثم لقيته بعد ذلك ببضع سنين، لبادرك بالسؤال عن إخوتك وناقشك في القضية التي طرحتها عليه منذ سنين، واسترجع معك الحديث وكأنه تم بالأمس القريب!

والحق أن الرجل كان يحب عن إخلاص لا عن تكلف، وربما عانق عاملًا يلبس بدلة الشغل الملوثة بشحوم الآلات وسوائلها، فما يحجزه شيء من ذلك عن ترجمة حبه. وحسن البنا له عبقريات منوعة يحتاج الكلام فيها إلى كتاب منفرد»[9].

إضافة إلى الأصول العشرين:

في «خاتمة» كتاب «دستور الوحدة الثقافية للمسلمين» الذي شرح فيه الغزالي الأصول العشرين للبنا، قال:

«قد أعطي نفسي الحق في مخالفة أي فكر ديني سابق أو لاحق، ولكني لا أعطيها أبدًا حق الشذوذ أو الخروج على الإجماع.

---

(9) «علماء ومفكرون عرفتهم» للأستاذ محمد المجذوب، الجزء الأول.

إنني أوثر السير مع الجماعة الكبرى، وأحب وحدة الصف والهدف، وأرى أن الفرقة هزيمة وعذاب وشؤم، وأرفض أن تكون القضايا الصغرى سببًا في تنافر الأفئدة، وأوصي أن نتشبث بمعاقد الدين وعراه الوثقى!!

إن رب العالمين يغتفر الصغائر إذا اجتنبيت الكبائر، فهلا تعلمنا من ذلك تجاوز الهنات إذا احترمت الأمهات؟

إن التعاليم العشرين التي وضعها حسن البنا رضي الله عنه تضمنت خيرًا كثيرًا، وألحقت جماعته بالركب الإسلامي الكبير، ولم تُفردها بسِمة شاذة، ولم تجعل منه رجلًا لطائفة منفصلة عن سواد الأمة.

إنه إمام بين عدد من الأئمة الذين ظهروا خلال القرون الأربعة عشر ـ يخدمون الكتاب والسنة، ويستمدون شرفهم من الولاء المطلق لله ورسوله، والحفاوة المطلقة بكل من يلقون في هذا الميدان الطهور، وإن اختلفت الملامح النفسية والفكرية.

وقد تعلمت من حسن البنا الإنصاف للغير مهما خالف في الرأي، نعم عندما أخالف أحدًا في حكم ما فلا يجوز أن أهمل ما لديه من صواب كثير، ومواهب قد أفاءها الله عليه. ويجب أن أحترم ذلك فيه، بل يجب أن أحترم ما وراء خطئه من غيرة دينية، تربطني به وإن أنكرت قوله.

إن الذي أقلق حسن البنا، ويقلق كل مصلح بعده: أصحاب الأهواء الجامحة والمعارف الضحلة عندما يستبد بهم جنون العظمة، ويريدون فرض قماءتهم على الناس باسم الدين!!

ولعل إخراجي لهذا الكتاب يرجع إلى ضرورة الحفاظ على الإسلام من هوس

أولئك الأغرار، إلى جانب أن الجمهور فقير إلى حقائق إسلامية كثيرة حرم منها دهرًا ... والمسلمون ينهضون بالعلم لا غير.

ذلك وقد أعطيت نفسي الحق في إضافة عشرة مقررات أخرى أحسب أننا بحاجة إلى إشاعتها.

وشرحها وارد في كتبي الأخرى وفي مؤلفات الرجال الذين يكدحون في الحقل الإسلامي الرحب.

لا أدري أأصبت في هذه الإضافة أم أخطأت؟ وحسبي أن الحق قصدت ...!!

وهذه هي الإضافات التي أرى المجتمع الإسلامي محتاجًا إليها:

1 - النساء شقائق الرجال، وطلب العلم فريضة على الجنسين كليهما، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وللنساء - في حدود الآداب الإسلامية - حق المشاركة في بناء المجتمع وحمايته.

2 - الأسرة أساس الكيان الخلقي والاجتماعي للأمة، والمحضن الطبيعي للأجيال الناشئة، وعلى الآباء والأمهات واجبات مشتركة لتهيئة الجو الصالح بينهما. والرجل هو رب الأسرة، ومسئوليته محدودة بما شرع الله لأفرادها جميعًا.

3 - للإنسان حقوق مادية وأدبية تناسب تكريم الله له، ومنزلته الرفيعة على ظهر الأرض، وقد شرح الإسلام هذه الحقوق ودعا إلى احترامها.

4 - الحكام - ملوكًا كانوا أم رؤساء - أُجراء لدى شعوبهم، يرعون مصالحها الدينية والدنيوية ووجودهم مستمد من هذه الرعاية المفروضة، ومن رضا السواد الأعظم بها، وليس لأحد أن يفرض نفسه على الأمة كرهًا، أو يسوس

أمورها استبدادًا.

5 – الشورى أساس الحكم، ولكل شعب أن يختار أسلوب تحقيقها، وأشرف الأساليب ما تمحض لله، وابتعد عن الرياء والمكاثرة والغش وحب الدنيا.

6 – الملكية الخاصة مصونة بشروطها وحقوقها التي قررها الإسلام، والأمة جسد واحد لا يهمل منها عضو، ولا تزدري فيها طائفة، والأخوة العامة هي القانون الذي ينتظم الجماعة كلها فردًا فردًا، وتخضع له شئونها المادية والأدبية.

7 – أسرة الدول الإسلامية مسئولة عن الدعوة الإسلامية، وذود المفتريات عنها، ودفع الأذى عن أتباعها حيث كانوا، وعليها أن تبذل الجهود لإحياء نظام الخلافة في الشكل اللائق بمكانتها الدينية.

8 – اختلاف الدين ليس مصدر خصومة واستعداء، وإنما تنشب الحروب إذا وقع عدوان، أو حدثت فتنة، أو ظلمت فئات من الناس.

9 – علاقة المسلمين بالأسرة الدولية تحكمها مواثيق الإخاء الإنساني المجرد، والمسلمون دعاة لدينهم بالحجة والإقناع فحسب، ولا يضمرون شرًّا لعباد الله.

10 – يسهم المسلمون مع الأمم الأخرى – على اختلاف دينها ومذاهبها – في كل ما يرقى ماديًّا ومعنويًّا بالجنس البشري، وذلك من منطق الفطرة الإسلامية والقيم التي توارثوها عن كبير الأنبياء، محمد عليه الصلاة والسلام.

تلك هي المبادئ العشرة التي أقترح إضافتها، والتي أتقدم بها مع التعاليم العشرين لمجدد القرن الرابع عشر الإمام الشهيد حسن البنا، رضي الله عنه.

ولمن شاء أن يقبل أو يرفض ...

وآخر ما ندعو به: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 286]»[10].

وهذه المبادئ أو الأصول العشرة التي أضافها الإمام الغزالي إلى الأصول العشرين للإمام البنا، لها قيمتها ووجاهتها في عصرنا، وهي مسلّمة لدى الدعاة الأصلاء. كما أنها مسلمة من الإمام البنا نفسه، كما هو واضح من رسائله ومحاضراته وتراثه.

ولكن الذي جعل حسن البنا يقتصر على تلك «الأصول العشرين»، أنه كان يخاطب بها الجماعات الدينية في مصر، والتي اختلفت في شأن القضايا التي تعرض لها اختلافًا كبيرًا، باعد بين بعضها وبعض، حتى انتهى إلى حد التكفير أحيانًا.

وقد كان الإمام البنا حريصًا كل الحرص على التأليف والتقريب بين الجماعات العاملة للإسلام، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ولم يأل في ذلك جهدًا. ولهذا صاغ هذه الأصول صياغة وسطية حكيمة، من شأنها أن تجمع ولا تفرق، متبنيًا قاعدة المنار الذهبية: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه».

ولم يعن الإمام الشهيد بخطاب العلمانيين والمتغربين من أبناء الأمة بهذه الأصول، وإلا لانتهى إلى ما انتهى إليه الشيخ الغزالي من هذه الإضافات.

وهذا ما وضحناه في شرحنا المفصل والمطول للأصول العشرين[11].

---

(10) «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» (ص: 249 – 252)، ط. دار الأنصار بالقاهرة.

(11) انظر: «نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام» الجزء الأول: «شمول الإسلام»، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

* * *

الفصل الثالث

الغزالي . . . وحسن الهضيبي

* * *

الغزالي . . . وحسن الهضيبي

الغزالي والهضيبي في أيام الرضا:

كانت علاقة الشيخ الغزالي بالأستاذ حسن الهضيبي – المرشد الثاني للإخوان المسلمين – علاقة طيبة، منذ اختاره الإخوان قائدًا لمسيرتهم، ورضوا به إمامًا لجماعتهم. وكان يصطحبه معه في رحلاته الدعوية إلى الأقاليم ويكلفه ببعض الكتابات الدعوية، التي يراه أقدر عليها من غيره. كما رأينا ذلك في الرد على ذلك القبطي الذي تطاول على الإسلام وشريعته وحضارته وتاريخه، وظهر ذلك في كتاب: «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام».

وظلت هذه العلاقة حسنة، حتى ظهرت على المسرح السياسي ثورة (23) من يوليو، وعجزت عن احتواء الإخوان الذين وقفوا إلى جوارها، وشدوا أزرها، وحموا ظهرها، فلجأت إلى أسلوب أخبث وأمكر، وهو: محاولة الإيقاع بين قادة الجماعة، حتى يسوء ظن بعضهم ببعض، واستطاع جمال عبد الناصر أن يستغل بعض المواقف للاصطياد في الماء العكر.

وهكذا استطاع أن يوقع بين قيادة النظام الخاص وقيادة الجماعة، حتى أدى ذلك إلى احتلال مجموعة من الشباب المتحمس المزكر العام، والتمرد على قرارات القيادة المبايعة. كما استطاع أن يوغر صدور جماعة من القادة القدامى، حتى وقفوا مع هذا الشباب الثائر ضد قيادته. وكان من هؤلاء أربعة معروفون من خيرة الإخوان جهادًا وسابقة وخدمة للدعوة، ومحبة لدى جماهير الإخوان. كان منهم

الشيخ الغزالي[12].

وفي هذا الجو الملبد بغيوم الفتنة المحبوكة، صدر قرار القيادة بفصل الأعضاء الأربعة من الجماعة. وبهذا بلغت الفتنة هدفها، وحققت مآربها.

الغزالي في غضبه:

قد تخالف الغزالي أو يخالفك، في قضايا تصغر أو تكبر، وتقل أو تكثر، ولكنك - إذا عرفته حق المعرفة - لا تستطيع إلا أن تحبه وتقدره، لما تحسه وتلمسه من إخلاص لله، وتجرد للحق، واستقامة في الاتجاه، وغيرة صادقة على الإسلام.

صحيح أنه أخذ على الشيخ أنه سريع الغضب، وأنه إذا غضب هاج كالبحر، حتى يُغرِق، وثار كالبركان حتى يُحرِق!

وقد ظهر هذا في خلافه مع الأستاذ الهضيبي - المرشد الثاني للإخوان - وما كتبه عنه في مجلة «الدعوة»، ونشره في كتابيه: «في موكب الدعوة»، و«من معالم الحق».

وهذا ما لا يجحده الشيخ الغزالي، وما يعلمه من نفسه، ويعلمه من عايشه وعاشره.

وسر هذا أن الرجل يبغض الظلم والهوان لنفسه وللناس، ولا يجب أن يَظلم أو يُظلم، ولا أن يستخف بكرامة أحد، كما لا يستخف بكرامته أحد. كما أنه لا يطيق العوج ولا الانحراف، وخصوصًا إذا لبس لبوس الاستقامة، أو تستر بزي الدين،

(12) هؤلاء الأربعة هم: الأساتذة: صالح عشماوي وكيل الإخوان، والدكتور محمد سليمان، وأحمد عبد العزيز جلال، بالإضافة إلى الشيخ الغزالي، وكلهم أعضاء في الهيئة التأسيسية للإخوان.

فهو الذي يقاتله سرًّا وعلانيةً.

فإذا رأى ظلمًا أو عوجًا - في رأي نفسه على الأقل - لم يستطع أن يغلق فمه أو يغمد قلمه، بل صب عليه جام سخطه، ولم يحفل بما يصيبه من شرر الصدام.

ولكن يكمِّل هذا أن الشيخ لا يفجُر في خصومته، ولا يفتري على خصمه، أو يتمنى له السوء، أو يشمت به إذا نزل به بلاء، إنما هو كما قال القائل: رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمت، وغضبتُ فقلتُ أقبح ما علمت!

ثم إن من صفات الشيخ الغزالي أنه - إن كان سريع الغضب - فهو سريع الفيء، رجّاع إلى الحق إذا تبين له، ولا يبالي أن يعلن خطأه على الناس علانية، وهذه شجاعة لا تتوافر إلا للقليل النادر من الناس. فهو شجاع عندما يهاجم ما يعتقده خطأ، شجاع عندما يعترف بأنه لم يحالفه الصواب فيما كان قد رآه.

لقد كان له رأي في سياسة الأستاذ حسن الهضيبي، ونقد بعنف هذه السياسة، وازداد عنفه حينما أعلن فصله من دعوة الإخوان، التي قضى فيها شبابه، ونذر لها عمره، ولم يكن يتصور أن يأتي يوم يبعد فيه عن دار كان أحد بناتها وحملة حجارتها. وكان إذا لامه لائم على حدّته يتغنى بقول الشاعر القديم:

وقالوا: قد جننتَ، فقلتُ: كلا   وربي ما جننتُ ولا انتشيتُ!
ولكني ظلمت فكدت أبكي   من الظلم المبيّن، بل بكيتُ!
فإن الماء ماء أبي وجدي   وبئري ذو حفرتُ وذو طويتُ!

وكان مما هاج غضبه، واستثار غريزة الدفاع فيه: أن بعض أولي الهوس من الإخوان هدده وتحداه، كما حكى ذلك الشيخ في بعض كتبه، قال:

«إن ميدان العمل لله ورسوله أرحب من أن يحتك فيه متنافسون، وأسمى من

أن يشتبك فيه متشاكسون!

وقد كنت حريصًا على الصمت الجميل يوم عرفت أني سأعمل للإسلام وحدي، بيد أن أحدًا من خلق الله اعترضني ليقول لي: إن تكلمتَ قُتلِت (!)، فكان ذلك هو الحافز الفذ على أن أتكلم وأطنب.

إن اللفظة الرقيقة تطوق عنقي فأستسلم، أما التحدي فإنه يهيج في طبيعتي غرائز الخصام.

وقد يرى القارئ فيما كتبته هنا، أو فيما كتبته من قبل، خطأ في فكرة، أو جورًا في عاطفة، أو شذوذًا في نفس، يجب أن تُحذر وأن تحاصر!! ليكن ذلك كله أو شيء منه. فهذه نفسي، وهذه صحائفي، وأرجو ألا أتملق إلا ربي، وألا أهتم لأحكام الناس ...»!

ومع هذا حين تبين له طغيان عبد الناصر، وسوء موقفه من الإسلام، ومن دعوة الإخوان، وسمع ما سمع عن التنكيل والتعذيب الذي تجرع مرارته إخوانه في السجون والمعتقلات، وعن صلابة الأستاذ الهضيبي وثباته في وجه الجبابرة، وأنه لم يحن لهم رأسًا، ولم يوطئ لهم ظهرًا – غيّر موقفه من المرشد الهضيبي ونوه بموقفه، وأشاد بإيمانه ورجولته. وحين أفرج عنه، سارع بالذهاب إلى منزله، ليهنئه ويصافحه بحرارة وإخلاص، وقد قابله المرشد بنفس الحرارة، وروح الأخوة، التي كانت دائمًا إحدى السمات الأولى المميزة لعلاقات الإخوان بعضهم ببعض.

بعد أن كتب الغزالي ما كتب من مقالات – في فترة الغضب بعد فصله من الجماعة – رأى أن يطوي بعضها فلا ينشره في كتاب، ونشر بعضها ثم حذفه، بعد أن هدأت نفسه، واستجابت لنصح بعض إخوانه.

وأبقى بعض الأشياء – على ما فيها من آثار الحدة والغضب – للتاريخ، ومع هذا عقب في إحدى الحواشي عليها بقوله:

«في هذه الصفحات مرارة تبلغ حد القسوة، وكان يجب ألا يتأدى الغضب بصاحبه إلى هذا المدى، بيد أن ذلك – للأسف – ما حدث. وقد عاد المؤلف إلى نفسه يحاسبها وتحاسبه في حديث أثبته آخر هذه الباب»[13].

ثم عاد آخر الباب إلى الحديث عن الأستاذ الهضيبي – رحمه الله وأكرم مثواه – فقال:

«إنه ما ادعى لنفسه العصمة، بل من حق الرجل أن أقول عنه: إنه لم يسع إلى قيادة الإخوان، ولكن الإخوان هم الذين سعوا إليه، وإن من الظلم تحميله أخطاء هيئة كبيرة مليئة بشتى النزعات والأهواء.

ومن حقه أن يعرف الناس عنه أنه تحمل بصلابه وبأس كل ما نزل به، فلم يجزع ولم يتراجع، وبقي في شيخوخته المثقلة عميق الإيمان، واسع الأمل، حتى خرج من السجن.

الحق يقال ... إن صبره الذي أعز الإيمان، رفعه في نفسي، وإن المآسي التي نزلت به وبأسرته لم تفقده صدق الحكم على الأمور، ولم تبعده عن منهج الجماعة الإسلامية منذ بدأ تاريخنا ... على حين خرج من السجن أناس لم تبق المصائب لهم عقلًا.

وقد ذهبت إليه بعد ذهاب محنته، وأصلحت ما بيني وبينه، ويغفر الله لنا

---

(13) حاشية (ص: 216) من «معالم الحق».

أجمعين». اهـ.

حكى لي الأخ الفاضل الدكتور مالك الشعار – القاضي الشرعي بلبنان – مشهدًا رآه بعينيه من الشيخ الغزالي رفعه عنده مكانة فوق مكانته. قال: كنا في جنازة أظنها كانت لزوجة الإمام الشهيد حسن البنا، والتقى فيها الأستاذ الهضيبي والشيخ الغزالي، فما راعني إلا رأيت الغزالي يحاول أن يمسك بيد الهضيبي، يريد أن يقبّلها. والهضيبي يأبى، والشيخ يصر، فازددت والله إكبارًا وإجلالًا للغزالي على هذا التواضع العجيب، مع أنه كان في ذلك الحين ملء الأسماع والأبصار. ولكن هكذا تكون أنفس الدعاة الكبار!

وكان مما هز الشيخ الغزالي وقدره من مواقف الأستاذ الهضيبي، أنه أوصى في مرض موته أن يدفن في مقابر الصدقة، التي يدفن فيها الفقراء والغرباء! وهو من هو منزلة ومنصبًا وجاهًا. فهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الرجل من الله بمكان أي مكان!

وقد سجل هذه المأثرة للرجل الكبير، مقدرًا ومتأثرًا في بعض كتبه فقال:

«من أيام مات الأستاذ حسن الهضيبي – المرشد الثاني لجماعة الإخوان – وبلغتني وصيته: لقد أوصى أن يدفن خفية، لا إعلان ولا مواكب، وطلب أن يوارى جثمانه في مقابر الصدقة.

وعقدت لساني دهشة، وأنا أسمع العبارة الأخيرة «في مقابر الصدقة»!

إنني أعرف حسن الهضيبي، وقد أصلحت ما بيني وبينه قبل أن يموت بنحو عامين ...

في نفس هذا الرجل ترفع وأنفة لا يتكلفها، وهو إذا اعتقد شيئًا استمات فيه

دون لف أو مكر ...

قلت: لِمَ مقابر الصدقة؟!

ولم يغب عني الجواب. لقد كان مستشارًا راسخ المكانة، رفيع الهامة.

لو اشتغل بمهاجمة الشريعة الإسلامية لنال جائزة الدولة التقديرية التي نالها غيره.

ولو خدم الغزو الثقافي لعاش في شيخوخته موفور الراحة، مكفول الرزق.

ولكنه خدم الإسلام، فتجرع الصاب والعلقم! طعن مع الدين الجريح. وأهين مع الدين المهان! فأراد أن تصحبه هذه المكانة في منقلبه إلى اللَّه!

فليدفن في مقابر الصدقة مع النكرات التي لا يباليها المجتمع!

فليدفن مع ناس أسلموا أرواحهم في غرفات السجن الحربي، وهم رازحون تحت وطأة عذاب تنوء به الجبال!

الحق يقال: إن الأمة المصرية خاصة، والأمة الإسلامية جمعاء، يجب أن تراجع نفسها طويلًا قبل يوم الحساب ...

وسواء صحا الضمير الراقد أم بقي غافيًا، فإن أعداء الإسلام لم يتغيروا في مواقفهم منه. لقد تحركوا مستغلين الضربات التي أطارت رشده ومزقت شمله، فطمع البعض في تهويده، والبعض في تنصيره، والبعض في تكفيره، كفرًا يقطع علاقته بتة باللَّه والمرسلين أجمعين ...

وتلك نتائج لم يكن منها بد للسياسة التي سلكها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ...

وما ألّفنا هذا الكتاب إلا بعد ما رأينا أن ارتداد مصر عن الإسلام، خطة يتحرك بها كثيرون يعالنون بها ولا يستسرون ...!!

وظاهر أن جمال عبد الناصر كان أداة رائعة في يد القوى العالمية الحاقدة على الله وخاتم رسله، وأنه فعل بمصر أضعاف ما فعله «لورد كرومر».

ما تكون «دنشواي» بجانب مجازر طرة والحربي وغيرهما من سجون؟!

ومعلوم أن مصر، والعرب كلهم، والمسلمين في القارات الخمس مكلفون بالتفريط في عقيدتهم وأرضهم ... وإن مأساة فلسطين نموذج لمآس أخرى عديدة.

ومعلوم أن الحرب المعلنة علينا تعتمد على جماح ديني عند اليهود، والنصارى، أعني المستعمرين منهم، وأن الدفاع لن يتماسك أو يقم أو ينجح إلا بعاطفة دينية مقابلة ترد الجماح المعتدي.

لقد كانت رسالة الزعيم المصري أن يميت العاطفة الدينية عند المسلمين، وأن يطارد كل أثارة من الإسلام ... أي كان يمهد للتعصب الزاحف ويدع الطريق أمامه مفتوحًا ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ 18 ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: 18، 19][14].

وكان خلاف الشيخ مع الأستاذ الهضيبي وقرار فصله من الجماعة، سببًا في نجاته من الاعتقال أوائل سنة (1954م)، وأواخرها، وكذلك سنة (1965م)، وإن كان قد أخذ إلى معتقل طرة لمدة عشرة أيام، ثم أفرج عنه، فقد كان عبد الناصر حريصًا على تثبيت الفرقة بين قادة الإخوان، وتأجيج نارها ما استطاع، واعتقال

---

(14) «قذائف الحق» (ص: 108، 109).

الجميع يقربهم بعضهم من بعض – فالشدائد تؤلف بين المختلفين، والمصائب يجمعن المصابين.

ولكن الشيخ وإن عوفي من الاعتقال في هذه السنين السود، كان قلبه يتقطع أسى من أجل إخوانه، وكم رآه زواره تذرف عينه العبرات ألمًا لما يلقاه البرآء الأطهار، وراء الأسوار، وما تلقاه الحرائر من أمهات وزوجات وبنات وأطفال اعتقل عائلوهم أو قتلوا. ورغم قساوة الظروف، وانتشار العيون التي للمكاتب، والآذان التي للجدران، لم يغلق بابه في وجه أحد قصده، بل كان مكتبه وبيته وقلبه، كلها مفتوحة لإخوانه وأهليهم وذويهم، كما شهد بذلك كل ما كانوا على صلة بالشيخ في تلك الفترة العصبية، لا ردها الله.

وأقول هنا: رُبَّ ضارة نافعة، ومن الشر ما يأتي بالخير.

وكم لله من سر خفي يدق خفاه عن فهم الذكي!

وقد كان التآمر على يوسف الصديق عليه السلام، وإلقاؤه في غيابة الجب، وبيعه بثمن بخس دراهم معدودة، محنة أي محنة ليوسف عليه السلام، ولكن كان في طيها منحة له ولمصر، ولما حول مصر، فقد كان القدر يعده لينقذها، بفضل الله، ثم بحسن تخطيطه وتدبيره وتنفيذه من مجاعة ماحقة، وقحط لا يبقي ولا يذر: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 56].

وكذلك كان خلاف الشيخ الغزالي مع الأستاذ الهضيبي، وفصله من جماعة الإخوان، وهو ما آلمه أشد الإيلام، وضاق به أعظم الضيق، وما أسينا له جميعًا أبلغ الأسى، كان منحة ورحمة من الله من جهات أخرى لم نكن نعلمها.

فقد بقي الغزالي في الساحة يتحدث عن الإسلام، ويبلغ رسالته وإن لم تكن له الحرية الكاملة، ولكن صوته كان مسموعًا، وكاد يكون هو الصوت الإسلامي الوحيد البيّن، الذي يجأر بالدعوة إلى الله، وسط الضوضاء الصاخبة التي تنعق بتقديس الطاغوت. وكان هو الشمعة الهادية في تلك الفترة الحالكة الظلمات، وكان لسان هذه الشمعة يهتز ويتأرجح ويوشك أن ينطفئ، كلما هبت الريح من يمين وشمال، لولا أن لله مشيئة وحكمة أن يظل نورها مضيئًا، حتى تبزغ شمس الحرية يومًا.

❋ ❋ ❋

الفصل الرابع

الغزالي ... وثورة (23) يوليو

❋ ❋ ❋

الغزالي ... وثورة (23) يوليو

كان الغزالي – لطول حربه للمَلَكية الفاسدة، والإقطاع المتسلط، والظلم المتجبر – شديد الحفاوة بالثورة المصرية، ثورة الجيش في (23) من يوليو سنة (1952م) عظيم الترحيب بها، والمناصرة لها، وخصوصًا أنها أنجزت بعض ما نادى به مثل تحديد الملكيات الكبيرة.

وكذلك كان الإخوان المسلمون جميعًا، فهم الذين ساندوها من أول يوم، وسجدوا لله شكرًا بانتصارها، وكانوا حراسها على المنشآت الأجنبية والوطنية التي يخشى أن يفكر خصوم الثورة في الاعتداء عليها، وكانوا يَعُدّون الثورة منهم ولهم، وأن من قادتها من كانوا من الإخوان بالفعل، أو من أصدقاء الدعوة عن بعد، ومن تتلمذ على علماء كبار يوالون الإخوان كالعلامة الشيخ الأودن. ولا غرو أن وقفوا جميعًا بجوارها، وحموا ظهرها، وحشدوا قوى الشعب لمساندتها، والرد على المشككين فيها.

ولكن الإخوان سرعان ما انكشف لهم أن عبد الناصر يريد الثورة لنفسه ولحسابه فقط، وأنه يضمر شرًّا للحركة الإسلامية، ولكل قوة تقف في طريقه. وقد ظهرت دلائل كثيرة تؤكد ذلك منذ وقت مبكر – وأنا شخصيًّا لمست ذلك – وهذا ما جعل الأستاذ الهضيبي يتوجس شرًّا من عبد الناصر، ولكن الشيخ الغزالي كان حسن الظن به، بناءً على ظواهر رآها منه، أو سمعها عنه. ولكن الأيام أثبتت أن فراسة القاضي المتوجس، كانت أصدق من ظن الداعية المتفائل.

ومن ناحية أخرى، كان الغزالي – مع فريق من الإخوان القدامى – يتخوفون أن يدخل الإخوان مع الثورة في معركة غير متكافئة، معركة مع حكومة عسكرية

عاتية تملك الجيش والشرطة والقوات المسلحة، ولا تبالي بما تريق من دماء في سبيل بقائها واستمرار حكمها! وإن من الخير للإسلام ولمصر ـ وللإخوان، أن يكونوا أكثر ليونة مع الثورة وقائدها، الذي لم يتخذ – في رأيهم – بعد موقفًا صريحًا ضد الإسلام.

ولعبت الوشايات دورها، وغام الجو، والتبس الحق بالباطل، وهبت رياح الفتنة، وحدثت أحداث ما كان ينبغي لها أن تحدث في رحاب الجماعة التي قامت أساسًا على الإخاء والحب. وقرت بذلك عين عبد الناصر؛ ليضرب أبناء لدعوة الواحدة بعضهم ببعض، وهو يتفرج عليهم ضاحكًا مسرورًا. ونسوا وصية إمامهم حسن البنا، الذي حذرهم من مغبة الفرقة، حين قال لهم يومًا: والله، ما أخشى عليكم الإنجليز ولا الأمريكان ولا غيرهم من القوى المعادية في الخارج والداخل، ولكن أخشى عليكم أمرين: أن تعصوا الله فيتخلى عنكم، أو تتفرقوا فلا تجتمعوا إلا بعد فوات الفرصة!

وأدت هذه الفتن إلى فصل الغزالي ونفر معه من الجماعة، وانقسام الصف، وافتراق الكلمة، وهو الأمر الذي مكن لعبد الناصر أن يبطش بالجماعة بطش من لا يخاف خالقًا، ولا يرحم مخلوقًا.

المهم أن الغزالي أدرك بعد ذلك خبث عبد الناصر وسوء طويته، وكيده للإسلام وأمته، وكتب في ذلك بعض الكتب المعبرة عن وجهته هذه، مثل: «كفاح دين»، و«قذائف الحق»، و«معركة المصحف في العالم الإسلامي»، و«حصاد الغرور»، و«الإسلام والزحف الأحمر» وغيرها ...

وفي كتابه: «كفاح دين» كشف اللثام عن الخطط المبيتة لضرب كل تحرك

للإسلام، والاستعانة على ذلك بأبناء المسلمين أنفسهم. وذكر فيه إحصاء بالمساجد التي هدمها رجال الثورة بدعوى تجميل القاهرة، ولم يبنوا بدائل لها ... وسلط الضوء على ما تقوم به أجهزة الإعلام من تخريب للعقول والضمائر.

وكان قد خطر له أن يجعل عنوان هذا الكتاب: «سياسة تمويت الإسلام»، سمعت ذلك منه، ثم رأى العنوان الآخر أخف وطأة، وأدل على روح المقاومة والكفاح الكامنة في طبيعة الإسلام.

وفي كتاب: «قذائف الحق» وضع النقاط على الحروف، وفضح المؤامرات اللئيمة التي دبرت – وما زالت تدبر – للإسلام عامة، ولدعوة الإخوان خاصة، باعتبارهم القوة المتحركة والمحركة لأمة الإسلام. وسجل في كتابه «الوثيقة الرهيبة» التي أعدها زكريا محيي الدين وشمس بدران ورجالهما، ووقع عليها عبد الناصر للقضاء على الإخوان، وعلى الروافد التي تمدهم من سائر التيارات والقوى الدينية في مصر.

كما أكد أن القومية العربية لا يمكن أن تكون بديلًا عن الإسلام، وأن العرب بدون الإسلام صفر ...

وفي هذا الكتاب، عرض الغزالي لعبد الناصر في أكثر من موضع، وخصوصًا في فصل «الدعوة الإسلامية والحكام الخونة». فقد ذكره مع «أتاتورك»، و«سوكارنو»، و«سوهارتو» وغيرهم ممن استخدمتهم القوى المعادية للإسلام من صهيونية وصليبية وشيوعية.

وأنكر على عبد الناصر أن يستخدم الأزهر – أكبر جامعة إسلامية – ليستقبل الداعر المنحل سوكارنو ويمنحه أعلى شهاداته العلمية وهي «العالمية» الفخرية في

العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين!!

يقول الشيخ معلقًا:

«والحق أني حائر في فهم جمال عبد الناصر. لقد كنت - كما يعلم الناس - من جماعة الإخوان المسلمين، وأقرر أن جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين بايعا في ليلة واحدة على نصرة الإسلام ورفع لوائه. وقد كنت قريبًا من مشهد مثير وقف فيه جمال عبد الناصر أمام قبر حسن البنا يقول:

نحن على العهد، وسنستأنف المسيرة!

كان ذلك عقب قيام الثورة بأشهر قلائل[15].

وقد وضع كتّاب مسلمون كبار مقدمات للرسائل التي كانت تصدر تحت عنوان «اخترنا لك» أمضاها جمال عبد الناصر، وفيها أشرف ما يؤكده زعيم مسلم نحو أمته ودينه.

لا أدري ما حدث بعد ذلك ...

إنه تغير رهيب في فكر الرجل ومسيرته، جعله في كل نزاع بين الإسلام وطرف آخر ينضم إلى الطرف الآخر:

- انضم إلى الهند في خصومتها المرة ضد باكستان المسلمة.

- انضم إلى الحبشة في عدوانها الصارخ على إريتريا.

- انضم إلى تنجانيفا وأغضى عن المذبحة الشنعاء التي أوقعتها بشعب زنجبار

---

(15) كان ذلك في شهر فبراير (12) منه، سنة (1953م).

المسلم، ورحب أحر ترحيب بنيريري الذي يتظاهر بالاشتراكية وهو قسيس كاثوليكي!!

- انضم إلى القبارصة اليونان في نزاعهم مع القبارصة المسلمين، وجعل الأزهر يستقبل مكاريوس عدو الكيان الإسلامي للأتراك.

- كان أسدًا هصورًا في قتال اليمن، وحملًا وديعًا في قتال اليهود، حتى جعل اليهود - وهم أحقر مقاتلين في العالم - يزعمون أنهم لا يقهرون في حرب!!

سريع إلى ابن العم يلطم خده ... وليس إلى داعي الندى بسريع!

- وقد ساند «البعث العربي» الحاقد على الإسلام، ورفض مساندة أي تجمع إسلامي، واخترع حكاية القومية العربية لتكون بديلًا عن العقيدة الإسلامية ...!!».

على أن الغزالي حتى في أيام تجاوبه مع الثورة وتعاطفه مع اتجاهاتها الأولى، لم يهبط إلى مستوى يجعله لسان إطراء لها، أو أداة طيعة في يديها، فإن طبيعته تأبى ذلك، وتكوينه النفسي والخلقي والعقلي يرفض أن يكون من ذلك النوع من المداحين والمتملقين.

ومواقفه في ذلك معروفة في عهود الرؤساء الثلاثة: عبد الناصر والسادات ومبارك.

ولن ينسى أحد موقفه في (المؤتمر الوطني للقوى الشعبية سنة 1962م) الذي عقده عبد الناصر، وتحدث فيه الغزالي خارج الخط العام للمؤتمر، مناديًا بضرورة استقلال الأمة في تشريعها، فلا تكون عالة على غيرها: وهذا هو الاستقلال الحقيقي، وبوجوب تميزها في تقاليدها وأزيائها - أزياء الرجال والنساء - فلا

تكون مجرد نسخة مشوهة للغرب في أفكاره وتقاليده.

وهنا ثارت ثائرة الشيوعيين والمنحلين، وأعداء الإسلام المتسترين بالثورة، والمحتمين بحماها.

وكتب رسام الكاريكاتير الملحد المعروف صلاح جاهين، المحرر بالأهرام ما كتب من سخرية بالشيخ وكلامه، وما يرمز إليه من بقاء الإسلام والأزهر والإخوان. وكان صوت الغزالي المنادي بالإسلام، وصوت الأستاذ خالد المنادي بالحرية، هما البرهان الحي على أن مصر لم تمت، وأن في الزوايا خبايا، وأن للحق رجالًا.

نشر صلاح جاهين – المعروف بانتمائه الشيوعي – (14) رسمًا ساخرًا، تحت عنوان: «تأملات كاريكاتورية في المسألة الغزالية» إن دلت على شيء، فإنما تدل على أن كلمة الغزالي قلبت موازينهم، وأصابت منهم مقتلًا. وهو فرد، وهم ألوف، معهم الدولة والسلطان، والصحافة والإعلام.

والناس ألف منهمو كواحد   وواحد كالألف إن أمر عنا!

ولقد بلغ التبجح بصلاح جاهين أن بعض الناس قالوا له: كيف تهاجم الإسلام ورجاله، وهو دين الدولة الرسمي؟ فقال لهم: إذا كان الإسلام دين الدولة فسأحارب الدولة!

ولقد غاظ الجماهير المسلمة أن يتعرض شيخها وإمامها الغزالي لهذه السخريات من صحفي ملحد أثيم، فخرجت يوم الجمعة (1/ 6/ 1962م) من الجامع الأزهر في صورة مظاهرة شعبية غاضبة مزمجرة، ضمت عشرات الألوف. وقد اتجهت الجموع الصاخبة إلى دار «الأهرام» القديمة تعلن احتجاجها وسخطها، وقد

حاولوا أن يحملوا الشيخ الغزالي معهم على الأعناق، فرفض رفضًا حاسمًا.

لقد سخر الشيوعي جاهين من عمامة إمامنا الغزالي، ولكن الشيخ وقف في المؤتمر في اليوم التالي يقول جهرة: إن تحت هذه العمامة رأس مفكر، كان يحارب الظلم والإقطاع، أيام كان أمثال هذا الكاتب قوادين لفاروق!

ولقد سمعته - وأنا في قطر - يتحدث على الهواء في المؤتمر، يرد على مفتريات الصحافة، التي حرفت كلامه، وعلى الصحافيين الذين قولوه ما لم يقل، حقدًا على الإسلام الذي يمثله، وكان مما قاله: إن الذي يهاجمه هؤلاء اليوم باسم التقدمية والحرية، نشر له في عهد الملكية خمسة كتب تهاجم الأوضاع الظالمة الفاسدة، طبعت مثنى وثلاث ورباع، في الوقت الذي كان هؤلاء وأشباههم يسبحون بحمد فاروق وحاشيته!

وخرج الشيخ حفظه الله من المعركة مرفوع الهامة، محفوظ الكرامة، مرعيًّا بتأييد الله، وحب الشعب.

وبعد رحيل عبد الناصر، وقدوم عهد السادات، وإفراجه عن المعتقلين، وإعلانه بدء سيادة القانون، ومحاربته لمراكز القوى في العهد الناصري، استبشر الشيخ واستبشر الشعب المصري كله، بعد أن انزاح الكابوس الذي جثم على صدره ثمانية عشر عامًا. وتنفس الناس الصعداء، وشرع الكتاب يكتبون عن بعض مساوئ الحكم الناصري ومآسيه، وما ذاقه المعتقلون والسجناء في السجن الحربي وطره والواحات، وغيرها. وظهرت كتب ومقالات كشفت بعض المستور من آثار الطغيان والقهر، وظهرت «المنابر» السياسية التي تطورت بعد إلى أحزاب، بعد أن كان الحزب الواحد هو الذي يحكم مصر، من هيئة التحرير إلى الاتحاد القومي، إلى

الاتحاد الاشتراكي.

استراح الشيخ إلى العهد الجديد، وبدأ يمارس نشاطه في ظله، وأبرز ما يمثله: خطبة الجمعة، التي كان الشيخ يلقيها في الجامع الأزهر، التي جذبت إليها المثقفين، ولا سيما الشباب.

وفي عهد وزير الأوقاف الصالح شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود، قال للشيخ الغزالي: إني رأيت عمرو بن العاص ﷺ في الرؤيا يشكو من هجر مسجده. وكان المسجد مهملًا حتى إنه في أجزاء منه أصبح مرتعًا للقمامة من أهل الحي. وطلب الوزير من الشيخ – الذي كان يعمل بالوزارة مسئولًا عن شئون الدعوة – أن يتولى الخطابة بجامع عمرو، حتى يحيى المسجد وينتعش. وسر الشيخ بهذا التكليف، فجامع عمرو هو أول مسجد في مصر، بل هو أول مسجد في إفريقيا كلها.

وبالفعل تجدد المسجد مبنى ومعنى وعاونت المحافظة والوزارة في ذلك، وأقبل الناس على خطب الشيخ، حتى بلغ عدد الحاضرين عشرات الألوف. وكون الشيخ بخُطبه مدرسة إسلامية متميزة بالاستنارة والاعتدال، وانتشرت أشرطة هذه الخطب في أصقاع مصر، وخارجها.

وفي هذه الخطب، كما في مقالات الشيخ وكتبه، نقد لبعض الأوضاع، وكشف لبعض المخبوء من المكايد والتآمر على الإسلام وأمته. وهذا لم يرض السياسة المصرية. وحُذِّر الشيخ من هذا التوجه الذي يلتزمه. ولكن الشيخ استمر في طريقه الذي رسمه لنفسه، ولم يصغ إلى ما نصحه به رئيسه الدكتور عبد العزيز كامل نائب رئيس الوزراء للأوقاف والشئون الدينية. فكان لا بد أن يوقف هذا النشاط، ويعزل الشيخ عن الخطابة في المسجد، وأن يوضع الشيخ في القائمة السوداء.

ورأى الشيخ أن الدولة أضحت تضيق به ذرعًا، وأن عليه أن يبحث عن مكـان آخر، فرحبت به جامعة أم القرى، ورحب الشيخ بمجاورة المسجد الحرام، تاركًـا الميدان في مصر رغمًا عنه.

وفي أحد اجتماعات الرئيس السادات، سأله رئيس اتحاد طلاب جامعة القـاهرة «د. عبد المنعم أبو الفتوح» عن سر التفريط في الشيخ الغزالي ليغادر مصرـ، ويحـرم جمهوره منه، وتقريب الضعفاء أو المنافقين. وهنا ثارت ثـائرة السـادات، وهـاجم الشيخ الغزالي، واتهمه بأنه من دعاة الفتنة «الطائفية»، وما كـان الشـيخ يومًـا مـن هؤلاء ولا يكون. ولكنه رجل صريح شجاع، يدق ناقوس الخطـر، إذا لاح لـه مـا يهدد الأمة، فلا يمكن أن يغمض عينه أو يصـم أذنـه، والخطـر مـن حولـه يـرى ويسمع.

* * *

الفصل الخامس

الغزالي . . . رجل الدعوة

* * *

الغزالي . . . رجل الدعوة

عرفت في الشيخ الغزالي أنه رجل دعوة قبل كل شيء. الإسلام لحمته وسداه، وشغل نهاره، وحلم ليله، ومحور حياته كلها. الإسلام ماضيه، والإسلام حاضره، والإسلام مستقبله، فيه يفكر، وعنه يتحدث، وعليه يعول، وإليه يدعو، ومنه يستمد.

والدعوة إلى الإسلام لها كل عقله وقلبه، ولسانه وقلمه، وجهده وجهاده، لا يستطيع الابتعاد عنها إلا كما يستطيع الحوت أن يبتعد عن الماء. يعيش به، وله، وفيه. له يسالم، وله يحارب، وفيه يحب، وفيه يبغض، وله يغضب، وبه يرضى ومن أجله يصل، ومن أجله يقطع، وله يحيا، وعليه يموت. أخلص دينه لله، فأخلصه الله لدينه.

ولهذا حين يتحدث عن الإسلام، فإنما يتحدث قلبه قبل لسانه، ويعبر قلمه عما جاش به صدره، وانفعلت به حناياه. فهو رجل ظاهره كباطنه، وعلانيته كسرِّه، أكره شيء إليه نفاق الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فهم أشبه بمقابر مزوقة، في جوفها جيف منتنة!

لا يحب الرياء الديني، ولا الرياء الاجتماعي، ولا الرياء السياسي. ويرفض كل المظاهر الكاذبة، التي تقوم عليها الحياة الدينية أو الاجتماعية. ويندد بأولئك الدجالين الذين يأكلون بالدين ولا يعملون به، ولا يعملون له. ويلعن أولئك الحكام الذين يشاركون في المناسبات الدينية، وأفئدتهم خراب من احترام شريعة الله، وآخرين يحتفلون بالمولد النبوي أو الإسراء أو الهجرة، ولم تزل أفواههم رطبة من الخمر.

الغزالي رجل دعوة مخلص لدعوته، متجرد لها، ولهذا ينفذ كلامه إلى القلوب، فيلهبها بمشاعر اليقين والحب، ومعاني الإيمان والإحسان.

وأشهد أني ما سمعت الغزالي إلا تأثرت به، وتجاوبت معه، وذلك لما لمست فيه، طوال معايشتي له، من صدق وتجرد، جعل صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله، أحسبه كذلك والله حسيبه، ولا أزكيه على الله ﷻ.

عاش الشيخ للدعوة عمره، وكانت هي أكبر همه، ومحور فكره وعمله. ولم يلهث وراء مال أو جاه، فجاءه المال والجاه بفضل من الله تعالى، وبركة الدعوة، وهو دائمًا يذكر ذلك، ويذكّر به.

لم يركض وراء المناصب التي يتهافت عليها كثيرون ممن يلبسون لبوس أهل الدين، وأحق ما يوصفون به، ما جاء عن بعض السلف: ذباب طمع، وفَراش نار!

ولقد عرض على الشيخ أكثر من مرة أن ينضم إلى الحزب الحاكم، وأن يرشَّح على قائمته، ونثرت أمامه الوعود، ولوّح له بالمناصب، التي ارتقى إليها من دونه علمًا وعملًا ودعوة وجهادًا وشهرة.

وزاره أكثر من كبير من المسئولين، يحاولون أن يلينوا عريكته، ويجروا رجله إلى القيد الذهبي البراق.

ولكن الله سدد الشيخ وثبّته أمام كيدهم، فلم تلن له قناة، ولم يسل له لعاب، وظل بعيدًا عن مواكب الطبل والزمر، فما يطيق الشيخ أن يسكت عن حق، فكيف يراد له أن ينطق بالباطل؟!

إن لسان الشيخ لم يخلق ليهتف باسم مخلوق، بل ليهتف باسم الله وحده، ذاكرًا له، وتاليًا لكتابه، وداعيًا إلى دينه ... ويد الشيخ لم تخلق لتصفق لزيد أو عمرو من

الناس، بل لتمسك بالقلم سلاحًا تشهره في وجوه الطواغيت، وتنير بكلماته السبيل أمام طلاب الهداية في تيه الضلالات، وملتمسي النور في دنيا الظلمات.

وقد أهَّل الشيخَ للدعوة - بعد دراسته الأزهرية المتعمقة - حفظه لكتاب الله من الصبا، وشغفه بالقراءة من الصغر، حتى إنه ذكر عن طفولته أنها كانت عادية، وليس فيها شيء مثير، وإن كان يميزها حب القراءة. يقول: فقد كنت أقرأ في كل شيء، ولم يكن هناك علم معين يغلب عليّ، بل كنت أقرأ وأنا أتحرك، وأقرأ وأنا أتناول الطعام.

وللقراءة أهمية خاصة - يقول الشيخ - لكل من يدعو إلى الله، بل هي الخلفية القوية التي يجب أن تكون وراء الفقيه والداعية. وضحالة القراءة أو نضوب الثقافة تهمة خطيرة للمتحدثين في شئون الدين، وإذا صحت تزيل الثقة منهم.

إن القراءة - أي الثقافة - هي الشيء الوحيد الذي يعطي فكرة صحيحة عن العالم وأوضاعه وشئونه، وهي التي تضع حدودًا صحيحة لشتى المفاهيم. وكثيرًا ما يكون قصور الفقهاء والدعاة راجعًا إلى فقرهم الثقافي. والفقر الثقافي للعالم الديني أشد في خطورته من فقر الدم عند المريض وضعاف الأجسام. ولا بد للداعية إلى الله أن يقرأ في كل شيء: يقرأ كتب الإيمان، ويقرأ الإلحاد، يقرأ في كتب السنة، كما يقرأ في الفلسفة. وباختصار يقرأ كل منازع الفكر البشري المتفاوتة؛ ليعرف الحياة والمؤثرات في جوانبها المتعددة[16].

---

(16) من أجوبة الشيخ في كتابه: «علماء ومفكرون عرفتهم» للأستاذ: محمد المجذوب.

شروط الداعية في نظر الغزالي:

سئل الشيخ الغزالي عن «شروط الداعية» المنشود كما يراها، فأجاب بقوله:

«الدعوة إلى الله لا يصلح لها بداهة أي شخص ... إن الداعية المسلم في عصرنا هذا يجب أن يكون ذا ثروة طائلة من الثقافة الإسلامية والإنسانية، بمعنى أن يكون عارفًا للكتاب والسنة والفقه الإسلامي والحضارة الإسلامية. وفي الوقت نفسه يجب أن يكون ملمًّا بالتاريخ الإنساني وعلوم الكون والحياة والثقافات الإنسانية المعاصرة التي تتصل بشتى المذاهب والفلسفات.

ويجب على من يدعو إلى الله أن يتجرد لرسالته التي يؤديها فتكون شغله الشاغل. وعليه أن يعامل الناس بقلب مفتوح فلا يكون أنانيًّا ولا حاقدًا، ولا تحركه النزوات العابرة، ولا ينحصر داخل تفكيره الخاص، فهو يخاطب الآخرين وينبغي أن يلتمس الأعذار للمخطئين، وألا يتربص بهم بل يأخذ بأيديهم إذا تعثروا.

ويحتاج الداعية المسلم في هذا العصر إلى بصر بأساليب أعداء الإسلام على اختلاف منازعهم، سواء كانوا ملحدين ينكرون الألوهية أو كتابيين ينكرون الإسلام.

وقد لاحظت أن هناك أصنافًا من الناس في ميدان الدعوة تسيء إلى الإسلام أشد الإساءة، منهم الذي يشتغل بالتحريم المستمر فلا تسمع منه إلا أن الدين يرفض كذا وكذا، دون أن يكلف نفسه أي عناء لتقديم البديل الذي يحتاج إليه الناس ... وكأن مهمته اعتراض السائرين في الطريق ليقفوا مكانهم، دون أن يوجههم إلى طريق آخر أرشد وأصوب.

وهناك دعاة يعيشون في الماضي البعيد، وكأن الإسلام دين تاريخي، وليس حاضرًا ومستقبلًا. والغريب أنك قد تراه يتحامل على المعتزلة والجهمية مثلًا، وهو محق في ذلك، ولكنه ينسى أن الخصومات التي تواجه الإسلام قد تغيرت وحملت حقائق وعناوين أخرى.

وهناك دعاة آخرون لا يفرقون بين الشكل والموضوع أو بين الأصل والفرع، أو بين الجزء والكل. فهم يستميتون في الإنكار بأي شكل من الأشكال ويبددون قواهم كلها في محاربة هذا الشكل، أما الموضوع فهم لا يدرون ماذا يصنعون إزاءه، ولهؤلاء عقلية لا تتماسك فيها صور الأشياء بنسب مضبوطة، ولذلك قد يهجمون شرقًا على عدو موهوم ويتركون غربًا عدوًّا ظاهرًا، بل ربما حاربوا في غير عدو ...

وهؤلاء وأولئك عبء على الدعوة الإسلامية يجب إصلاحهم، كما يجب إصلاح الذين يدخلون ميدان الدعوة بنية العمل لأنفسهم لا لمبادئهم، فإن العمل الذي يستهدف القيم الإسلامية غير العمل الذي يدور حول المآرب الشخصية.

تبين لي بعد أربعين سنة من العمل في الدعوة الإسلامية أن أخطر ما يواجه العمل الإسلامي هو التدين الفاسد؛ أي استناد النفس إلى قوة غيبية وهي تعمل للخرافات والأوهام، أو وهي تعمل للأغراض والمآرب ...

الدين مثلًا يقظة عقلية، وهؤلاء يعانون تنويمًا عقليًّا متصلًا، والدين قلب سليم، وهؤلاء استولت على قلوبهم علل رديئة.

والأمر في كشف التدين الفاسد يحتاج إلى تفاصيل للتعامل مع الآفات النفسية والعقلية التي تسبب هذا البلاء. وقد خصص أبو حامد الغزالي جزءًا ضخمًا من كتابه: «الإحياء» في علاج هذه الآفات والتحذير منها، كما وضع ابن الجوزي

كتاب: «تلبيس إبليس» للكشف عن صور التدين الفاسد، وإبعاد العامة والخاصة عنه.

وقد ألفت بعض كتبي وأنا مستغرق في محاربة هذا الجانب من التدين المعلول، سواء كان رسميًّا أو شعبيًّا، مثل كتاب: «تأملات في الدين والحياة»، وكتاب: «ليس من الإسلام»، وكتاب: «ركائز الإيمان بين العقل والقلب»، وأخيرًا كتاب: «الدعوة الإسلامية تستقبل القرن الخامس عشر».

والحقيقة أن التدين الفاسد سر انحراف كثير من العقلاء؛ لأنهم ينظرون إلى الدين من خلال مسالك بعض رجاله وآثارهم في الحياة العامة. والواقع أن بعض المتدينين كانوا في القديم والحديث بلاء على الدين»[17].

خُطب الغزالي من أدوات الدعوة:

الغزالي داعية موهوب. وقد أتاه الله أدوات عدة للدعوة، في مقدمتها: الخطابة[18].

ولقد استمعت إلى الشيخ الغزالي خطيبًا، منذ معتقل الطور - في فبراير عام (1949م) - إلى اليوم، فما تغيرت طريقته.

إن خطبه دائمًا تخدم موضوعًا علميًّا محددًا، يوضح معالمه وعناصره، ويستدل له

---

(17) المصدر السابق.

(18) قد وفق الله بعض الإخوة لتفريغ مجموعة طيبة من خطبه المسجلة، وقام على ذلك الأخ الشيخ قطب عبد الحميد قطب، وراجعها الدكتور محمد عاشور، وتولت نشرها «دار الاعتصام»، وقدم لها الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين. فجزى الله الجميع خيرًا: من سجّل، ومن فرغ، ومن نشر، ومن قدم، فهي ذخيرة لكل مسلم، ولا سيما الدعاة.

من القرآن الكريم الذي يستحضر آياته في كل موضوع كأنها مصنفة بين يديه، ومن السنة المطهرة، التي قرأ الكثير منها فأحسن قراءته، والفهم له، والاحتجاج به. وربما استدل بالضعيف منها – في بعض الأحيان – أخذًا برأي جمهور العلماء في الاستدلال بالضعيف في الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال.

وهي دائمًا مرتبطة بالواقع، تقوِّم عوجه، وتعالج أمراضه، وتسدد مسيرته، في ضوء تعاليم الإسلام.

والشيخ داعية وناقد اجتماعي بصير، ينفذ ببصيرته إلى ما وراء الظواهر والأعراض؛ ليكشف عن حقائق العلل والأمراض، ولا يغيره الزيف ولا التهويل، الذي يغطي العيوب بتمويهات لا تخفى على اللبيب، كما لا تخفى حقيقة الداء على الطبيب.

وهو في خطبه معلِّم موجه، أكثر منه خطيبًا محرضًا.

وهو يخطب كما يكتب، عذوبة ورشاقة وأناقة. فخطبه كلها، قطع أدبية، لا تجد فيها حوشيّ الكلام، ولا سوقيه، كما لا تجد فيها التقعر والإغراب، الذي يحوجك إلى المعاجم لتبحث عن معاني ما سمعت.

وقارئ هذه الخطب يجد فيها أثر الثقافة المتنوعة، والتمكن الأزهري، وأصالة الدراسة اللغوية والأدبية.

وهو متمكن من اللغة، واعٍ لقواعد النحو والصرف، لا يلحن ولا يخطئ، كأنما يقرأ صحيفة مضبوطة بالشكل. وهو حريص على أن يكون أداؤه صحيحًا مائة في المائة، ولا يسامح نفسه في زلة يسبق بها لسانه. وقد رأيته مرة تحمس في خطبة فسبقت إلى لسانه هفوة نحوية يسيرة، فأسف لذلك أسفًا شديدًا. وقال: هذا نتيجة

الانفعال، وسأحاول ألا أكرر ذلك ما استطعت!

ويلحظ المهتم بالعربية أن الشيخ يراعي الدقائق النحوية التي يغفل عنها الكثيرون، مثل اجتماع الشرط والقسم، وتقديم القسم أو ما يدل عليه، فلا يقع فيما يقع فيه من لا يعرف القواعد، ويقرن الجواب بالفاء. كقول بعضهم: لئن فعلتم كذا فسيعاقبكم اللَّه. والصواب: لئن فعلتم كذا ليعاقبنكم اللَّه. وفي هذا يقول ابن مالك:

واحذف لدى اجتماع شرط ... جواب ما أخرت، فهو ملتزم

ولقد حدث الشيخ عن نفسه: أنه بعد تخرجه عُيّن إمامًا وخطيبًا بمسجد عزبان بالعتبة، وأنه بعد عدة أسابيع نفدت بضاعته ولم يجد ما يقوله للناس، فبدأ تكوين نفسه من جديد، يقرأ في علوم الدين، ومعارف الدنيا، في الكتب القديمة والكتب الحديثة، في مصادر الشرق وما ترجم عن الغرب، حتى أمكنه أن يرضى عن نفسه، وأن يجد عندها ما يستطيع أن يمنحه لغيره. فالشهادة ليست هي نهاية العلم، بل مفتاحه، والداعية يجب أن يظل قارئًا ما عاش، فالقراءة هي حياته، واللَّه تعالى يقول لرسوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]، والسلف يقولون: لا يزال المرء عالمًا ما طلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل. ومن مأثوراتهم: اطلب العلم من المهد إلى اللحد.

وقد شدت خطب الغزالي جماهير المثقفين والشباب إليه، فكانوا يفدون إليه من أنحاء شتى مستمعين ومستفيدين، وخصوصًا في المساجد التي كان يخطب فيها بانتظام، مثل: مسجد الزمالك، وجامع الأزهر، وجامع عمرو بن العاص، الذي أحيته خطب الشيخ بعد أن كان شبه مهجور، وهو أول مسجد أسس للإسلام في إفريقيا.

أنشأت هذه الخطب مدرسة إسلامية في فهم الإسلام وإفهامه، وهي مدرسة تقدم الدين من ينابيعه الصافية، موثقًا بالأدلة، خالصًا من الزوائد والشوائب، بعيدًا عن التحريف والتزييف، لا تسكت عن حق، ولا تتكلم بباطل، ولا تبيع دينًا بدنيا. ولكنها لا تعرض لأشخاص بأسمائهم على المنبر، ولا تعتمد الإثارة والتهييج في الموضوعات الحساسة، بل تعالج أدق القضايا بمبضع الجراح، متبعًا ما أمر الدين به من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ومستأنسًا بما قاله السلف: من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف.

وبالرغم من أن الغزالي الخطيب كان هو المسئول عن الدعوة وشئون المساجد في وزارة الأوقاف المصرية، نراه يقول الحق، وإن كان مرًّا، لا يخشى في الله لومة لائم، وهذا ما أزعج السلطات، التي تتوجس من هذا النوع من الخطب التي تنير العقول بالحقائق، قبل أن تثير المشاعر بالمبالغات.

وانتهى الأمر بمنع الشيخ من الخطابة بمسجد عمرو.

الدعوة بالقلم:

على أن الشيخ الغزالي ليس داعية بلسانه فحسب، بل هو داعية بقلمه كذلك، حتى إن أكثر الذين عرفوه – وأنا منهم – عرفوه أولًا من نتاج قلمه، الذي بلغ إنتاجه اليوم نحو ستين كتابًا.

وهو صاحب قلم متميز ببلاغته وروعة أسلوبه وقوة منطقه، جنده للدعوة من أول يوم؛ لتوضيح معالم الإسلام، وبيان حقائقه، والرد على أباطيل خصومه في الداخل، وأعدائه في الخارج، وإضاءة طريق البعث لأمته، حتى تعرف غايتها، وتستبين طريقها، بين أضاليل المضللين، وشبهات المبطلين.

ومن قرأ للغزالي أدرك أنه أمام كاتب مقالة من الطراز الأول وأن القلم في يده أشبه بالسيف في يد ابن الوليد أو صلاح الدين، فهو سيف الله المسلول على أعدائه، به يدافع، وبه يهاجم، وهو قوي في دفاعه، قوي في هجومه، دون أن يعتدي على أحد، فإن الله لا يحب المعتدين.

ربما كان عيب الشيخ الغزالي لدى بعض المتعالين والمتعاملين: أنه في غاية الوضوح، وأنه مفهوم لمن يقرؤه، لا يجد قارئه معاناة في فهمه والنفوذ إلى فكره.

كما يجد ذلك فيما يقرأ لبعض المتفلسفين والمتكلفين، الذين يعمدون إلى الإغراب والرمز والغمز، وتكثيف المصطلحات، إلى حد الإلغاز والإخفاء والتجهيل، ربما ليخفوا أفكارهم المسمومة وراء هذه الأكنة من التعابير الغامضة، التي تحتاج أبدًا إلى حواشٍ لشرحها، ويعدون ذلك مزية لهم يباهون بها، في مقابل الوضوح البين، والبيان الواضح، عند الغزالي وأمثاله، مما يَعُدّونه عيبًا، ينزل بمرتبة أصحابه الفكرية والأدبية.

فإن كان هذا عيبًا، فالأمر كما قال الشاعر:

وإذا تكون المكرمات معايبًا فالعجز أن تحيا ولست معيبا!

إن الغزالي يخاطب بكتاباته الفطرة، ويجتهد أن يقنع العقل، ويحرك القلب؛ لهذا لا يتعقر، ولا يتكلف ولا يتعسف، وقلما يستخدم المصطلحات والكلمات التي بين قوسين، بل يحاول أن ينفذ إلى قارئه بنصاعة الأديب المبدع، ووضوح الداعية المشبع، وله في بيان الله ورسوله أسوة حسنة.

منبر الصحافة:

ومن منابر الغزالي وميادينه للدعوة والبلاغ: منبر الصحافة.

فقد كان الشيخ منذ شبابه المبكر أحد كتاب مجلة «الإخوان المسلمون» الأسبوعية، ثم من كتاب مجلة «المباحث» التي استأجرها الإخوان بعد خروجهم من المعتقل سنة (1949م)، ثم مجلة «الدعوة» التي أسسها المدعو له بالرحمة الأستاذ صالح عشماوي، وكذلك المجلات الإسلامية المعروفة مثل: مجلة «لواء الإسلام» في مصر، ومجلة «الأمة» القطرية التي استمرت ست سنوات ثم توقفت فجأة، وهي توشك على الظهور مرة أخرى إن شاء الله[19].

وهو في السنوات الأخيرة يكتب بصفة منتظمة في عمود أسبوعي بجريدة «الشعب» المصرية تحت عنوان: «هذا ديننا»، وصحيفة «المسلمون» السعودية، تحت عنوان: «الحق المرّ».

ولا يكاد حادث ذو بال يمر على المستوى المحلي أو الإقليمي أو الإسلامي أو الدولي إلا وكان للشيخ وقفة معه، وتعليق عليه، من وجهة النظر الإسلامية، بقلم الأديب المبدع، وروح الداعية المحلق، وعقل المفكر الملتزم، ونظرة الناقد المصلح.

ويكتب الشيخ أحيانًا مقالات ممتعة لبعض المجلات لإيضاح بعض المفاهيم الإسلامية، أو بعض الشبهات، أو نقض بعض الافتراءات على الإسلام ودعوته.

وفي بعض السنوات أجرت جريدة الشرق الأوسط استفتاء لدى القراء عن «الكاتب الأول» في نظرهم لهذا العام، فكان الشيخ الغزالي هو الفائز بأكثر الأصوات، وحاز الجائزة المرصودة لذلك.

ويتصل الشيخ بالصحافة عن طريق آخر، هو طريق الحوارات التي يجريها معه

---

(19) كان ذلك أملًا أو حلمًا لم يتحقق حتى اليوم، وندعو الله أن يحققه.

كثير من الصحفيين، الذين يحرصون على معرفة رأي الشيخ في كثير من القضايا التي تهم الناس، فيجيبهم إجابات تقصر أحيانًا، وتطول أحيانًا، حسبما يسمح به المقام.

ومن أشهر الحوارات هنا: ما أجرته مجلة «الأمة» معه من حديث حول القضايا الإسلامية، ونشره مدير تحريرها الأستاذ عمر عبيد حسنة ضمن كتاب «الأمة» الذي صدر بعنوان: «الدعوة الإسلامية ملامح وآفاق».

وأكثر هذه الإجابات مهم، وينبغي أن يجمع وينشر حتى ينتفع له الناس.

منبر الإذاعة والتلفزة:

ومن منابر الدعوة لدى شيخنا الغزالي: الإذاعة والتلفاز، وقد أذيعت له أحاديث كثيرة في أقطار شتى، في الإذاعة المسموعة، والإذاعة المرئية، عملت في تنوير العقول بالمفاهيم الإسلامية الصحيحة، وفي ترقيق القلوب وتزكية الأنفس بالمعاني الربانية، والمثل الأخلاقية الرفيعة، ما يعمله الغيث في الأرض العطشى، يحييها بعد موتها.

وقد ظلت أحاديثه تذاع من إذاعة الصباح في السعودية لسنوات، وكذلك كانت له أحاديث مذاعة ومتلفزة في قطر والكويت والإمارات من بلاد الخليج.

وفي الجزائر كان له حديث أسبوعي مساء كل اثنين يبثه التلفاز، كان الناس في أنحاء الجزائر يترقبونه، وينصتون إليه، ويجدون فيه معاني جديدة في فهم الإسلام والحياة، تكمل ما بدأته المدرسة الإصلاحية التجديدية في الجزائر: مدرسة عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، التي جعلت شعارها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، وجعلت نشيد أبنائها:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال: حاد عن أصله أو قال: مات؛ فقد كذب

وأحسب أن أحاديث الشيخ هذه كان لها أثرها في امتداد الصحوة ونموها، ورسوخ جذورها، وعلو فروعها، بجوار الكتب والمحاضرات والأشرطة وملتقيات الفكر الإسلامي، وعمل الدعاة والمربين أفرادًا وجماعات.

***

مصارعة القوى المعادية للإسلام

وهناك جانب أساسي من جوانب الدعوة عند الغزالي، وهو: مصارعة القوى المعادية للإسلام، والتصدي لتياراتها، والعمل على كشف عملائها، وهدم أوكارها، وهتك أستارها، والوقوف في وجه أخطارها وآثارها. والغزالي هنا مقاتل عنيد، لا يستسلم ولا يطأطئ ولا يلين، ولا يقبل اللقاء في منتصف الطريق، أو الرضا بأنصاف الحلول، بل صبر ومصابرة ومرابطة حتى النصر أو الشهادة.

في وجه الاستعمار:

لذا وقف في وجه الاستعمار، وكشف عن حقيقته ودوافعه، وأنها «أحقاد وأطماع». فليس الاستعمار مجرد طامع في أرض المسلمين ونهب ثرواتهم وخيراتهم، ولكنه – إلى جوار ذلك – حاقد صليبي، يحمل ضغائن قديمة لم ينسها بعد الحروب الصليبية المعروفة، بل منذ احتل الأرض التي كانت مسيحية، بالشام ومصر وشمالي إفريقيا والأناضول، وحولها إلى قلاع إسلامية. وقد ظهر هذا في موقف الغرب من قضايا الإسلام، وآخرها: قضية البوسنة والهرسك.

في وجه الصهيونية:

وقف في وجه الصهيونية العالمية، التي احتلت أرض النبوات، وانتهكت حرمة المقدسات الإسلامية، وشردت أبناء الأرض من ديارهم بغير حق. صنعت ذلك كله باسم التوراة، وتحت راية العقيدة اليهودية، التي جمعت اليهود المتفرقين في الأوطان، ويراد للعرب وللفلسطينيين أن يقاتلوهم بغير دين، فيدخل اليهود المعركة ومعهم التوراة، ويدخلها العرب وليس معهم القرآن. وكان للشيخ في ذلك كتابات كثيرة لا تحصى، من أبرزها ما أصدره بعد النكبة أو النكسة، وهو

كتاب: «حصاد الغرور».

في وجه التنصير:

ووقف في وجه «التنصير» الذي يريد أن يسلخ المسلمين من عقيدتهم، فإن لم يقدر على إدخالهم في النصرانية اكتفى بزعزعة إسلامهم، وتشكيكهم في دينهم. وللشيخ في ذلك كتابات شتى، بأساليب متنوعة، لعل آخرها كتابه: «صيحة تحذير من دعاة التنصير»، وقد كتبه بعد أن قرأ ما صدر عن مؤتمر «كلورادو» سنة (1978م) من تقرير ضخم ضم أربعين (40) دراسة عن الإسلام والنصرانية، وهو المؤتمر الذي اجتمع بهدف تنصير المسلمين في العالم، ورصد لذلك ألف مليون دولار، وأنشأ لهذه الغاية «معهد زويمر» لتخريج متخصصين في تنصير أمة الإسلام.

في وجه الشيوعية:

ووقف في وجه الشيوعية ومحاولاتها لغزو ديار الإسلام، وما صنعته بالمسلمين وراء الستار الحديدي من تصفيات جسدية، وحملات قمعية، وحمامات دموية. وللشيخ في ذلك كتابات كثيرة أبرزها: كتاب: «الإسلام في وجه الزحف الأحمر».

في وجه الحضارة المادية:

ووقف الشيخ في وجه مادية الحضارة الغربية، وإباحيتها الجنسية، وعصبيتها العنصرية، ومحاولات سيطرتها على حضارات العالم الأخرى، وإن لم ينكر ما فيها من عناصر إيجابية، مثل العلم والتكنولوجيا وحسن الإدارة واحترام حقوق الإنسان، وخصوصًا في داخل أوطانها، وله في ذلك كتابات قديمة وحديثة من أبرزها كتاب: «ظلام من الغرب».

في وجه العلمانية:

ولعل أبرز المعارك التي خاضها الشيخ، وأطولها نَفَسًا، وأشرسها هجومًا، هي معركته مع «العلمانية» اللادينية، التي تعارض حاكمية الله لخلقه، وسيادة الشريعة على الناس، وتعزل الدين عن الحياة وعن المجتمع، وتحارب الذين يدعون إلى الإسلام الشامل، وتَعُدّهم دعاة الرجعية وأعداء التطور.

وقد بدأ هذا في كتابات الشيخ منذ وقت مبكر، حينما رد على صديقه الشيخ خالد – في فصل «قومية الحكم» من كتابه: «من هنا نبدأ»، حين كتب فصل «إسلامية الحكم لا قوميته» في كتابه «من هنا نعلم».

ولكن الشيخ كان رفيقًا بالأستاذ خالد، وكان حسن الظن به، وقد صدقت الأيام ظنه، كما ذكرنا ذلك من قبل، وعاد خالد يدعو إلى الإسلام عقيدة وشريعة، ودينًا ودولة.

بَيْدَ أن الشيخ وقف بقوة وحرارة في وجه العلمانيين الأصلاء في العلمانية، المبغضين علانية لشريعة الإسلام، المجاهرين بتحقير حكم الله ورسوله، الداعين إلى تغريب المجتمعات الإسلامية.

كانت معارك الشيخ مع هؤلاء تتسم بشي من الشدة والحدة بقدر نفور هؤلاء من الإسلام، وتنفيرهم منه، ومعاداتهم للدعاة إليه. وكلما أوغل هؤلاء في عداوة الدين والشريعة كان قلم الشيخ كأنما هو شعلة من نار، نار تكوي وتحرق، ولا يخبو لها لهيب، كما نرى ذلك واضحًا في تعقب الشيخ لسقطات محمد سعيد العشماوي، ونصر أبو زيد، وفرج فودة، الذين أظهرت كتاباتهم مبلغ كراهيتهم لدعوة الإسلام، وتحكيم شريعته.

والشيخ يقول عن هذا النوع من العلمانيين: لماذا لا نسمي هؤلاء بأسمائهم الحقيقية؟ والاسم الحقيقي لهؤلاء: المرتدون. فهؤلاء قد مرقوا من الدين مروق السهم من الرمية، ولم يعد في قلوبهم توقير لله تعالى، ولا تعظيم لكتابه، ولا احترام لرسوله، ولا انقياد لشريعته. ويعجب الشيخ من موقف هؤلاء المرتدين في حقيقة أمرهم، لماذا يحرصون على أن يحتفظوا باسم الإسلام، وأن يظلوا محسوبين على المسلمين، والإسلام منهم براء، وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم قول المثقب العبدي:

فإما أن تكون أخي بصدق ... فأعرف منك غثي من سميني!

وإلا فاطرحني واتخذني ... عدوًّا أتقيك وتتقيني!

كان هؤلاء العلمانيون يظهرون في أثواب متباينة الأشكال. فقد يلبسون لبوس اليسار الثوري، وقد يلبسون لبوس اليمين الليبرالي، وقد يتحلون بعباءة القومية العربية، وقد يبدون في أثواب أخر، ولكنهم جميعًا شركاء في الجرأة على الله تباركت أسماؤه، وفي التعالُم عليه جل علاه، والاستدراك على شرعه! فهم يزعمون أنهم أعلم من الله بخلقه، وأبر منه بعباده. وأنه تعالى حين شرع لهم ما شرع لم يكن يدري ما يحدث لهم من تطورات، وما يجري عليهم من أحداث، فهم لذلك يرفضون حكمه وحكم رسوله، ولا يرتضون مرجعية الإسلام فيما شجر بينهم.

وأكثر ما يغيظ الشيخ من هؤلاء العلمانيين الذين لا دين لهم هو: دجلهم وكذبهم على الله ﷻ! وذلك حين أقحموا أنفسهم على دين الله، وليسوا من الله في كثير ولا قليل. وهم الذين يَعُدّهم الشيخ «نباتات سامة في حقول الإصلاح»!

إنهم ورثة مسيلمة الكذاب الذي زعم أنه نبي يوحى إليه، ولم يوح إليه شيء، وظن المغفل أنه يدرك المجد بهذا الدجل المكشوف، فلم يدرك إلا القاع، وبقي

اسمه إلى الأبد رمزًا للكذب.

وتتابع الكذابون في عصور مضت، فإذا أناس لا أثر لهم في ميادين الفلسفة، ولا أثر لهم في مجالات العلم، ولا ثقة بعقولهم في شيء طائل يقتحمون ميدان الدين، ثم يزعم هذا أنه نبي بعد محمد! ويزعم أن الله قد حلّ فيه، وأنه مجلي لبهائه!!

وظاهر أن الاستعمار العالمي أراد الكيد للإسلام، والنيل من تعاليمه، فاستغل هذه «المانيخوليا» عند أصحابها، وروج لها وعدّ أصحابها مؤسسي أديان ومحدثين عن الله، وساندهم بدهاء وإلحاح، فكان له ما أراد أو بعض ما أراد.

وعندما شرع المسلمون يفيقون من غفوتهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويدمغون الكهان الجدد، لاحقهم الاستعمار بنفر آخرين، هم امتداد للنبوات الكاذبة في العصور السابقة، بفرض هؤلاء أنفسهم على الإسلام، بغية الإجهاز عليه من داخله، ولا شيء لديهم من علم أو فلسفة إلا ما ورثوه عن مسيلمة وغلام أحمد وبهاء الله، مزيج من «المانيخوليا» والجراءة والكهانة والادعاء.

هذا دجال ظهر في السودان يأخذ القرآن المكي ويرفض القرآن المدني[20]، ويوفر له الأمن سنين عددًا!! وهذا دجال ظهر في مصر يقبل الكتاب ولا يقبل السنة[21].

وبداية أن كلا الشخصين لا يعتمد في مزاعمه على إسناد علمي، ولا ينجح في

---

(20) يقصد: محمود محمد طه، الذي قضت المحكمة العليا في السودان بردته وبالدعوة إليها.

(21) يريد: حسين أحمد أمين، الذي كتب في مجلة «المصور» مقالات هاجم فيها الشريعة والسنة وفقهاء الأمة، والسلف الصالح وعمر بن عبد العزيز، ودافع عن طغيان الحجاج. انظر: ردنا عليه في كتابنا: «فتاوى معاصرة» (جـ 2). فتوى: عمر بن عبد العزيز وهل كان جاهلًا بالسياسة؟ وانظر كذلك في الرد عليه كتاب: «الكاذب الحزين»، نشر دار الصحوة وتأليف منذر الأسعد وتقديم الدكتور عبد الحليم عويس.

مقارعة حجة بحجة. ماذا تقول لمسيلمة أو لسجاح أو لطواغيت القاديانية والبهائية، أو لطلائع الغزو الثقافي الذين يقسمون الوحي قسمين، فيمسكون قسمًا، ويطرحون قسمًا؟

هناك منطق عقلي أو تجريبي يحكم المقولات الفلسفية والقضايا المادية، أما هؤلاء فمنزع آخر تسيِّره أمراض نفسية، واضطرابات ذهنية، ونوع من الجنون المقدس أو عبادة الذات، وعلى الدهماء أن تسمع وتطيع ...

وتعاليم الإسلام في هذه الأيام تهب عليها رياح صفراء من مصادر جديرة بالتفرُّس والحذر ... وغايتها لا تخفى علينا. إنها الإطاحة برسالة محمد كلها تحت عناوين مفتعلة: الاعتماد على القرآن وإطراح السنة! الاعتماد على القرآن المكي وترك القرآن المدني! تعطيل نصوص قائمة قد تكون عبادية كشريعة الصيام، فيقال: الصيام يضرّ الإنتاج فلنلغ رمضان! وقد تكون معاملات اجتماعية كأنواع الحدود والقصاص، فيقال: إقامة هذه العقوبات تكثر العاهات وتشيع البطالة فلنتجاوزها إلى ما هو أعدل منها وأرعى للصحة العامة!!

فضح عملاء الغرب:

ومما أخذه الشيخ على نفسه: أن يفضح عملاء الغرب الصليبي والشرق الشيوعي في ديارنا، ويهتك أستارهم التي يتخفون وراءها ويتخذون لها عناوين شتى، من الحرية والتقديمة والتطور والتحرر والتنوير، وما شابهها.

لا بد من تعرية هؤلاء الذين لا همّ لهم إلا ترويج سلع الغرب الفكرية في أرضنا، وبين أهلنا، وإن كان فيها السم القاتل لأمتنا؛ فهذا السم يوضع في الدسم أو في الحلوى، حتى يقبل ويشتهي.

من أجل ذلك هاجم سلامة موسى، ولويس عوض، وميشيل عفلق، وقسطنطين زريق، وجورج حبش، وغيرهم من النصارى. كما هاجم لطفي السيد، وساطع الحصري، وطه حسين، ونزار قباني، وعبد الرحمن الشرقاوي، وصلاح جاهين، وحسين أمين، وغيرهم من المسلمين، سواء منهم من تسربل برداء القومية أو الاشتراكية أو التحررية، أو أي رداء كان.

ونأخذ هنا مثالًا لموقفه من طه حسين ومحاولات أنصاره العمل على تخليد ذكراه، باعتباره الرائد الأول في الأدب، والقائد الأول للفكر!

يقول الشيخ في كتابه «علل وأدوية»:

«قرأت للدكتور طه حسين، واستمعت له، ودار بيني وبينه حوار قصير مرة أو مرتين، فصد عني وصددت عنه!

أسلوب الرجل منساب رائق! وأداؤه جيد معجب، وهو بين أقرانه قد يدانيهم أو يساويهم، ويستحيل أن يتقدم عليهم ... بل عندما أوازن بينه وبين العقاد من الناحية العلمية أجد العقاد أعمق فكرًا، وأغزر مادة، وأقوم قيلًا. وأكاد أقول: إن الموازنة المجردة تخدش قدر العقاد ...

وأسلوب زكي مبارك أرشق عبارة وأنصع بيانًا من أسلوب الدكتور طه حسين، ولولا أن الرجل قتله الإدمان لكان له شأن أفضل.

ودون غمط لمكانة الدكتور الأدبية نقول: إنه واحد من الأدباء المشهورين في القرن الماضي، له وعليه ... وحسبه هذا.

بيد أنني لاحظت أن هناك إصرارًا على جعل الرجل عميد الأدب العربي، وإمام الفكر الجديد، وأنه زعيم النهضة الأدبية الحديثة.

ولم أبذل جهدًا مذكورًا لأدرك السبب. إن السبب لا يعود إلى الـوزن الفنـي أو التقدير الشخصي. السبب يعـود إلى دعـم المبـادئ التـي حملهـا الرجـل، وكلـف بخدمتها طول عمره. إنه مات، بيد أن ما قالـه يجـب أن يبقـى، وأن يـدرس، وأن يكون معيار التقديم.

تدبر هذه العبارة للدكتور «العميد»:

«إن الدين الإسلامي يجب أن يعلم فقط كجزء من التـاريخ القـومي، لا كـدين إلهي نزل يبين الشرائع للبشر، فالقوانين الدينية لم تعد تصلح في الحضـارة الحديثـة كأساس للأخلاق والأحكام، ولذلك لا يجوز أن يبقى الإسـلام في صـميم الحيـاة السياسية! أو يتخذ كمنطلق لتجديد الأمة (!) فالأمة تتجدد بمعزل عن الدين».

ويمكن الرجوع لمثل كتابه: «مسـتقبل الثقافـة في مصرـ» لتجـد أشـباهًا لهـذه العبارات السامة.

ويشاء القدر أن تقع عيني على هـذه العبـارة: وقـد قـررت «إسرائيـل» وقـف الطيران في «شركة العال» يوم السبت احترامًا لتعاليم اليهودية!

إن الإسلام وحده هو الذي يجب إبعاده عن الحياة العامة، أما الأديـان الأخـرى فلتقم باسمها دول، ولترسم على هداها سياسات.

وظاهر أن الدكتور طه حسين كان ترجمانًا أمينًا لأهداف لم تعد خافية على أحـد عندما طالب بإقصاء الإسلام وأخلاقه وأحكامه، وعدم قبوله أساسًا تنطلق الأمـة منه، وتحيا وفق شرائعه وشعائره.

قائل هذا الكلام يجب أن يكون عميد الأدب العربي في حياته وبعـد مماتـه، وأن تشتغل الصحافة والمسارح بحديث طويل عن عبقريته، ليكون علمًا في رأسه نـار،

كما قال العرب قديمًا.

أما العقاد وإسلامياته الكثيرة، فيجب دفنه ودفنها معه. ومع أن الرجل حارب الشيوعية والنازية وسائر النظم المستبدة، وساند «الديمقراطية» مساندة مخلصة جبارة، فإن العالم «الحر» ينبغي أن يهيل على ذكراه التراب، ليكون عبرة لكل من يتحدث في الإسلام، ولو بالقلم! فكيف إذا كان حديثًا بالفكر والشعور، والدعوة والسلوك، والمخاصمة والكفاح؟! هذا هو الخصم الجدير بالفناء والازدراء.

والقوى التي تعمل دائبة على تخليد ذكري الدكتور طه حسين، وتجديد فكره، وإعلاء شأنه معروفة لدينا، ونريد أن نكشف عنها، إذ لا معنى لبقائها في جحورها تلدغ ثم تستخفي، وتنال منا باسم حرية العلم، وهي لا تعرف من الحرية إلا لونا وحيدًا: كيف تضرب الإسلام وتطفئ جذوته وتميت صحوته؟

ذلك، إلى أن الريح تعصف اليوم ضدنا أكثر مما كانت تعصف يوم ألّفَ الدكتور طه ضد ديننا وتراثنا. لقد أقامت اليهودية على أنقاضنا دولة تريد اجتياح حاضرنا ومستقبلنا، وهي تربي النساء والأطفال لتحقيق هذه الغاية، وتَعُدّ المدرسة ثكنة عسكرية، والثكنة معبدًا دينيًا، والتوراة دينًا ودولة»[22].

علماء الأزهر وحملة نابليون:

وكما فضح الغزالي العلماء، دافع بقوة عن الشرفاء، ومنهم علماء الأزهر، الذين اتهمهم بعض الشيوعيين أنهم استسلموا لنابليون!

يقول الشيخ:

---

(22) «علل وأدوية» (ص: 79 – 81).

«لقد تابعت بعض العروض الروائية والسير التاريخية لرجالنا وأحوالنا الأولى، فوجدت العجب من تزوير التاريخ والكذب على الأحياء والأموات. زعم بعضهم أن علماء الأزهر لاذوا بالتقية عند مجيء نابليون بونابرت ولم يؤدوا واجبهم الوطني. وضربت كفًّا على كف لهذه الصفاقة الغريبة ...!

إن جثث العلماء المسلمين بعثرت حول القلعة وهم يقاومون الفرنسيين، وضرب الأزهر بالمدافع، ودخله الجيش الفرنسي بخيله، وقتل أحدُ الأزهريين القائدَ «كليبر»، وانتقم الفرنسيون منه فقتلوه شر قتلة. فكيف يطوى ذلك كله، ويذكر أن النسوة المعلمات هن اللائي قاومن الفرنسيين؟

قبحك الله من مؤلف كذوب ... ولكن التهجم على الإسلام هدف يشترك فيه الرعاع وبعض الرؤساء عمدًا، لينالوا من الإسلام نفسه، ولتعيش الأمة بلا عقيدة، ولتجد الصهيونية الطريق أمامها مفتوحًا إلى ما تريد.

وإلى القارئ هذا الشاهد الآخر من شواهد تزوير التاريخ والحملة على الإسلام وعلمائه:

كتب السيد صلاح جاهين شيئًا من الشعر العامي عن مصر وتاريخها الطويل جاءت فيه هذه الكلمات:

زحف الفرنسيس وزحفت قبلهم جواسيس

غايصين لقاعها وعارفين باعها من باريس

وإيش يعمل القاع قصير الباع ... في القمة؟

وإيش تعمل العمة في البرنيطة يا أئمة؟

العمـة ما اتكلمت (!!) وتن صوتها حبيس!

غير مـرة لما البـوليس قال: نـوروا الفوانيس!

وده كفــر طبعًـا. ولا يدخــل لنـا فـي ذمــة

اطّمّــن الغــرب أن فـــي بلدنـــا نـــاس رمـة

وانهــش يا ديـب فينـا واقضـي بمنتهـى الهمة

عـلى اســـم مصـــر

وأنا أعتذر أولًا عن تدوين هذه التعابير السوقية في صحيفة محترمة، لا يجـوز أن تنشر على بغام العامة، ولكني مضطر لتفنيد ما حوت من إفك خسيس على تـاريخ الجهاد العلمي لأمتنا ...

يرى هذا الكاتب أن علماء الأزهر قابلوا الغزو الفرنسي لمصر بصوت محبـوس، وهمة مشلولة، وأنهم ما تحركوا محتجين إلا عندما أنار الفرنسيون القاهرة؛ لأن إبقاء المصابيح كفر، وإشاعة الظلام بالليل هو ما يعمل له علماء الدين «الرمم» ...!!!

ولست أستغرب من منكر لله أن يفتري على خلقه! ولكن الافتراء يوم يعلن على أنه علم، وعهد الناس قريب بالحقيقة، فإن الأمر يستدعي الكي لا التكذيب المعتاد ...

ولقد علم الغرب والشرق أن الحملـة الفرنسـية لـما وطئـت أرض مصر ـ قـاد الإسلام – وحده – حركة المقاومة، وقاتل الفرنسيين شـبرًا شـبرًا في هـذا الـوطن المحروب، وأن علماء الدين كانوا قادة هذه المقاومة الباسلة ووقودها المتوهج.

ولما انتفضت القاهرة ضد الغزاة، وكان الجامع الأزهر مصدر الثورة اقتحمـت

الخيل الفرنسية حرمه، ويقول الجبرتي: «إنهم تفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، ودشتوا المصاحف والكتب على الأرض، وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه - أي بالوا داخله - وشربوا الشراب - أي الخمر - وكسروا الأواني وألقوها بجوانبه».

ويحكي التاريخ العدل الصدوق أن الشيخ الشهيد سليمان الحلبي كان - قبل أن يقتل بأشنع الطرق - رابط الجأش، وصرح في التحقيق الذي أجري معه أنه قتل الجنرال «كليبر» في سبيل الله، وكان ينظر إلى من حوله «بعين رفيعة».

ولقد قبض الفرنسيون على الشيخ أحمد الجوسقي، والشيخ أحمد الشرقاوي، والشيخ عبد الله الشبراوي، والشيخ يوسف المصيلحي، وعروهم من ثيابهم، وصعدوا بهم إلى القلعة، فسجنوهم إلى الصباح، ثم أنزلوهم وقتلوهم بالبنادق وألقوهم من السور خلف القلعة، ولم تعرف لهم قبور. هكذا يذكر الجبرتي في تاريخه، ويجيء رجل شيوعي وغد ليقول في علماء الأزهر كلهم:

وأنا لو «نابليون» لكنت عدمتهم تقتيل

ما دمت أقدر أسيح دمهم في النيل

وأخلع ذقونهم وأبين أنها تضليل

على اسم مصر

أهكذا يكون تزوير الوقائع، وتشييع شهداء المقاومة الشريفة؟ ولِمَ هذا كله؟

لنثبت بطريق الخداع والكذب أن الدين «أفيون الشعوب»، مع أن كل شيء يصرخ هنا بأنه محرر الشعوب ونافخ نارها ومعلي منارها؟

ونجيء أخيرًا للقصة السمجة، قصة أن علماء الإسلام قاوموا تعليق المصابيح على البيوت؛ لأن الظلمة طاعة، والضوء معصية! كما يذكر رجال الأهرام الأغر.

إنه أضاف بهذه القضية منقبة لنابليون لم تعرف له. ألم يكتشف أنه جاء من فرنسا بجيشه كي ينير القاهرة؟!

واتهم الإسلام بمثلبة لم يوردها أشد أعدائه صغارًا. ألم يقف علماؤه ضد إنارة الشوارع والحارات؟!

وقصة تكليف الأهالي بإنارة الطريق أمام بيوتهم أوردها الجبرتي، وذكر حولها بعض وقائع السلب والنهب التي تبعتها.

ورأينا أن هذا التصرف الفرنسي كان إجراءً عسكريًّا ليحكم الغزاة وثاق القاهرة الجريح، وتشتد قبضتهم عليها، حتى لا يستخفي القناصة والفدائيون في جنح الليل.

لكن سدنة القومية العربية الذين يقودون صحافتنا المعاصرة، يريدون تشويه كل شيء لتحقيق مآربهم، وفرض مبادئهم.

وباسم القومية العربية، يحارب البيان العربي الصريح، ويتم التمهيد للعامية الهابطة.

وباسم القومية العربية، ينقم العرب على أضوأ اسم في تاريخهم، وأشرف إنسان مشى على الثرى في الأولين والآخرين ... ينقمون على محمد بن عبد الله وينالون من رسالته!

إن هؤلاء الناس – بداهة – ليسوا مسلمين. فهل هم عرب كما يوصفون أو

يتصفون؟

كلا. إن هؤلاء – سواء كانوا أجراء أو مخلصين – أفضل لإسرائيل من كل أسلحة الدنيا التي ترد إليها»[23].

***

(23) «قذائق الحق» (ص: 91 – 94).

دعاة فتانون

يضيق الشيخ في ميدان الدعوة بمن سماهم «الدعاة الفتانين» يعني: الذين يفتنون الناس عن دين الله. وقال النبي ﷺ لمعاذ حين طول بالناس، وهو يؤمهم في الصلاة: «**أفتان أنت يا معاذ؟**» وكررها ثلاثًا. فهؤلاء الدعاة المنفّرون أشد فتنة.

يعلم الشيخ أن أعداء الإسلام في هذا العصر أقوياء. ومع استمتاعهم بمقادير كبيرة من العلم والدهاء، ومع أنهم أحرزوا ضد الإسلام انتصارات كبيرة في أكثر من ميدان، مع هذا كله يقول الشيخ: فلست أخافهم على ديننا قدر ما أخاف على هذا الدين من متحدث جاهل، أو منافق عليم اللسان، أو سياسي يتخذ إلهه هواه.

المتحدثون الجهال بحقائق الإسلام وحقائق العصر:

أما المتحدثون الجهال، فإن قصورهم فتح علينا أبواب شرور كثيرة.

إن قصة «الغرانيق» لم يخترعها مبشر كذوب، وإنما روجها متحدث أحمق من جلدتنا يتكلم بلغتنا.

وفرية «عشق الرسول لزينب» بنت جحش لم يختلقها عدو كاشح، وإنما ألفها متعالم من عندنا، خفيف العقل والحكم.

وقد اضطرب السلوك الإسلامي في بناء الأسرة؛ لأن حديثًا موضوعًا ينهي عن تعليم النساء الكتابة، وعن إسكانهن الغرف، شاع بين الناس ...

وآفة بعض المتحدثين في الإسلام، أنهم يستقبلون المرويات التافهة وأذهانهم خالية أو فقيرة من الوعي بتوجيهات القرآن الكريم، وهو دستور الإسلام الأول.

ولا يجوز لفقيه أن يتناول السنن الصحاح، وهو جاهل بالقرآن نفسه، فكيف بما

هو دون الصحيح من تلك المرويات؟!

إن الصورة المكتملة والجميلة للإسلام تؤخذ من الكتاب والسنة، الكتاب أولًا ثم السنة بعد ذلك.

والسنة أساسها ما تواتر ثم ما صح!! أما المرويات الضعيفة وما أكثرها فلها شأن آخر، يعرفه الراسخون في العلم.

وقد وقع في يدي كتاب يوزع في بعض العواصم الإسلامية، ويتأثر به الكثيرون، وجدت على غرفه ثلاثة أسماء «لعلماء» لهم مناصب مهمة. وطالعت الكتاب فاستغربت ما حوى من صور رديئة للإسلام وتعاليمه في قضية اجتماعية كبيرة الشأن.

هل صحيح أن البيت المسلم سجن، وأن الزوجة داخله متهمة إلى الأبد، وأن أنواع الحيطة تتخذ لمنعها من الإثم؟

كذلك يقول الكتاب. فقد جاء به تحت عنوان: «نظام سليم لحياة المرأة يتجلى في الحجاب» هذه العبارات:

«قال عليّ ﷺ: ألا تستحون؟! ألا تغارون؟ يترك أحدكم امرأته تخرج بين الرجال تنظر إليهم وينظرون إليها!! وكان الصحابة ﷺ يسدون النوافذ وثقوب الجدران؛ لئلا تطلع منها النساء على الرجال أو الرجال على النساء (!)، وقد رأى معاذ بن جبل زوجته تطلع في كوة فضربها، وأقره النبي ﷺ. وكان علي ﷺ يقول: اكفف أبصارهن بالحجاب (!) فإن شدة الحجاب عليهن خير من الارتياب ... فإن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل! فالحجاب حسن حصين للمرأة يمنع عنها الشكوك والأوهام، ولزومها بيتها خير وأسلم عاقبة ...».

نقول: هذا الكلام كله هراء، ولا تصح نسبته لا إلى رسول الله ولا إلى أصحابه. والمرويات التي يعتمد عليها هذا الكتاب ظاهرة المخالفة لما تواتر من خروج النساء إلى المسجد النبوي من الفجر إلى العشاء، يرين الرجال ويراهن الرجال، ولكن مع غض البصر كما أمر الله ورسوله. إن الإسلام لم يأمر بعدم النظر، وإنما أمر بغض البصر.

وقد تصورت المشرفين على هذا الكتاب في مواقف تستحق الدراسة. لقد روى البخاري أن صحابية أحبت أن تكون مع المجاهدين في البحر، تركب الأسطول، وتقاتل في سبيل الله، وطلبت من الرسول أن يدعو الله لها بذلك، فأجابها وطمأنها وبشرها ...

لو كان مؤلف الكتاب حاضرًا لقال لها: ما لك يا امرأة وهذا العمل؟ وما تَكلُّفك أمرًا لا تحسنينه؟ امكثي في بيتك ولا تكوني من العصاة!

وتصورت أن المؤلف مع بنت شعيب[24]، وهي تقول لأبيها في شأن موسى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: 26]، أنه سيضربها على فمها ويقول لها: اخرسي ما أدراك أنه قوي؟ لعلك نظرت إليه وفكرت فيه يا ...[25].

إن هذا النوع من الدعاة هو الذي يبرر الأوضاع الجائرة، ويسند الأنظمة

---

(24) لا يوجد دليل على أن البنتين اللتين كانتا عند ماء مدين وسقى لهما موسى عليه السلام: هما ابنتا شعيب عليه السلام، إذ السياق القرآني يدل على أن شعيبًا كان قبل موسى. ولو كان هذا الشيخ الكبير شعيبًا الرسول ما أبهمه القرآن، ولم يكن لائقًا أن يدع الناس ابنتي نبيهم ورسولهم دون أن يقدم لهما أحد عونًا. ربما كان الرجل اسمه شعيب، ولكنه ليس النبي.

(25) «علل وأدوية» (ص: 159 - 161).

المنحرفة بفتاواه التي يضعها في غير موضعها، وهو الذي يشيع الثقافة الرديئة في الأمة التي جعلت الماركسيين يقولون: إن الدين أفيون الشعوب!

إن الظلوم الطاغية يقبض على زمام الحكم بالقوة أو بالحيلة، فيقول هؤلاء في تسويغ وجوده: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26].

أما أن المنصب أمانة ومسئولية، ويجب أن يتم بالاختيار الحر والبيعة والرضا، فلا يذكر في هذا المقام.

ومن انتهب ثروة ضخمة أخذها سرًّا أو علانية، بمقتضى امتيازات منحت له أو لأسرته دون خلق الله جميعًا، فلا يقول أحد له: من أين لك هذا؟ بل يقولون: ﴿إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ 73 يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [آل عمران: 73، 74].

وقد ينشدون هنا قول الشاعر:

ملك الملوك إذا وهب ... لا تسألن عن السبب

الله يعطي من يشا ... ء فقف على حد الأدب!

هؤلاء الدعاة يقولون للشعوب: إن السلطان ظل الله في أرضه، إن عدل فله الأجر، وعليكم الشكر، وإن ظلم فعليه الوزر، وعليكم الصبر. وفي الحالتين عليكم أن تسمعوا له وتطيعوا، وإن فكرتم في نصيحته ففي السر لا في الجهر، فإن النصيحة على الملأ فضيحة. وإياكم أن تكتبوا كتابًا أو تنشروا مقالًا، أو تلقوا محاضرة، تنتقدون بها الأوضاع العوج، فإن هذه دعوة إلى فتنة، والفتنة أكبر من القتل، فاحذروا أن تخسروا فيها رقابكم!

وهم يقولون للسلطان: إن لـك أن تستشـير، ولـيس عليـك أن تأخـذ بـرأي المشيرين، وإن كانوا جمهور الأمة، أو أكثرية أهل الحل والعقد، فالشورى معلمة لا ملزمة. فالسلطان هو الراعي المسئول عـن رعيتـه، وعليـه أن يتصرـف كـما يشـاء بمقتضى مسئوليته.

أما ما ورد عن أبي بكر: إن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني. أطيعوني ما أطعت اللَّه فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم ...

وما جاء عن عمر – في قوله لمن قال له على الملأ: اتق اللَّه يا عمر – : لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها ... وقوله: مـن رأى مـنكم فيّ اعوجاجًـا فليقومني ...

فكل هذا ينسى إذا ذكرت حقـوق الشـعوب عـلى حكامهـا. ويقـول هـؤلاء: احذروا من الديمقراطية ووسائلها، فإنها من المنكرات. وربما كانت من الكفر!

هذه هي الثقافة الدينية التي يروجها هؤلاء «الدعاة الفتانون» كما سماهم الشيخ، وهي ثقافة يقاومها ويندد بها؛ لأنها تعرض وجـه الإسـلام دميمًـا أمـام الإنسـان المعاصر، وتصد عن سبيل الدعوة إلى اللَّه.

المنافق العليم اللسان:

وكما شن الشيخ غارته على المتنطعين المتزمتين من أهل العلم، الـذين يحجّـرون على النـاس مـا وسـع اللَّه، ويأخـذون النـاس بأشـد الأقـوال حرجًـا في القضـايا الاجتماعية التي تهم جماهير الناس، نجده كذلك يشدد الحملة على كل «منافق عليم اللسان» ممن يبيعون دينهم بعرض يسير من الدنيا. إنهم هـؤلاء العلـماء المنحلـون الذين يرون الموبقات تقترف فيصادقون أصحابها، ويرون أحكام الإسلام ميتة فلا

يحاولون إحياءها، ويرون أنصار الحق مستوحشين ضعافًا، فلا يؤنسون وحشتهم، ولا يدعمون جانبهم.

وما ظنك بعالم دين يقف ليصفق مع المصفقين، ويهتف باسم واحد من أولئك الذين يحيون على أنقاض الإسلام ورفات المكافحين؟! إن هذا الصنف المنحل الملق لا يصلح لشيء، بل ما يصلح الدين إلا بزواله.

والدعوة الإسلامية منكوبة بالمتزمتين البله والمتملقين اللئام.

ولا تزيدني الأيام إلا إحساسًا بهذه الحقيقة: إن حاجة الإسلام إلى الذكاء لا تقل عن حاجته إلى الإخلاص، أو بتعبير القدامى: لا بد من الفقه الواسع إلى جوار النية الخالصة.

لو كان الأمر بيد المتزمتين لبقيت أسواق النخاسة في أرجاء الدنيا تبيع الأحرار على أنهم رقيق، ولو كان الأمر بيدهم ما فتحت مدرسة لتعليم البنات أبدًا.

أما حزب المنافق العليم اللسان، فهو وراء فساد المجتمع، وجور الحكام، وضياع الجماهير[26].

❋ ❋ ❋

(26) «علل وأدوية» (ص: 166).

مرتكزات الفكر الدعوي عند الغزالي

يستند الفكر الدعوي عند الغزالي إلى مرتكزات أساسية، يلمسها كل من سمعه، خطيبًا أو محاضرًا، أو قرأه كاتبًا ومؤلفًا.

أول هذه المرتكزات وأعظمها: القرآن الكريم:

فالقرآن الكريم هو مصدر الشيخ الأول، الذي يغترف منه صباحه ومساءه، فلا يشبع ولا يفتر. وهو جنته الدانية القطوف، التي يتفيأ أبدًا ظلالها، ويقتطف من ثمارها. وهو الصاحب الدائم الذي يعايشه تاليًا متدبرًا، وشارحًا مفسرًا.

ومن سمع الشيخ أو قرأ كتبه ومقالاته، منذ فجر شبابه، علم علم اليقين: مدى حفاوته بالقرآن، وتذوقه لأسرار بيانه، وتفهمه لأغوار معانيه، وحسن استشهاده به، ووجد له نظرات ووقفات مع الآيات والسور، تدل على أنه ابن القرآن حقًّا.

وسنعود لبيان هذا في فصل خاص به.

والسنة النبوية المشرفة هي المصدر الثاني للشيخ، وهي مرتكزه بعد القرآن، يقتبس من مشكاة النبوة، وينهل من معين الرسالة. بها يوضح معاني القرآن، ويعمق مدلولاتها، ويفصل ما أجمله، ويعطي الأمثلة والصور التطبيقية التي حفلت بها السنة لشرح القرآن وبيانه نظرًا وعملًا، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44].

ولا نجد خطبة أو محاضرة أو درسًا للشيخ، أو مقالًا أو بحثًا إلا رأيته يحسن سياق الأحاديث الصحاح والحسان محتجًّا بها، أو الضعاف مستأنسًا بها. وهذه كتبه أمامنا حافلة بهذه الأحاديث.

وسنرجع لتفصيل موقف الشيخ من السنة في فصل مستقل.

ومرتكزه الثالث: التاريخ الإنساني العام، والإسلامي الخاص، وقمته السيرة النبوية، فهي بداية تاريخ الإسلام، ونقطة انطلاقه.

والشيخ قارئ جيد للتاريخ، مدرك لوقائعه الحاسمة، وأحداثه الكبرى، ومراحله المتلاحقة وبخاصة التاريخ الإسلامي، وأسرار انتصار أمته وتفوق حضارته، ثم تراجع هذه الحضارة، وتخلف الأمة وتمزقها، وغلبة أعدائها عليها، وأسباب ذلك.

والداعية الموفق هو الذي يحسن توظيف التاريخ ووقائعه ومواقف أبطاله في خدمة دعوته، وتبليغ رسالته. والأمة الموفقة هي التي تستفيد من التاريخ؛ فهو ذاكرتها التي يختزن فيها ماضيها. وكثيرًا ما استشهد الشيخ بشعر أمير الشعراء أحمد شوقي:

مثل القوم نسوا تاريخهم كلقيط عيّ في الحي انتسابا
أو كمغلوب على ذاكرة يشتكي من صلة الماضي انقضابا

ومرتكزه الرابع: الثقافة العامة: الثقافة الدينية، والثقافة الإنسانية. فقد تخرج الشيخ في كلية أصول الدين، وهي كلية الثقافة الإسلامية المتنوعة: التفسير والحديث والعقيدة والملل والنحل والمنطق والفلسفة والتصوف وعلم النفس والتاريخ وأصول الفقه. وكان الشيخ أزهريًّا متمكنًا متفوقًا، وأكد ذلك بدراسته في تخصص الدعوة والإرشاد، ثم أضاف إلى ذلك قراءته الخاصة، طوال حياته في مختلف حقول المعارف.

وإلى جوار هذه الثقافة الدينية والإنسانية الأصيلة نجد ثقافة أدبية ولغوية

عميقة، أساسها دراسة الشيخ الأزهرية، ثم قراءاته الحرة المستمرة.

ومرتكزه الخامس: الواقع، وفقهه، عن طريق المعايشة والاطلاع، سواء كان واقع المسلمين أو واقع القوى المعادية لهم، الواقع المحلي «المصري»، والواقع الإقليمي «العربي»، والواقع الإسلامي «واقع البلاد الإسلامية»، والواقع الدولي «خارج عالم الإسلام».

هذا الواقع كتاب مفتوح لدى الشيخ، يقرأ سطوره وما بين سطوره، ويتدبر أحداثه ويتعلم منها ويعلم، ويوظفها في نصرة دعوته وتحقيق مقاصدها.

لا يهتم في الواقع بالجانب المادي أو الحسي فيه، مغفلًا الجوانب الأخرى، بل اهتمامه - مع ذلك - مركوز على ما وراء المادي والحسي، من الأفكار والأخلاق والعقائد والتقاليد، فهي التي تصنع الإنسان والمجتمعات، وتميز بعضها عن بعض.

موقف الغزالي من السلف والسلفية:

وهنا قد يسأل سائلون: ما موقف الغزالي من السلف والفكرة السلفية، وبخاصة أنه قد اشتبك مع بعض دعاة السلف في كثير مما كتبه في السنين الأخيرة، ووقف في الصف المقابل لهم في أغلب ما يثيرونه، ويجعلونه من ركائز دعوتهم؟

والواقع أن الشيخ الغزالي - مثل شيخه حسن البنا - رجل سلفي، فالسلفية من خصائص الدعوة أو المدرسة التي آمن بها، وانتمى إليها، ووظف جهده في نصرتها. وقد قال حسن البنا في وصف هذه المدرسة: إنها دعوة سلفية ... وطريقة سنية ... وحقيقة صوفية ... وجماعة ثقافية ... وهيئة سياسية ... إلخ، وهذا ما يؤمن به مفكرنا الغزالي.

ولقد كتب الشيخ في وقت مبكر - أوائل الخمسينات - كتابه: «عقيدة المسلم»، فرجح فيه مذهب السلف، وقاوم الشرك كله أكبره وأصغره، وجليه وخفيه، وانتصر للتوحيد الحق، وإن كان في الكتاب نَفَس أشعري، وخصوصًا في التقسيم والتبويب، وهذا لا يخلو منه أزهري، فالأزهر - مثل: الزيتونة والقرويين وديوبند «أزهر الهند» وغيرها من الجامعات الدينية في العالم الإسلامي - كلها أشعرية أو ماتريدية. وقد قلت في أحد المؤتمرات يومًا لمن سألني عن الأشاعرة: إن الأمة الإسلامية، منذ قرون - في جملتها - أشعرية!

فما يضير الشيخ أن يتأثر بالأشعري أو الماتريدي، أو حتى بالمعتزلة، أو بالفلاسفة! المهم ألا يعبّد نفسه لطائفة منهم، تحكم فكره، وتسلبه حريته. فالمرجع الأعلى عنده القرآن والسنة.

وقد استفاد إمام السلفيين ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن القيم من تراث المعتزلة، واقتبسا منه ما كان حقًّا في قضايا أفعال العباد، والحسن والقبح، والحكمة والتعليل، وذكر ابن القيم أن منهجه أن يأخذ الحق حيث وجده مع أي طائفة، ويدع الباطل من أي طائفة، وأن يجمع الحق كله بعضه إلى بعض، ويكوّن من مجموعه مقولته.

على أن الغزالي نقد منهج علم الكلام الأشعري الذي يدرس في الأزهر نقدًا شديدًا؛ لأنه خاض في مسائل ميتافيزيقية لا طاقة للعقل البشري بها، ولا طائل من وراء بحثها، مما يتصل بالذات والصفات، وهل هي عين الذات أو غيرها؟ أو لا عين ولا غير؟

وهو يفضل أن يتم تعليم العقائد على دعامتين:

الأولى: القرآن الكريم، الذي يخاطب الفطرة السليمة، والعقل الرشيد، ويلفت النظر إلى الكون والإنسان والتاريخ، لتكون مسرحًا للتفكر، ويبتعد عن الإلغاز والتعقيد. وهو يتفق هنا مع الإمام ابن الوزير في ترجيح «أساليب القرآن على أساليب اليونان».

والثانية: العلم الحديث، وما كشف من آيات اللَّه في كونه، ومن بدائع صنع اللَّه في خلقه: في عالم الأفلاك، وفي عالم الجمادات، وفي عالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان. وفي العوالم كلها من الذرة إلى المجرة.

وبذلك يلتقي كلام اللَّه في كتابه، مع فعل اللَّه في كونه، وكلاهما يدل عليه، ويهدي العقول والقلوب إليه.

الغزالي يؤمن بالسلفية التي كان عليها الصحابة والتابعون، فَهْمًا متكاملًا للإسلام، وإيمانًا حيًّا وصادقًا بمنزِّله وبمبلِّغه، وعملًا بما جاء به من أحكام، والتزامًا بما هدى إليه من أخلاق، ودعوة إليه على بصيرة، وبالحكمة والموعظة الحسنة، وجهادًا في سبيله بالنفس والمال واللسان.

يقول الشيخ حَفِظَهُ اللَّهُ:

«إن السلفية ليست فرقة من الناس تسكن بقاعًا من جزيرة العرب، وتحيا على نحو اجتماعي معين.

إننا نرفض هذا الفهم ونأبى الانتهاء إليه.

إن السلفية نزعة عقلية وعاطفية ترتبط بخير القرون، وتعمق ولاءها لكتاب

الله وسنة رسوله، وتحشد جهود المسلمين المادية والأدبية لإعلاء كلمة الله دون نظر إلى عرق أو لون.

وفهمها للإسلام وعملها له يرتفع إلى مستوى عمومه وخلوده وتجاوبه مع الفطرة وقيامه على العقل.

● وقد رأيت أناسًا يفهمون السلفية على أنها فقه أحمد بن حنبل ﷺ، وهذا خطأ؛ ففقه أحمد أحد الخطوط الفكرية في الثقافة الإسلامية التي تسع أئمة الأمصار وغيرهم مهما كثروا.

● ورأيت ناسًا يفهمون السلفية على أنها مدرسة النص، وهذا خطأ؛ فإن مدرسة الرأي كمدرسة الأثر في أخذها من الإسلام واعتمادها عليه.

وقد كان من هؤلاء من تسموا أخيرًا بأهل الحديث، وسيطرت عليهم أفكار قاصرة في فهم الأخبار المروية، وأحدثوا في الحرم فتنة منكورة.

والحديث النبوي ليس حكرًا على طائفة بعينها من المسلمين، بل إنه مصدر رئيسي للفقه المذهبي كله.

● ورأيت ناسًا تغلب عليهم البداوة أو البدائية، يكرهون المكتشفات العلمية الحديثة، ولا يحسنون الانتفاع بها في دعم الرسالة الإسلامية وحماية تعاليمها. يرفضون الحديث في التليفزيون مثلًا؛ لأن ظهور الصورة على الشاشة حرام! ويتناولون المقررات الفلكية والجغرافية وغيرها بالهزء والإنكار!! وهؤلاء في الحقيقة لا سلف ولا خلف، وأدمغتهم تحتاج إلى تشكيل جديد!

● ورأيت ناسًا يتبعون الأعنت الأعنت، والأغلظ الأغلظ، من كل رأي قيل، فما يفتون الناس إلا بما يشق عليهم، وينغص معايشهم، ويؤخر مسيرة المؤمنين في

الدنيا، ويأوي بهم إلى كهوفها المظلمة!

وهؤلاء أيضًا لا سلف ولا خلف، إنهم أناس في انتسابهم إلى علوم الدين نظر، وأغلبهم معتل الضمير والتفكير.

● ورأيت ناسًا يتبعون إلغاء الرقيق بعيون كئيبة! قلت لهم: ألا تعرفون أن هؤلاء العبيد هم أحرار أولاد أحرار، اختطفتهم عصابات النخاسة من أقطارهم، وباعتهم كفرانًا وعدوانًا ليكونوا لكم خدمًا، وهم في الحقيقة سادة؟

ما السلفية التي تقر هذا البلاء؟ وما هؤلاء العلماء الذين ضاقوا بسياسة الملك فيصل في تحريرهم، وإلغاء بيعهم وشرائهم؟ إن الرجل الشهيد أولى بالله منهم.

● ورأيت ناسًا يقولون: إن آية ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ [البقرة: 190] مرحلية، فإذا أمكنتنا اليد، لم نُبق على أحد من الكافرين!

قلت: ما هذه سلفية، هذا فكر قطاع طرق لا أصحاب دعوة شريفة حصيفة، وأولئك لا يؤمَنون على تدريس الإسلام لجماعة من التلامذة، بَلْه أن يقدموا في المحافل الدولية والمجامع الدولية.

إن العالم الإسلامي الآن متخلف حضاريًّا، ومضطرب أخلاقيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا، وبينه وبين الأمم القائدة الصاعدة أمد بعيد.

هذه الأمم تعلم ظاهرًا من الحياة الدنيا، وتفتقر إلى جيل من البشر يذكرها بالله ولقائه.

والإسلام وحده هو المالك لهذه الحقائق الهادية، ولكي تؤدي أمته رسالتها يجب عليها أمران:

الأول: أن تطوي مسافة التخلف الحضاري، والاضطراب الإنساني الذي يشينها ولا يزينها.

والثاني: أن تتقدم بشرف وكياسة لتقول للناس كلهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 174].

ولكي ننجح في عملنا يجب أن نقتفي آثار سلفنا.

والسلفية هنا عنوان كبير لحقيقة كبيرة، أساسها العقل الحر المكتشف الدءوب.

إن هذا العقل عندما رغب عن «البحث في الذات العليا وحقيقة الصفات» كان يحترم نفسه عندما توقف ... والعلم المعاصر نجح أيما نجاح عندما بحث في المادة التي بين يديه، ولم يبحث في ربها – سبحانه – فأنى له البحث فيما لا يملك ولا يقدر؟

من أجل ذلك نرفض النظريات الكلامية، ونقبل المذاهب الفقهية، ونضع الشبكة القانونية التي يتطلبها انتقال الحياة من طور إلى طور.

من أجل ذلك نهشّ للتقدم العلمي ونطوعه لنصرة مبادئنا ومثلنا.

ومن أجل ذلك نرى ضرورة إزاحة البُلْه وذوي العقد النفسية من قيادة الفكر الديني، فإنهم غشاوات على البصائر، وحجب على الضمائر.

إننا محتاجون إلى فقهاء يستطيعون النظر في سياسة المال والحكم، ويرفضون أن يسبقهم الإلحاد إلى اجتذاب الشعوب الفقيرة في هذه الميادين الخطيرة، ومحتاجون إلى فقهاء يهيمنون على شئون التربية والإعلام برحابة الإسلام وبشاشته لا بالتزمت والتكلف.

إن الفقه الإسلامي كما قدمه سلفنا حضارة معجزة، أما الفقه الإسلامي كما يقدمه البعض الآن فهو يميت ولا يحيي»[27]. اهـ.

***

(27) انظر: «دستور الوحدة الثقافية» (ص: 120 – 124)، ط. دار الأنصار بالقاهرة.

خصائص الداعية ومؤهلاته عند الغزالي

ليس كل إنسان يصلح لأن يكون داعية، فقد يكون المرء عالمًا كبيرًا، ولا يكون داعية كذلك. فالداعية له مؤهلات أو خصائص قد لا تتوافر لغيره من العلماء الباحثين «الأكاديميين». والدعاة متفاوتون في حظهم من هذه الخصائص، وللشيخ الغزالي من هذه الخصائص القدح المعلي.

1 - **العقل العلمي المبصر:**

وأول هذه الأدوات المطلوبة: العقل الواعي البصير، الذي يستطيع أن يدعو بالحكمة، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269]، فقد قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

وهذا العقل هو الذي يمكن صاحبه من الدعوة على بصيرة كما أمر الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108].

هذا العقل هو الذي يستطيع أن يوظف ما يقرؤه في خدمة الدعوة التي يؤمن بها، سواء كانت قراءة في الدين، أم قراءة في الأدب، أم قراءة في العلم.

وهذا العقل هو الذي يستطيع أن يوظف التاريخ، ويوظف الواقع، ويوظف الثقافة كلها، في سبيل الدعوة والرسالة.

وقد أوتي الشيخ هذا العقل البصير الناقد، الذي يرفض التقليد الأعمى، سواء كان تقليدًا للشرق القديم أم للغرب الجديد، ولا يلقي زمامه لأحد ليقوده كما يشاء دون أن يدري إلى أي وجه هو ذاهب، بل هو عقل حر متفتح، يقبل ما يقبل من

الأفكار، ويدع ما يدع منها، وفق ما يلوح له من الأدلة والبراهين، وما يرجع إليه من القيم والموازين، ولا تهوله الأسماء ولا الألقاب، بل هو بحاثة عن الحق حيثما كان، ومع أي كان.

وربما كان هذا العقل الناقد الثائر هو الذي جلب على الشيخ كثيرًا من المتاعب في رفضه لآراء وأقوال يقدسها بعض الناس، ويضفون عليها ما يشبه العصمة، وفي نقده الحاد لبعض الأفكار التي يراها ضارة بدعوة الإسلام، سواء من داخل الساحة الإسلامية أم من خارجها.

ومن العبث الذي لا يقبل شرعًا ولا عقلًا ولا عرفًا: أن يطالب الشيخ بأن يتنازل عن عقله لعقل غيره، وأن يدع ما يقتنع به من أجل اقتناع فلان وعلان، وأن يترك اجتهاده ليعمل باجتهاد الآخرين، فهذا ما لا يسيغه العقل، ولا يجيزه الدين.

قيمة العقل في الدين:

في بواكير ما كتب الشيخ: في «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» نقرأ من هذه الفقرة تحت عنوان «قيمة العقل في الدين»:

«إن حدة الذكاء ويقظة الفكر واستنارة الرأي عناصر لا بد منها في تكوين الإيمان الصحيح. فإن الإيمان معرفة بلغت حد اليقين وانتفت معها الريبة، وحيث لا يوجد الإدراك الواضح، والفهم الناضج، يصبح اليقين غير ذي موضوع!!

ولا يحسب أحد أننا بذلك نظلم البلهاء، أو نغمط الحمقى حقهم - إن صحت لهم حقوق - بل إننا نستوحي هذا الحكم من نصوص القرآن الكريم نفسه. فالعقول الذكية وحدها هي التي تستطيع اختراق أسرار الكون ومعرفة آيات الله في شتى الأمكنة والأزمنة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: 190].

والعقول الذكية وحدها هي التي تميز الحق من الباطل، وتعرف حقائق الوحي من نزغات الهوى وتلفيق الضلال: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الرعد: 19].

والعقول الذكية وحدها هي التي تستفيد من عبر الماضي، وتنتفع بتاريخ الإنسانية الطويل، وقصص الأبطال أو الأنذال، من المصلحين أو من المفسدين: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف: 111].

ولا تكون الحكمة في معالجة الأمور، والدقة في الحكم على الأشخاص، والمسائل، والبصر بالمقدمات والنتائج، إلا لأصحاب العقول الواسعة والمواهب الرائعة: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: 269].

وتربية العقول، وإذكاء المواهب، وتفتيق الملكات الإنسانية، ليست أمرًا هينًا. فمراحل التعليم في المدرسة، ومراحل التجريب في الحياة، واستيراد الأفكار البعيدة، وضم ما لا نعرف إلى ما نعرف، والنظر في الجديد نظرة تطلف وإيلاف، لا نظرة جمود واعتساف، والتطويف في آفاق العوامل المادية والأدبية - هذه جميعًا وسائل لترقية العقل الإنساني، ثم هي بعد وسائل العقل السليم لمعرفة الله، وحسن الإيمان به والإفادة من دينه»[28].

---

(28) «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» (ص: 105، 106).

عقل يرد على الشبهات:

هذا العقل البصير هو الذي استطاع به الغزالي أن يفند الشبهات، ويدفع المفتريات، التي يثيرها أعداء الإسلام، على اختلاف مللهم ونحلهم، وخصوم الفكر الإسلامي على اختلاف توجهاتهم.

بهذا العقل رد الشيخ على الذين أثاروا شبهًا على العقيدة الإسلامية من الشيوعيين والمنصّرين، والذين أثاروا شبهًا على الشريعة الإسلامية من العلمانيين والمتغربين، والذين أثاروا شبهًا على الحضارة الإسلامية من المستشرقين والكتاب الغربيين.

أكتب هذه السطور وبين يدي كتاب قديم للشيخ ظهر منذ أكثر من ربع قرن، هو كتاب: «قذائف الحق» في طبعته الرابعة، التي قدم لها الأخ «عبد الله العقيل».

وفي هذا الكتاب ناقش الشيخ بعقله البصير طوائف شتى، وكرّ على شبهاتهم شبهة شبهة بحجج الإسلام وبراهين القرآن.

الرد على أباطيل العهد القديم:

ناقش الشيخ اليهود وما ذكروه عن الخالق جل شأنه في أسفار «العهد القديم»، وكيف وصفوا الله سبحانه بالعجز بعد أن خلق الكون في ستة أيام، فتعب، واستراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، ولهذا يحرم اليهود العمل والكدح في هذا اليوم. حتى جاء في التوراة: أن موسى عليه السلام أمر بأن يقتل رجمًا أحد الحطابين الذين أبوا إلا الكدح في هذا اليوم!

والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: 38].

ثم تبع هذا الحديث عن عجز الله تعالى حديث آخر عن جهله! فقد كان الرب الإله يتمشى في الجنة عند هبوب ريح النهار، فسمع آدم وزوجه صوت الرب، فاختبآ منه. فنادى الرب آدم: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك، فخشيت لأني عريان، فاختبأت! فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة ...؟

أين هذا مما ذكره القرآن: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: 16].

وتبع هذا الجهل حزن وقلق غريب. فإن الرب الإله، يبدو وكأن ملكه أصبح مهددًا بهذا التمرد الآدمي؛ فقد ارتكب آدم الجريمة الأولى وأكل من شجرة المعرفة، وارتفع بهذه المعصية إلى مصاف الآلهة، فقد غدا يدرك الخير والشر. وكان الرب عندما خلقه حريصًا على بقائه جاهلًا بها.

ومن يدري، فقد يزداد عصيانه وتمرده، ويأكل من شجرة الخلد، ويظفر بالخلود، «فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه».

هذا ما يقوله سفر التكوين من التوراة الحالية، والذي يؤمن بها اليهود والنصارى جميعًا. يقول الشيخ: «إن الإله في هذه السياقات الصبيانية كائن قاصر، متقلب، ضعيف. وما أشك في أن مؤلف هذه السطور كان سجين تصورات وثنية عن حقيقة الألوهية وما ينبغي لها. وأول ما نستبعده حين نقرأ هذه العبارات أن تكون وحيًا أو شبه وحي»[29].

وما قالته التوراة عن «الله» جل جلاله، قالت أسوأ منه وأدهى عن أنبياء الله

(29) «قذائف الحق» (ص: 21 – 25).

ورسله! فنسبت إليهم من الزنى والسكر والفجور واستباحة الدماء ما يخجل المرء أن يصف به إلا السفلة المجرمين من الناس.

وقد ساق الشيخ أمثلة لذلك واستنكرها: نوح السكير وأسرته، لوط الزاني، إبراهيم الديوث، يعقوب المحتال!

إن مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» ليس الذي قرره «ميكافيللي» كما يقال، بل التوراة[30].

الرد على تثليث النصارى:

وبهذا العقل المبصر ناقش الشيخ النصارى في عقيدة «التثليث»، وبين منافاتها لعقيدة التوحيد، كما بين استحالة كون الثلاثة واحدًا، كاستحالة كون الواحد ثلاثة!

وبهذا العقل أوضح تهافت الأساس العقلي والديني لعقيدة الصلب والفداء. يقول الشيخ:

«إن المسيحيين يقولون: إن اللّه «الابن» صُلِب! لكنهم يقولون كذلك: إن الأب هو الابن، وهما - والروح المقدس - جميعًا شيء واحد!

إن كان الأمر كذلك فالقاتل هو المقتول! وذاك سر ما قاله أحد الفرنجة المفكرين: «خلاصة المسيحية: أن اللّه قتل اللّه لإرضاء اللّه!!»[31].

---

(30) نفسه (ص: 26 - 31).

(31) نفسه (ص: 43).

الرد على الإلحاد الشيوعي:

وبهذا العقل رد الشيخ على أباطيل الملاحدة الشيوعيين، الذين ينكرون وجود الخالق سبحانه.

دار هذا الحوار بين الشيخ وواحد منهم ننقل منه هذه السطور:

«قال الملحد: إذا كان اللَّه قد خلق العالم، فمن خلق اللَّه؟

قلت له: كأنك بهذا السؤال أو بهذا الاعتراض تؤكد أنه لا بد لكل شيء من خالق!!

قال الملحد: لا تُلقني في متاهات، أجب عن سؤالي.

قلت له: لا لفّ ولا دوران. إنك ترى أن العالم ليس له خالق، أي أن وجوده من ذاته دون حاجة إلى موجد، فلماذا تقبل القول بأن هذا العالم موجود من ذاته أزلًا وتستغرب من أهل الدين أن يقولوا: إن اللَّه الذي خلق العالم ليس لوجوده أول؟

إنها قضية واحدة، فلماذا تصدق نفسك حين تقررها وتكذب غيرك حين يقررها؟ وإذا كنت ترى أن إلهًا ليس له خالق خرافة، فعالم ليس له خالق خرافة كذلك، وفق المنطق الذي تسير عليه ...!!

قال: إننا نعيش في هذا العالم ونحس وجوده فلا نستطيع أن ننكره!

قلت له: ومن طالبك بإنكار وجود العالم؟

إننا عندما نركب عربة أو باخرة أو طائرة تنطلق بنا في طريق رهيب، فتساؤلنا ليس في وجود العربة، وإنما هو: هل تسير وحدها أم يسيرها قائد بصير؟!

ومن ثم فإنني أعود إلى سؤالك الأول لأقول لك: إنه مردود عليك. فأنا وأنت

معترفان بوجود قائم، لا مجال لإنكاره، تزعم أنه لا أول له بالنسبة إلى المادة، وأرى أنه لا أول له بالنسبة إلى خالقها.

فإذا أردت أن تسخر من وجود لا أول له، فاسخر من نفسك قبل أن تسخر من المتدينين ...

قال: تعني أن الافتراض العقلي واحد بالنسبة إلى الفريقين؟

قلت: إنني أسترسل معك لأكشف الفراغ والادعاء اللذين يعتمد عليهما الإلحاد وحسب. أما الافتراض العقلي فليس سواء بين المؤمنين والكافرين ...

إنني – أنا وأنت – ننظر إلى قصر قائم، فأرى بعد نظرة خبيرة أن مهندسًا أقامه، وترى أنت أن خشبه وحديده وحجره وطلاءه قد انتظمت في مواضعها وتهيأت لساكنيها من تلقاء أنفسها ...

الفارق بين نظرتينا إلى الأمور أنني وجدت قمرًا صناعيًّا يدور في الفضاء، فقلت أنت: انطلق وحده دونما إشراف أو توجيه. وقلت أنا: بل أطلقه عقل مشرف مدبر ...»[32].

وحدة الوجود خرافة:

وبهذا العقل أيضًا رد الشيخ على غلاة المتصوفة الذين قالوا بـ «وحدة الوجود»، وأذابوا الحدود بين الخالق والمخلوق، بين الرب الأعلى وهذا الكون، الذي خلقه فسواه.

يقول الشيخ تحت عنوان «وحدة الوجود خرافة»:

---

(32) «قذائف الحق» (ص: 163 – 164).

«إن الشعور بالوجود الإلهي يجب أن يكون حيًّا غامرًا لدى أولي الألباب ...

لكن الكون شيء غير صاحبه، والعالم شيء غير الله، ومعرفتنا بالله فيما أوجد لا تعني أن الموجد هو الموجود.

ومن السخف أن يرتكس الفكر الإنساني في هذه الحمأة.

إن الآلة شيء غير من اخترعها، والقصر شيء غير من بناه ...

وقد خلقنا الله وكلفنا، ورتب على تكاليفه مثوبات وعقوبات، وأنزل بذلك كتبًا وبعث رسلًا ...

فكيف نجرؤ على وصفه بالهزل والتزوير في ذلك كله؟

ولقد أحصى العلماء العناصر التي يتكون منها العالم، وقرروا ما لكل عنصر من خصائص لا تزيد ولا تنقص، فكيف توصف هذه العناصر بعد ذلك بأوصاف الألوهية؟

إن القول بوحدة الوجود هو – عند التأمل – نفي للألوهية وإثبات للكائنات وحدها ...

فالماء مثلًا مادة معروفة، وقد شرح الكيميائيون أسلوب وجودها من عنصريها الأساسيين.

وهي من قبل ومن بعد لن تكون إلا الماء.

فالزعم بأنها إله أو جزء إله تخرص علمي سيسقط من تلقاء نفسه، وتبقى بعد ذلك العناصر وحدها دون أي وصف إلهي.

ومن ثم قلنا: إن وحدة الوجود عنوان آخر للإلحاد في وجود الله، وتعبير ملتوٍ

للقول بوجود المادة فقط، وما دام لا يوجد شيء وراء هـذا العـالم، فـالقول بـأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه!»[33].

ويحذر الشيخ من بعض «التعبيرات الموهمة» في هـذ المقـام الخطـير، فيقـول في كتاب آخر:

«ولا بد هنا من توكيد التفرقة بين وجود الله ووجود العالم، فـإن بعـض النـاس يستغلون المعاني التي شرحناها للبس الحق بالباطل.

إن وجود الله مغاير لوجود سائر المخلوقات، وهذا العالم منفصل عن ذاته جـل شأنه انفصالًا تامًّا.

وقد تسمع بعض الفلاسفة أو بعض المتصوفين يقول:

إنه يرى الله في كل شيء.

وهذا التعبير صحيح إن كان يعني أنه يرى آثاره وشواهده.

أما إن كان يعني وحدة الخالق والمخلوق، أو وحدة الوجود كما يهرف الكذبـة، فالتعبير باطل من ألفه إلى يائه، والقول بهذا كفر بالله والمرسلين»[34].

مناقشة المستشرقين:

وبهذا العقل ناقش الشيخ كبار المستشرقين، ورد على مطاعنهم حول الإسـلام: قرآنه الكريم، ورسوله العظيم، وعقيدته الحنيفية، وشريعته السمحة، وحضـارته المثلى. وقد تجلى ذلك في كتابات شـتى، ولا سـيما في كتابـه: «دفـاع عـن العقيـدة

---

(33) «ركائز الإيمان بين العقل والقلب» (ص: 158، 159).

(34) «قذائف الحدق» (ص: 186).

والشريعة ضد مطاعن المستشرقين»، الذي رد به على المستشرق الشهير «جولدزيهر» في كتابه: «العقيدة والشريعة في الإسلام» المترجم إلى العربية.

مناقشة القوميين:

وبهذا العقل أيضًا رد على غلاة القوميين العرب، الذين أرادوها قومية علمانية مبتوتة الصلة بالإسلام، تتغنى بأمجاد الإسلام، ولكنها ترفضه مرجعية عليا لها، ولا تقبل شريعته حكمًا في قضاياها، وهذه مبثوث في كثير مما كتب، ولكنه مركز في كتابه: «حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي». وهي في الأصل محاضرات ألقاها على طلبة كلية الشريعة بالأزهر بتكليف من عميدها الشيخ محمد المدني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد كانت المادة مقررة في عهد عبد الناصر، والحديث فيها شائك وخطر، ولكن الشيخ عرض فكرته بما يثبت للعروبة فضلها ومكانتها، ولكنه لا يغنيها بحال عن الإسلام، الذي صنعها، ورفع ذكرها وخلدها وجعل لها رسالة في العالمين.

الرد على مزاعم الروحية الحديثة:

وبهذا العقل البصير رد كذلك على «مزاعم الروحية الحديثة» التي تقوم عليها جمعيات شتى في بلاد الغرب، مشبوهة النسب والصلات، تروج لدين جديد، له تعاليم جديدة، هي - كما يقول الشيخ - مجموعة خرافات، نبتت من الأرض ولم تنزل من السماء. وهي تقوم على وحدة الوجود، فالله والعالم شيء واحد! وعلى تناسخ الأرواح، وخلود الحياة المأنوسة لنا الآن. فلا فناء للدنيا، وليس هناك يوم للبعث والحساب العام. وعلى أن الشرائع القديمة قد استنفدت أغراضها، وأن الروحية الحديثة هي التي ستهدي العالمين بوحيها العصري المتقدم!

إننا لا نشك في أن مبادئ هذه الروحية الحديثة هي من عبث مردة الجن، الـذين استغفلوا نفرًا من أبناء آدم، واصـطادوهم إلى هـذه المجـالس: مجـالس الأشـباح والأوهام، أو مجالس تحضير الأرواح كـما يقـال، ليملـوا علـيهم هـذا المنكـر مـن القول[35].

2 - **النفس الشاعرة:**

لم يقل الشيخ الغزالي الشعر كلامًا موزونًا مقفى[36]، ولكنه يحمل روح الشاعر، ونفس الفنان، الذي يتفاعل مع كل ما حولـه، ويـرى في كـل نبتـة في الأرض، أو نجيمة في السماء، روحًا توحد الله، ولسانًا يسبح بحمد الله.

وكم له من كلمات صورتها صورة النثر، وروحها روح الشعر.

ومن رأيه: إنه لا يستطيع أن يخدم الإسلام بحق إلا ذو نفس شاعرة.

وقد سمعته يقول ذلك عندما زار الشيخ الندوي مصر سنة (1951م)، وأهدى إلى الغزالي بعض رسائله، ومنها: من العالم إلى جزيرة العرب، ومن جزيرة العـرب إلى العالم.

وفيها يصور الشيخ الندوي – وهو العالِم الداعية الأديب – العالَم يوجه رسالة إلى جزيرة العرب، وهي رسالة عتاب منه على تخلفها عن دعوتها له، ومناشدة لها أن

---

(35) انظر: فصل «مزاعم الروحية الحديثة» من كتاب: «ركائز الإيمان بين العقـل والقلـب» (ص: 343 – 361).

(36) هكذا قلت في الطبعات الأولى من الكتاب، ثم عرفت أن الشيخ قـد كتـب الشـعر في ريعـان شبابه، ونشر له ديوان تحت عنوان «الحيـاة الأولى»، وقـد أعـادت نشرـه دار الشرـوق. ولكـن العجيب أن الشيخ لم يحدثنا عن شعره هذا مرة واحدة!

تقوم في الزمن الأخير بما قامت به في الزمن الأول، من حمل رسالة الهداية التي حملها ربعي بن عامر والصحابة إلى الفرس.

ورسالة أخرى من جزيرة العرب إلى العالم تحمل هذه الروح.

من قرأ للشيخ الغزالي أيقن أنه أديب عظيم متميز، له مذاقه الخاص، وأسلوبه الأصيل، لا يقلد أحدًا، ولا ينتمي إلى مدرسة أدبية معينة، وهو لا يحب أن ينتمي في الفكر أو في العلم أو في الأدب إلا إلى مدرسة محمد بن عبد الله ﷺ.

وكم قلت في مناسبات مختلفة: إن الغزالي موهبة أدبية من طراز نادر، ولو قدر له أن يتفرغ للأدب، لكان من أعظم الأدباء البارزين في العالم العربي، ولسبق اسمه كثيرًا من الأسماء المعروفة.

ثم قرأت بعد ذلك ما يؤكد هذا المعنى للكاتب الصحفي الكبير الأستاذ أحمد بهجت، في عموده اليومي بصحيفة الأهرام القاهرية.

وإن كان الغزالي لم يقل الشعر، فإنه يتذوقه أعمق التذوق ويطرب له، ويتخذ منه أداة للبيان، وسلاحًا في معركة الدعوة ويستشهد به في محاضراته إذا حاضر، وفي خطبه إذا خطب، وفي مقالاته إذا كتب. وقلما استمعت إلى الغزالي خطيبًا أو محاضرًا أو محدثًا إلا رصع كلماته ببعض أبيات من الشعر، تقع موقعها من العقل والقلب.

ومما ساعده على ذلك محصوله الكبير، الذي يحفظه من شعر العرب، قديمه وحديثه، جاهليه وإسلاميه. وهو ينتقي من روائعه ما يستشهد به، فيحسن الاستشهاد. وله احتفاء خاص بشعر أبي الطيب في الأقدمين، وشعر شوقي في المحدثين. وأحسبه يكاد يحفظ «ديوان الحماسة» كله لأبي تمام، حتى شعر الغزل

العف نراه يتغنى به وينشده لنفسه ولغيره، وكثيرًا ما ذكر في هذا المقام غزل النابغة:

بيضـاء كالشـمس وافـت يـوم لم تؤذ أهلًا، ولم تفحش على جار
والطيب يزداد طيبًا أن يكون بها في جيد واضحة الخدين معطـار

على حين يرفض الغزل الداعر، كغزل امرئ القيس، أو عمر بن أبي ربيعة!

وأكثر ما يحتفل له من الشعر نوعان:

الشعر الإنساني:

النوع الأول: الشعر الإنساني، الذي يدور حول كرامة الإنسان وحريته وحقوقه، ويحفزه إلى اقتحام المخاطر، وخوض الغمرات، ومقاومة الاستبداد والطغيان، الشعر الذي يدعو إلى الإيثار، ويقاوم الأثرة والأنانية، مثل شعر حاتم الطائي الذي كثيرًا ما يتمثل به معجبًا:

إذا كنت ربًّا للقلـوص[37] فـلا رفيقك يمشي خلفها غير راكب
أَنِخْهـا وأردفـه فـإن حملـتكما فـذاك وإن كـان العقـاب[38]

وقول عروة بن الورد:

دعيني أطوّفْ في الـبلاد لعلنـي أفيد غني فيه لذي الحـق محمـل
ألـيس عظيمًـا أن تلـم ملمـة وليس علينا في الحقوق معـول؟

ومن أوائل ما سمعته من الشعر الذي يرويه قول حوط بن رئاب الأسدي:

دببتَ للمجـد والسـاعون قـد جَهْـدَ النفـوس، وألقَـوْا دونـه

(37) القلوص: الناقة.

(38) العقاب: التعاقب والتناوب في الركوب.

فكابروا المجد حتى مل أكثرهم وعانق المجد من أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وفي معتقل الطور سمعته يتمثل بشعر أحمد شوقي في قصيدته عن «توت عنخ آمون» وفيها يخاطب الفرعون:

زمان الفرد يا فرعون ولى ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية نازلينا

وكان ذلك دأبه طوال مدة الاعتقال: تأكيد معاني الحرية والكرامة والاستبسال في كفاح الفراعنة والمتجبرين، برغم ما لا يخفى من وجود آذان وعيون تنقل إلى السلطات كل ما يقال أو يفعل داخل الأسوار.

الشعر الرباني:

النوع الثاني: الشعر الرباني، الذي يتحدث عن الله تعالى وكتابه ورسوله، ويعمق اليقين بلقاء الله تعالى وحسابه، وهو لهذا يطرب لشعر البوصيري في «البردة»، وإن أنكر عليه شروده عن الصواب في بعض الأبيات، وكذلك «همزيته» الرائعة، وإن لم ترج رواج البردة عند جمهور الناس. وكثيرًا ما ردد مطلعها:

كيف ترقى رقيك الأنبياء؟ يا سماء ما طاولتها سماء
إنما مثّلوا صفاتك للنا س كما مثّل النجوم الماء

كما يطرب لشعر شوقي في مدائحه النبوية، «نهج البردة»، و«الهمزية» وغيرهما، ويتأثر غاية التأثر إذا سمع قصيدته «إلى عرفات الله» تغنيها أم كلثوم، وتدركه حالة من الوجد، يبكي معها طويلًا، حتى إن أولاده ليشعرون بذلك، فيدعونه في استغراقه الوجداني، لا يقطعون عليه بكلام ولا سلام، ويزداد خشوعًا وتأثرًا حينما

يناجي الشاعر ربه منيبًا إليه، راجيًا خائفًا:

ويا رب، هل تغني عن العبد وفي العمر ما فيه من الهفوات؟

ويأسى لحال المسلمين، وما انتهوا إليه، برغم ما بين أيديهم من قرآن وسنة، وينشد مع شوقي:

شعوبك في شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف في عميق

بأيمانهم نوران: ذكر وسنة فما بالهم في حالك الظلمات؟!

وهو يختار من شعر المحدثين والمعاصرين المجيدين ما يؤكد القيم والمعاني التي يدعو إليها. فتجد عنده من شعر حافظ وأحمد محرم ومحمود غنيم، ومصطفى حمام، وعمر الأميري وغيرهم، حتى إنه أحيانًا ينقل قصائد كاملة مطولة في بعض كتبه مثل قصيدة: «وقف على طلل» لمحمود غنيم، وقصيدة: «علمتني الحياة» لمصطفى حمام، وقصيدتي عن «السعادة». وفي ختام مقدمة كتابه: «قذائف الحق» استشهد بأبيات شاعر التحليقات الإيمانية، والنجاوى المحمدية، الأستاذ الأميري، وقد ذكرناها في خاتمة كتابنا.

كما يستشهد بشعر ابن الرومي في وصف المتهجدين، وسنذكرها في هذا الفصل.

3 - **الروحانية الدافقة:**

ومن الخصائص أو المؤهلات البارزة عند الغزالي: روحانيته الغامرة الدافقة.

وهذه الروحانية ضرورية لكل من يحدث الناس عن الله جل جلاله. ويدعوهم إلى وصل حبالهم به، وربطهم بهدي كتاب الكريم، وهدي رسوله العظيم ﷺ.

وهذه الروحانية الدافقة الصادقة لها مصدر فذ أوحد، هو حسن معرفة الله

تعالى، وصدق الإيمان به، واليقين بلقائه وحسابه وجزائه، واستحضار القيامة كأنها رأي عين.

هذه الروحانية ليست مجرد دعوى تدعى، ولا محض كلام يقال، أو شعار يرفع، أو مظاهر تخدع، وليس وراءها تقوى حقيقية. فالتقوى إنما هي خشية تعمر القلب، وليست عبارات يتشدق بها اللسان. والرسول ﷺ يشير إلى صدره ويقول: «**التقوى ها هنا**»، ويكررها ثلاثًا. والقرآن يضيف التقوى إلى محلها الأصيل، إذ يقول: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: 32].

المدار إذن على صدق المعرفة والإيمان بالله تباركت أسماؤه. يقول الغزالي:

«درجات المؤمنين في معرفة الله متفاوتة إلى حد بعيد.

لا تقبل هذه المعرفة – ابتداءً – إلا إذا كانت صحيحة، مطابقة للواقع. فإذا شاب هذه المعرفة جهل فاضح – كالشرك أو التجسيد – ردت في وجه صاحبها ولم تغن عنه شيئًا ...

والمعرفة الصحيحة مراتب، فالذي يعرف ربه معرفة واضحة غير الذي يعرفه معرفة غائمة.

ووضوح الرؤية للغاية المنشودة شيء آخر غير الاندفاع بإحساس غامض، ونظر مختلط.

والمعرفة العميقة غير المعرفة السطحية، الأولى تبقى على اختلاف الظروف، والأخرى قد تهتز مع الاختبارات العارضة.

والمعرفة الآلفة المستمرة غير المعرفة العابرة المارة. فقد تعرف إنسانًا معرفة

جيدة، وتنشغل عنه بأمور كثيرة أو قليلة، وقد تعرف آخر معرفة صحبة واستقرار ...

والذي يعرف ربه كلما شعر بحاجة إليه، فإذا انتهت حاجته شغلته نفسه، غير الذي أنشأ علاقة مع ربه يتعهدها بالتحبب والتردد على ساحته، فهو مُوالٍ له، معتز بصلته.

والمعرفة الموقنة الناشطة التي تجعل المؤمن يسارع في الخيرات، وينهض بالتكاليف، غير المعرفة الكسول الوانية التي يصحبها التفريط في الواجب أو استثقال أدائه.

والمعرفة العاصمة من الدنايا الكابحة للجماح، غير المعرفة المنهزمة أمام النزوات ...

والمعرفة المورثة للتوكل على الله في مواطن القلق والفزع ... غير المعرفة التي تجعل المرء ضارعًا للخلق ذليلًا أمام أصحاب الحول والطول ...

إن الإيمان يزيد وينقص، وآثاره في النفس والحياة تمتد وتنكمش.

والزيادة والنقصان ليسا في أصل المفهوم العقلي وإنما في كَمِّهِ وكيفه. فالصوت من الفم العادي يتضاعف ألف مرة عندما يمر بمذياع ضخم البوق، بعيد الصدى.

والإيمان في بعض الناس قد يتحول إلى حياة تصبغ الشعور والفكر، وتهيمن على الحركات والسكنات، وتجعل صاحبها في نهار دائم من الأنس بالله وإلف عظمته ...

ومن ثم لا يتفاضل المسلمون في أصل عقيدة التوحيد، وإنما يتفاضلون فيما

يبلغه التوحيد في نفوسهم من أبعاد وآماد.

ومن الجور أن نسوي بين العميق والضحل، والمتين والضعيف ...

وأقدار المؤمنين عند الله وحظوظهم من مثوبته تتبع درجات إيمانهم على ما شرحنا ...

واكتمال الإيمان يوصل إليه بعد جهاد طويل، ورياضة متصلة ...

ومن الخير أن نعترف بمدخل العناية العليا في هذا المضمار، فإن الفالحين يغرسون جميعًا، لكن حصيلة الثمر في كف القدر.

وما من جهد يذهب هدرًا، حاش لله، فهو القائل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

والمشكلة ليست في أن الله جل جلاله يثيب من قصده ... فهو مثيب مجيب، وإنما الذي يجب أن يعرف بحسم أن العبد في هذا الميدان محتاج إلى سعة الفضل لا إلى ضمان العدل، وأن ما يأخذه إن كان أجرًا على عمل فلن يعدو المرء مكانه، أما إن كان تطولًا من ذي الجلال والإكرام: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ 73 يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [آل عمران: 73، 74].

ولذلك لا يسبق إلا فقير متجرد من الدعوى، متعرض للمنحة، متطلع إلى عطاء المنعم الواسع تبارك اسمه»[39].

(39) «ركائز الإيمان بين العقل والقلب» (ص: 149 – 151).

الغزالي بين العقل والقلب:

يشيد الغزالي بالعقل، وينوّه بالفكر والمنطق، ويحمل على البلداء والمغفلين، الذين يحملون الدين وزر بلادتهم وغباوتهم، ويسخر ممن يزعم أن أكثر أهل الجنة «البله»، في حين يجعل القرآن أهل الجنة هم «أولي الألباب»!

ويغذي هذا الاتجاه بالحجج والأمثلة، من نصوص الدين، ومن تاريخ الأمة في عصور ازدهارها، حتى يكاد قارئه يحسبه رجلًا «عقلانيًا» محضًا. وقد رأينا «العقل البصير» أول مؤهلاته.

الغزالي القديم والغزالي المعاصر:

والواقع أن الغزالي المعاصر، كسميّه الغزالي القديم، حجة الإسلام. فقد أشاد هذا بالعقل، وأقام عليه الوحي والدين، وجعله مناط التكليف، ولكنه هو هو الغزالي صاحب «الإحياء» و«ميزان العمل» و«منهاج العابدين» وغيرها من كتب التصوف والسلوك.

وغزالينا لا يجحد دور «القلب»، ومكانة «الروح» في الدين، بل الدين الحق عنده: عقل رشيد، وقلب سليم.

وهذا المعنى الرباني مبثوث في كل كتبه، ففيها تجد فكر الفيلسوف، وقلب العاشق، والعبادة عنده تقوم على الحب، أكثر مما تقوم على الخوف.

الجانب العاطفي في الإسلام:

وفي كتابه: «الجانب العاطفي في الإسلام» إبراز لهذا الجانب المهم، الذي صد عنه بعض الناس، نظرًا لما شابه من بعض الشركيات في العقيدة، والبدع في العبادة، والسلبية في التربية، والإهمال لسنن الله في الكون والحياة.

وهذا الكتاب مصنف في التصوف، مكتوب بلغة سلفية معاصرة، وقد شرح فيه معاني الإسلام والإيمان والإحسان في ضوء القرآن والسنة، بعيدًا عن جدل المتكلمين وشطحات المتصوفين، كما بيّن عناصر الكمال النفسي- «الروحي» التي يريدها الإسلام من المسلم. وفي هذا الباب ألقى الضوء على كلمات من «حِكَم» ابن عطاء الله السكندري الشهيرة، كساها بها معاني حية، وألبسها لبوس العصر، دون أن يتقيد بكلام الشراح، الذين قد يختلط في شروحهم الحق بالباطل.

شرح عصري لبعض حكم ابن عطاء:

وأذكر لك فقرتين مما شرحه الشيخ من «الحِكَم»:

يقول ابن عطاء الله:

«أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا عنها. ولأن تصحب جاهلًا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالمًا يرضى عن نفسه! فأي علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟!».

ويشرحها الغزالي فيقول:

لا يبحث عن الشفاء إلا من أحس المرض. أما من أصيب بعلة فلم يشعر بها ولم يستشف منها، فإن جراثيمها تستشري في أوصاله حتى تأتي عليه.

وكذلك النفس الإنسانية لا يطلب لها العافية إلا من أدرك ما بها من أدواء، والشعور بالنقص أول مراحل الكمال.

وقد قال الله تعالى على لسان أحد أنبيائه المطهرين: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ

﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: 53][40].

فإذا وجدت امرأً راضيًا عن نفسه فافقد منه الأمل؛ لأنه ينطوي على ركام من العيوب والنقائص وهو لا يلتمس الخلاص منها، بل إنه فاقد الشعور بوضاعتها.

وهيهات لمثل هذا اكتمال أو نجاة.

والعلم النظري لا يرفع قدر أصحابه، فأي قيمة لشخص يختزن في رأسه قدرًا من المعلومات ولكن نفسه طافحة بآثام لم تعالج، وخشونة لم تهذب، ثم هو - مع ما يختزن من معرفة - لا يدري أنه عليل.

مثل هؤلاء يكون علمهم آفة يقوي جهالاتهم ولا يزيلها، ويغرهم بما أوتوا بدلًا من أن يزيل من أنفسهم ما يسوءها.

وأفضل من هؤلاء رجل قليل المعرفة وعميق الإخلاص، كثير التفتيش عن عيوبه، مجتهد في تزكية نفسه، وترقية أحواله، إن هذا أرجى عاقبة وأرقى عاجلة من العلماء الكبار إذا رضوا عن أنفسهم، وغفلوا عن إصلاحها ...

ويقول صاحب الحكم:

«لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى، يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: 42]. وانظر إلى قوله ﷺ: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها**

---

(40) والصحيح - كما يدل عليه السياق - أنها على لسان امرأة العزيز، لا على لسان يوسف، وإن كان ما ذكره الشيخ هو الأشهر عند المفسرين وغيرهم.

فهجرته إلى ما هاجر إليـه»[41]. فافهم قوله عليه الصلاة والسـلام، وتأمـل في هـذا الأمر إن كنت ذا فهم».

ويشرحها شيخنا بقوله:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ 47 وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ 48 وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ 49 فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ 50 وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: 47 – 51].

هذه آيات خمس، الثلاثة الأولى منها وصفت الأكوان، علوها وسفلها وما انبث فيها من حياة وأحياء، والاثنتان الأخريان انتقلتا من الأكوان إلى المكـون فتحـدثتا عن وجوده ثم توحيده.

ولفت الناس هنا إلى الله، جاء بصيغة عجيبـة: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ . . .﴾، وهـذا الفرار إنما يكون مما يحذر ويخاف.

والحق أن الانحصار في الكون والاحتباس بين مظاهره فواحش عقلية ونفسية، لا يرضاها لنفسه أريب.

إن من له أدنى مسكة يعـرف – مـن العـالمين – رب العـالمين، ويعـرف – مـن الأكوان – صاحب هذه الأكوان!!

إن هذا الملكوت الضخم الفخم من بدائع ذراته إلى روائع مجراتـه، شـاهد غـير مكذوب على أن له خالقًا أكبر وأجل ...

---

(41) رواه البخاري.

وإنها لجهالة أن يغمط هذا الإله العظيم حقه، وإنها لنذالة أن يوجد بشر ينكره ويَسفَه عليه.

ولكن: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ [النحل: 4].

والعاقل ينظر في الكون فيتعلم منه تسبيح الله وتحميده، ويستنتج من قوانين الحياة وأحوال الأحياء ما يستحقه المولى الأعلى من أسماء حسنى، وصفات عظمى ...

والناس صنفان: صنف يعرف المادة وحدها ويجهل ما وراءها، ولا نتحدث الآن مع هؤلاء ...

وصنف مؤمن بالله مصدق بلقائه، ولكنه هائم في بيداء الحياة، ذاهل وراء مطالب العيش، مستغرق المشاعر بين شتى المظاهر، فهو لا يكاد يتصل بسر الوجود، أو يتمحض لرب العالمين.

ومع هذا الصنف المؤمن نقف لنرسل الحديث ...

هناك قوم لا تخلص لله معاملاتهم، بل هي مشوبة بحظوظ النفس ورغبات العاجلة، وهؤلاء لن يتجاوزوا أماكنهم ما بقيت نياتهم مدخولة، حتى إذا شرعت أفئدتهم تصفو بدءوا المسير إلى الأمام.

وهناك قوم يعاملون الله وهم مشغولون بأجره عن وجهه، أو بمطالبهم منه عن الذي ينبغي له منهم، وهؤلاء ينتقلون عن أنفسهم من طريق ليعودوا إليها عن طريق أخرى!

إنهم مقيدون بسلاسل مثبتة مع أنانيتهم، فهم يسيرون ولكن حولها، لو

حسنت معرفتهم لله ما حجبتهم عنه رغبات مادية ولا معنوية، بل لطغى عليهم الشعور به، وبما يجب له، وتخطوا كل شيء دونه، فلم يهدءوا إلا في ساحته، ولم يطمئنوا إلا لما يرضيه هو جل شأنه، على حد قول أبي فراس:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب(42)

وابن عطاء الله يرى أن العامة يترددون بين مآربهم، كحركة بندول الساعة، لا تتجاوز موضعها على طول السعي، أو هم -على حد تعبيره- كحمار الرحى: ينتقل من كون إلى كون، والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه.

والواجب على المؤمن أن يقصد وجه الله قصدًا، وأن يتفصى تفصيًا عن ألوف الأربطة التي تشده إلى الدنيا، وتخلد به إلى الأرض!!». اهـ.

رجل صادق الربانية:

إن الغزالي لا يعد من المتصوفة، ولكني أشهد أن الرجل أقرب إلى الله من كثير من الذين يزعمون لأنفسهم أنهم أصحاب الأحوال والمقامات! إنها تقوى القلوب، وليست دعوى الألسنة، ولا بريق المظاهر، ولا حمل الألقاب.

إنه يتحدث عن الله تعالى حديث المحب الواله لا حديث الناسك المحترف. ويتكلم عن الله الواحد، كأنه يراه بين يديه بجلاله وجماله وكماله!

---

(42) هذا البيت ليس لأبي فراس، وإنما هو للمتنبي في مدح كافور، ولفظه في ديوانه:
إذا صح منك الود فالمال هين وكل الذي فوق التراب تراب!

ومن قريب رأيته – وقد غلبته الدموع – يتحدث عن كلمة التوحيد: عن «لا إله إلا اللَّه» ويقول: إني أحب هذه الكلمة وأود لو أقبّلها، أبثها حبي وشوقي وولهي! وحديثه عن أحباب اللَّه وأصفيائه حديث عامر فياض.

كثيرًا ما سمعته يردد أبيات ابن الرومي – بتأثر ووجد – في وصف قُوَّام الليل، وقد سجلها في بعض كتبه:

تتجافى جنوبهم   عن وطئ المضاجع
كلهم بين خائف   مستجير وطامع
تركوا لذة الكَرَى   للعيون الهواجع
ورَعَوْا أنجم الدُّجى   طالعًا بعد طالع
لو تراهم إذا هُمُ   خطروا بالأصابع
وإذا هم تأوَّهوا   عند مَرّ القوارع
وإذا باشروا الثرى   بالخدود الضوارع
واستهلت عيونُهم   فائضات المدامع
ودعَوْا: يا مليكنا   يا جميل الصنائع
اعف عنا ذنوبنا   للوجوه الخواشع
اعف عنا ذنوبنا   للعيون الدوامع
أنت – إن لم يكن لنا   شافعٌ – خيرُ شافع
فأُجيبوا إجابة   لم تقع في المسامع
ليس ما تصنعونه   أوليائي بضائع
تاجروني بطاعتي   تربحوا في البضائع

وابذلوا لي نفوسكم إنها في ودائعي[43]

ولا ريب أنك إذا اقتربت من الغزالي وعايشته، وجدت ملء إهابه رجلًا عميق الربانية، دافق الروحانية، عامر القلب بخشية الله تعالى، غزير الدموع إذا تذكر الآخرة، دائم التلاوة لكتاب الله ﷻ، عميق الحب لله سبحانه، عميق الحب لرسوله ﷺ، كما يتبين ذلك من كتبه عامة، ومن كتابه: «فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء» خاصة.

وما أكثر الوقفات التي تجدها في كتبه منثورة هنا وهناك، تدل على تلك النفس الشفافة كأنها البلور، والروح الصافية صفاء ماء المزن.

اقرأ هذه الفقرة من كتاب له:

قلت يومًا لرجل تعود السُّكر: ألا تتوب إلى الله؟ فنظر إليَّ بانكسار، ودمعت عيناه، وقال: ادع الله لي!!

تأملت في حال الرجل، ورق له قلبي، إن بكاءه شعور بمدى تفريطه في جنب الله، وحزنه على مخالفته، ورغبته في الاصطلاح معه.

إنه مؤمن يقينًا، ولكنه مبتلى! وهو ينشد العافية ويستعين بي على تقريبها.

قلت لنفسي: قد تكون حالي مثل حال هذا الرجل أو أسوأ. صحيح أنني لم أذق الخمر قط، فإن البيئة التي عشت فيها لا تعرفها، لكني ربما تعاطيت من خمر الغفلة ما جعلني أذهل عن ربي كثيرًا، وأنسى حقوقه.

إنه يبكي لتقصيره، وأنا وأمثالي لا نبكي على تقصيرنا، قد نكون بأنفسنا

---

(43) من شعر ابن الرومي – «ديوان ابن الرومي» (4/ 1482، 1483)، طبعة دار الكتب المصرية.

مخدوعين!

وأقبلت على الرجل الذي يطلب مني الدعاء ليترك الخمر، قلت له: تعال ندع لأنفسنا معًا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

الاعتراف بالفضل لإخوانه:

ومن فضائل الغزالي ودلائل إخلاصه: اعترافه بالفضل لإخوانه، والإشادة بمواهبهم ومواقفهم وفضائلهم.

فتراه يثني على الشيخ سيد سابق حَفِظَهُاللهُ ويبرز مكانته في الفقه، ويحيل عليه، وعلى كتابه: «فقه السنة».

ويقول عن الشيخ عبد المعز عبد الستار حَفِظَهُاللهُ: إنه داعية وخطيب من الطراز الأول.

ويقول عن زكريا الزوكة رَحِمَهُ اللهُ: إن له قلمًا جديرًا أن يجعل له مكانًا بين كتاب الدعوة.

ويقول عن أخيه وزميله الشيخ إسماعيل حمدي: إنه رافعي زمانه.

وكثيرًا ما نوَّه بشخصي الضعيف في المؤتمرات والندوات، وأنا أحد تلاميذه، ويقول: اسألوا يوسف، فهو أولى مني!

وفي الصيف الماضي كنا في ألمانيا، وكنا نتحدث في إحدى القضايا العلمية، وأحال عليَّ الإجابة فيها، فلما فرغت فاجأني بل أخجلني بقوله أمام الملأ كبار الأساتذة: لقد كان يوسف تلميذي فيما مضى، وأما اليوم فأنا تلميذه!

وهذه منزلة لا يرقى إليها إلا الصادقون، وأحسبه منهم، والله حسيبه ولا أزكيه على الله ﷻ.

إن كبير القدر لا يصغره تنويهه بقدر غيره، بل يزيده عظمة، ويرفعه مكانًا عليًّا. أما الصغار فلا يعرفون قدر الكبار، ولو عرفوه لخشوا أن يتحدثوا عنه، فيشعر الناس بصغرهم.

وليس يعرف لي فضلي ولا أدبي   إلا امرؤ كان ذا فضل وذا أدب

إضافة الجانب الرباني إلى علم التوحيد:

وهو يرى أن الثقافة الدينية لا تتم إلا باستكمال هذا الجانب الإيماني في نفس المسلم، من الخشية والرجاء والصبر والشكر والحب، ونحوها، من جملة الأخلاق، التي يكون الإيمان بدونها صفرًا.

وهو لهذا يرى أن تدخل في علم العقيدة، ولا تترك للمؤلفين في التصوف على أنها مراحل للطريق، أو للمتحدثين في الوعظ على أنها من مرققات القلوب، ومكانها الأول – في رأيه – في علم التوحيد، إذ لا دين مع فقدانها.

يتحدث عن حب الله تعالى فيقول: جمهور المسلمين يحسب هذا الحب صفة كمال، أو درجة عليا لبعض العابدين، وهذا غلط شنيع، فإن فقدان هذا الحب فسوق، ويغلب أن ينتهي إلى الكفر البواح[44]. ويستدل بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: 165].

---

(44) من كتاب: «سر تأخر العرب والمسلمين».

هذا هو الغزالي: عقل كبير، وقلب كبير، وهو بعقله وقلبه مـع اللّٰه وفي اللّٰه وللّٰه.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 162].

***

الفصل السادس

الغزالي . . . رجل القرآن

***

الغزالي . . . رجل القرآن

الشيخ الغزالي رجل قرآني، فهو مع القرآن أبدًا، يديم القراءة له، والتأمل فيه والتدبر لآياته.

حفظ الشيخ القرآن حفظًا جيدًا منذ صباه، فقلما تند منه آية أو كلمة، أو تلتبس عليه آية أخرى. وهو يتلوه آناء الليل، وآناء النهار، ويقرأ ما تيسر منه في صلواته – إمامًا أو مأمورًا أو منفردًا – من حيث وقف وِرْده. ولم أره احتاج إلى المصحف الشريف للقراءة أو للمراجعة، إنما مصحفه صدره.

وهو دائم التدبر لكتاب الله، إيمانًا منه بأن ثمرة التلاوة التدبر والتذكر، كما قال الله تعالى في وصف القرآن: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: 29].

وهو لا يتعامل مع القرآن بعقله وحده، بل بعقله وقلبه معًا. وحين كنا نستمع إليه في صلاة التراويح، ونحن في معتقل الطور، كنا نحس أن للرجل حالًا مع القرآن: يستبشر بوعده، ويرتعش من وعيده، ويتجاوب مع قصصه، ويحيا في عبره وأيام الله فيه. فتلاوته ليست تلاوة محترف ولا غافل، بل تلاوة عقل يقظ، وقلب مشرق، ووجدان حي.

وهذه المعايشة الدائمة للقرآن جعلت معانيه ومعارفه بين يديه، وكأنها جنة دانية القطوف، يقطف من ثمارها ما شاء الله.

ومن قرأ كتب الشيخ – منذ المراحل الأولى – وجده يحسن الاستشهاد بآيات القرآن، ويستنبط منها معاني جديدة، يتخذ منها حجة في معركته ضد الظلم

والجهل، والفساد والاستبداد، ساعده على ذلك حسه الأدبي الفياض، وتعبيره البياني النابض بالحياة.

قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت:

انظر إلى تعليق الشيخ على قصى الذين ذكرهم الله في سورة البقرة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ 243 وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ 244 مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً . . .﴾ [البقرة: 243 – 245].

يقول الشيخ تحت عنوان: «هذه الأمم تموت حتمًا»:

الأمة التي تقبل الخنوع وتعطي الدنية من نفسها، لن تحرم من مكان تعيش فيه، فإن سادة العالم لن يرفضوا الاستكثار من الخدم والأتباع. ولا ضير على الواحد منهم، إن سخر مستعمرة واسعة الرقعة، ليعيش ما فيها من حيوان، وما فيها من إنسان، سواسية في العمل له والفناء فيه. بيد أن الشعوب الخادمة لغيرها، ليست إلا شعوبًا ماتت فيها المواهب الإنسانية العليا، وارتكست فيها الملكات الذكية اليقظة، فهي توصف بالحياة، كما يصف السادة بالحياة كلاب الصيد التي تلهث بين أيديهم، أو أبقار الحرث التي تعمل في حقولهم! أما هم من الناحية الإنسانية المحضة فأموات.

وكل أمة تنكل عن حمل أعباء الحياة الحرة الأبية، وتنكص عن الإقدام في ساحات الجهاد والتضحية، وتخشى عواقب المخاطرة والجرأة – فلا بد أن تصدر عليها محكمة التاريخ حكمها بالإعدام.

وهكذا بدأ القرآن يقص أنباء هذه الأمة التي فرّت من تكاليف الحياة فأدركها الموت!:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾

فحقت عليهم كلمة العذاب، وماتوا في الديار التي عجزوا عن الدفاع عنها، كما تموت الآن شعوب كثيرة في المستعمرات، وفي الأمم المستقلة اسمًا، والمرتبطة مع قاهريها بمعاهدات!

فلما أراد الله أن يعلم هذه الأمة كيف تحيا، أشعرها أن دون نيل الحياة الكريمة، بذل النفس والنفيس، ودفع الضرائب المفروضة على الدم والمال فقال لهم: ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ . . .﴾، ثم قال لهم: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾.

وهيهات أن تستطيع الأمم الخوارة، دفع ذلك الثمن الغالي! وكيف تدفعه من نفوس هي بها – في الحق – شحيحة! ومن أموال هي بها – في الخير – ضنينة؟

وبدأ القرآن يفصل حوادث هذه القصة الرائعة. فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 246].

لِمَ تموت الأمم؟

ومن هذه الآية، تعرف مجموعة من أحوال الشعوب المستضعفة: فهي تعرف

المجد والحرية والاستقلال، ولكن هتافًا يزحم الجو، وأكفًّا يعييها التصفيق. فإذا جد الجد وكشف الأمر عن ساق، وتلفت الوطن يطلب الحماة الذين يغسلون عنه العار، لم يجد أحدًا من هذه الجموع الحاشدة ... وقد كان زعيم هذه الأمة خبيرًا بشئونها، فلما تجمهروا حوله، وغلبتهم فورة الحماسة فصاحوا: نريد القتال! قال لهم: في تثبت المرتاب، ولهجة الحائر: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾؟ فازدادت هتافاتهم حدة: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾.

فلما حانت الساعة الفاصلة، ودق النفير العام، لم تر ساحة الجهاد إلا علَمًا ينشره النسيم ويطويه، على حفنة من الرجال! هم بقايا الجماهير التي طلبت بالأمس الجهاد، ثم صفرت منهم اليوم ميادينه: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

سمَّاهم القرآن: ظالمين مع أنهم مظلومون، فكيف جازت هذه التسمية؟ إن الظلم نوعان: ظلم الإنسان لنفسه، وظلمه لغيره. وكثيرًا ما يكون النوع الأول، عاملًا ممهدًا لوقوع النوع الثاني، فالذي يقبل الذل والانحناء، يغري الآخرين بالبغي والاعتداء!

وقلما يقع العدوان على ذي أنفة وحمية، فإن الباغي يعرف أن خسائره من وراء ذلك العدوان، أضعاف أرباحه إن كان هناك ربح يجتنى في مثل هذه المعركة. وقلما تتحرك الجيوش للهجوم، إلا على أمة يرجى منها أن تسلّم وتلين، ولذلك كثرت حروب الاستعمار في الشرق وحده، وصدق القائل:

أنصفت مظلومًا فأنصف ظالمًا   في ذلة المظلوم عذر الظالم!

من يرض عـدوانًا عليـه يضـيره   شر من العـادي عليـه الغاشـم!

وسواء كان شرًّا منه أو دونه، فهو ظالم لنفسـه. وسـياق الآيـة هنـا يؤكـد هـذا المعنى، ويحمّل الأمم النائمة – على المظالم – أوزار ما تقاسي وتعاني.

* * *

الدراسات القرآنية للشيخ

وللشيخ في الدراسات القرآنية المحضة جملة كتب.

منها: «نظرات في القرآن»، وهو كتاب قديم يتحدث عن بعض علوم القرآن بأسلوب جديد.

ومنها: «المحاور الخمسة للقرآن الكريم»، وهو من كتبه الأخيرة، التي بيّن فيها المحاور الأساسية التي تدور حولها سور القرآن وآياته، وهي: الله الواحد ... والكون الدال على خالقه ... والقصص القرآني ... والبعث والجزاء ... والتربية والتشريع.

ومنها: «التفسير الموضوعي للقرآن»، وفيه يتحدث عن كل سورة من السور باعتبارها وحدة تدور حول موضوع معين. وهو يحاول أن يرسم «صورة شمسية» لها، وأن يربط أوائل السورة بأواخرها، ويصل بين أطرافها وأوساطها، وأن يتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها. وللشيخ في هذا المقام نظرات جديرة بالتأمل وفي مقدمة تفسيره ذكر أنه تأسى في ذلك بالعلامة الشيخ محمد عبد الله دراز، عندما تناول سورة البقرة – وهي أطول سور القرآن – فجعل منها باقة ملونة نضيدة[45]. وهو أول تفسير موضوعي لسورة كاملة فيما أعتقد.

وقد صدر من هذه الدراسة جزءان، كل جزء يشمل ثلث القرآن، وهو يعمل

---

(45) وذلك في كتابه القيم: «النبأ العظيم». وللإمام الشاطبي في «الموافقات» حديث قريب الشبه عن سورة «المؤمنون».

الآن على الثلث الأخير، ونسأل الله أن يوفقه لإتمامه[46].

وقد ذكر الشيخ أنه استفاد في نظراته في التفسير من الإمام حسن البنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ففي مجلة «الدعوة» غرة ربيع الأول عام (1415هـ) يقول: «حسن البنا أستاذي الأول في ميادين كثيرة، وكنت - وأنا طالب - أستمع إلى محاضراته في القرآن الكريم، وأتأمل معه في النظرات التي كان يرسلها، وكنت أعود إلى بيتي فألخص ما استطعت فهمه من هذه المحاضرات، حتى تجمّع لدي كتاب في هذا الصدد، لكنه للأسف ضاع مني، لكن معانيه بقيت في ذاكرتي، واستفدت من الإمام الشهيد، في طريقة التفسير التي تعتمد على المعاناة الخاصة، والذوق الشخصي، وذلك لطول تدبره في كتاب الله، وشدة ارتباطه به، فقد كانت قدرته خارقة على فتح القلوب لأسرار الوحي ...».

كما ذكر في كتابه: «الغزو الثقافي يمتد في فراغنا» أنه لمح في نظرات الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا في «تفسير المنار» مبادئ النظرة إلى موضوع السورة، وأن لها هدفًا ومحورًا تدور حوله آياتها.

في التفسير الموضوعي:

عني الشيخ الغزالي في تفسيره الأخير بالنظر في كل سورة باعتبارها وحدة متكاملة، يمهد أولها لآخرها، ويتمم آخرها أولها. وهو توجه جديد في التفسير، سمَّاه: «التفسير الموضوعي»، باعتبار موضوعية السورة المفسرة.

ولكن للشيخ عناية قديمة جديدة بالتفسير الموضوعي بالمعنى الآخر، الذي

---

(46) عرفت من الشيخ أخيرًا أنه فرغ منه وسلمه للمطبعة، والحمد لله.

يتبادر إلى الذهن، وهو النظر في الموضوع الواحد، من خلال الآيات المتعلقة به في القرآن، وبيان نظرة الكتاب العزيز إليها على غرار ما فعلناه في كتابنا: «الصبر في القرآن».

وللشيخ في هذا النوع من التفسير جهد مشكور أيضًا، ظهر قديمًا في كتابه: «نظرات في القرآن»، وظهر حديثًا في كتابه: «المحاور الخمسة للقرآن الكريم».

وظهر في بعض كتبه قبسات منه، تدل على عمق صلة الشيخ بالكتاب المجيد، وعلى شمول نظرته لما تضمنه من معان وموضوعات شتى.

أولو الألباب في كتاب الله:

ولا بأس بأن أذكر هنا نموذجًا لهذا اللون من التفسير عند الشيخ حول «أولي الألباب في القرآن». يقول:

أشعر بغضاضة وغضب عندما يفهم الدين على أنه ركون إلى غيبيات غامضة، أو انسياق وراء مشاعر مبهمة، كأن الإيمان فكر قاعد والإلحاد فكر متحرك، أو أن الإنسان المؤمن يستكين للمجهول. أما الآخرون فيستكشفون الأسراء، ويبحثون عن المعرفة.

ربما كان بعض المنسوبين إلى الدين رديء النظر عليل الفطرة، فما ذنب الدين إذ يحمل لهؤلاء أو يحمله هؤلاء؟

لقد رأيت القرآن الكريم يتحدث عن «أولي الألباب»، يعني أصحاب العقول، في ستة عشر موضعًا، نستطيع عند تدبر كل موضع منها أن نعرف المستوى العالي لذوي الإيمان الصحيح، وكيف يتحرك العقل المؤمن في كل اتجاه ليقرر الحق، ويقود إليه.

ونكتفي الآن بسرد هذه الآيات المنوهة بقيام الدين وأحكامه على الرشد والصواب لا على الجزاف والفوضى.

في سورة البقرة ثلاث آيات مختلفة السياق والموضوع، هي:

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179].

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: 197].

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: 269].

وللحكمة مواضعها الحميدة، سواء في تبليغ الدعوة أو في إنفاق المال، أو في أي شأن آخر.

وفي سورة آل عمران آيتان: الأولى: تتحدث عن عصمة الفكر من البحث فيما وراء المادة؛ لأن هذا النوع من البحوث يقوم على التخمين والتوهم ...

والثانية: تطلق العنان للفكر كي يبحث ويستنتج في المادة وأسرارها وقوانينها، وقيام الله عليها، وإحكامه لوجودها.

قال تعالى في الموضع الأول:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّـٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران: 7].

أما الحث على التأمل في الكون فهو في الموضع الثاني من السورة، قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ 190
ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: 190، 191].

ومعرفة الحق لا تكترث بالتقاليد السائدة، ولا تتقيد بالعرف الشائع، إنما بحث حر لا علاقة له بكثرة الأصوات أو قلتها.

والمغالاة بالحق مطلوبة في وجه المنكرين له، أو النافرين منه مهما كثروا، فهم كما قيل:

إن شئت أن يسود ظنك كله   فأَجِلهُ في هذا السواد الأعظم!

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 100].

ولمعرفة التاريخ العام أثر عميق في صوغ العقل ونفعه بتجارب لا حصر لها، فإن حاضر الإنسانية امتداد لماضيها البعيد، ومهاد لمستقبلها المرتقب، وعلى المؤمنين أن يلتمسوا العبرة مما مضى؛ ليصونوا يومهم وغدهم، وهل للتاريخ ثمرة إلا هذا؟ قال تعالى في سورة يوسف:

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يوسف: 111].

وهذه الآية ختام لفصل متكامل من التاريخ البشري الحافل، وهو ختام صريح في أن القصص القرآني واقع لا خيال، وأخبارٌ صادق لا تأليف مفتعل كما يشيع بعض المبشرين التائهين.

في سورة الرعد حديث مفصل عن الخلال النبيلة التي يستجمعها أولو الألباب، وتضبط مسالكهم كلها، والذي يثير الانتباه هنا هو ارتباط الفضائل الإنسانية بالبصر العقلي! وبراءة المؤمنين من التخبط الذي يقع فيه العميان وكل من ضل الطريق!

قال تعالى في الموضع التاسع من ذكر أولي الألباب:

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ 19 ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: 19، 20].

وفي سورة إبراهيم نجد وصفًا للصراع بين الحق والباطل، والآثار القريبة والبعيدة لهذا الصراع، سواء في دنيا الناس أو في اللقاء الأخير مع رب العالمين.

وقد ختمت السورة بهذه الآية: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: 52].

واستمر الشيخ يتكلم عن بقية المواضع التي ذكر بها ﴿أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ بهذا النفس، وبهذا البيان ...

نظرة في ترتيب سور القرآن:

وللشيخ الغزالي نظرات وتأملات عميقة حول القرآن ينفرد بها، مثل هذه النظرة في ترتيب السور، التي سجلها في كتابه: «علل وأدوية».

كتب الشيخ يقول:

«أحيانًا أشعر - وأنا أتلو القرآن - ببعد المسافة الزمنية بين سورة وسورة، أو آية وآية، وأتساءل: هل إشعار القارئ بهذه المسافة البعيدة مقصود في سوق الآيات

وترتيب السور؟

ولأضرب مثلًا لما أعني: في الجزء الأخير من المصحف الشريف تعقب سورة «النصر» سورة «الكافرين»، وسورة «النصر» من آخر ما نزل بالمدينة المنورة، وسورة «الكافرين» من أول ما نزل بمكة المكرمة، أي أن بين السورتين أكثر من عشرين سنة، يطويها القارئ في لحظات سريعة، وهو ينتهي من هذه ويبدأ في تلك.

السورة الأولى نزلت في غربة الدين وعناء الدعاة وعناد الكافرين. نزلت لترسي دعائم التوحيد العملي، وتمهد له الطريق مهما فدح الثمن وازدادت العوائق.

والسورة الثانية نزلت وبشائر النصر تلوح في كل أفق، والقبائل التي نفرت من التوحيد أول أمرها أخذت تثوب إليه وتقبل عليه، وصاحب الرسالة العظيم يستعد للعودة إلى ربه بمزيد من التسبيح والاستغفار بعدما قضى العمر في جهاد يضني الأبطال ويوهي الجبال.

كلتا السورتين تقابل الأخرى كأن الأولى تصور البذر، والأخرى تصور الحصاد! وأتساءل مرة أخرى: هل هذا الشعور مقصود في ترتيب السور؟

ويعود السؤال على نحو آخر عندما نتدبر سورة «ق» المكية بعد سورة «الحجرات» المدنية. إن السورة المدينة تبرز طائفة من الآداب المطلوبة في مجتمع مستقر، له قيادة يجب توقيرها وإحسان التلقي عنها، مجتمع له مشكلات يجب التلطف في حلها؛ كي تبقي الأمة موحدة الصفوف واضحة الهدف ... أما السورة المكية فإن الكلام فيها طال عن البعث والجزاء، وعن قمع الطبائع المتمردة بأهوال النار وشدة الحساب، أو استهواء النفوس النائية بالخيرات الحسان والمغفرة الشاملة.

وبين السورتين قرب معنوي وإن فصل بينهما مكان وزمان. فإن الأخلاق الزكية والسير الطاهرة إنما تنبجس من قلب مؤمن، يعرف الله ويتهيأ للقائه ويرجو وعده ويخشى وعيده.

إن الإيمان بالله واليوم الآخر هو العدو الأول للإباحية والفوضى والعنصر الأول للتسامي والأدب! وكأن مجيء سورة «ق» بعد سورة «الحجرات» تذكير بمصدر الطاقة الروحية وراء كل تربية ناجحة واتجاه سليم»[47].

حاجة المسلمين إلى القرآن:

لقد ألح الشيخ على بيان حاجة المسلمين الماسة إلى القرآن: «حاجتهم أفرادًا، وحاجتهم أمة، ليعرفوا في ضوء آياته الفلسفة العامة للدين وللحياة، ويؤسسوا نظرتهم الصحيحة إلى الإنسان والكون، وإلى ربهما وخالقهما. وهذه الحاجة تشمل كل مسلم بخلاف السنن والأحاديث.

فقد يحتاج الصيادون إلى كل ما ورد في الصيد من سنن، وقد يحتاج المغسلون اللحادون إلى كل ما ورد في الأكفان والأغسال من سنن.

أما الصورة العامة للإسلام ورسالته العظمى، فلها شأن آخر ينبغي أن يعرفه عارضو الإسلام في هذا العصر الموّار بشتى الفلسفات والنزعات.

وعلاقة المسلمين بقرآنهم هي أسمى العلاقات وأرسخها، ولذلك يجب أن ندع نفوسنا للقرآن الكريم يشكلها بتوجيهاته وهداياته، ويضبط اهتمامها بشعب الإيمان، فلا يطغى فرع على أصل، ولا يموت فرع بإزاء أصل.

---

(47) «علل وأدوية» (ص: 251، 252).

إن الموظف في ديوان المحاسبة قد يحيا في عالم من الأرقام، ولكن هل العالم كله أرقام؟ إن الإسلام دين تحدث في شئون الحياة كلها، بيد أن القرآن الكريم هو الكتاب الذي أعطى الخطة العامة والملامح الرئيسية، ومجموعة الظلال والأضواء التي تكشفها»[48].

ضرورة العناية بالقرآن الكريم:

وفي مقام آخر يؤكد الشيخ ضرورة العناية بكتاب الله، وتقديمه على ما سواه. يقول:

«الذي أراني مضطرًّا إلى التنبيه إليه هو ضرورة العناية القصوى بالقرآن نفسه، فإن ناسًا أدمنوا النظر في كتب الحديث واتخذوا القرآن مهجورًا، فنمت أفكارهم معوجة، وطالت حيث يجب أن تقصر، وقصرت حيث يجب أن تطول، وتحمسوا حيث لا مكان للحماسة، وبردوا حيث تجب الثورة! نعم: من هؤلاء من ظن الأفغانيين من أتباع أبي حنيفة لا يقلون شرًّا عن الشيوعيين أتباع «كارل ماركس»، لماذا؟ لأنهم وراء إمامهم لا يقرءون فاتحة الكتاب (!). والذهول عن المعاني الأولية والثانوية التي نضج بها الوحي المبارك لا يتم معه فقه ولا يصح دين ... ذكر أبو داود حديثًا واهيًا جاء فيه: عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تركب البحر إلا حاجًّا أو معتمرًا أو غازيًا في سبيل الله تعالى؛ فإن تحت البحر نارًا وتحت النار بحرًا**». هذا الحديث الضعيف المردود خدع به الإمام الخطابي، وعلل النهي عن ركوب البحر بأن الآفة تسرع إلى راكبه ولا يؤمن هلاكه في غالب الأمر ...!! والكلام كله باطل، فقد قال المحققون: لا بأس بالتجارة في

---

(48) انظر: «علل وأدوية» (ص: 253).

البحر، وما ذكره الله تعالى في القرآن إلا بحق. قال ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 14].

إن الغفلة عن القرآن الكريم والقصور في إدراك معانيه القريبة أو الدقيقة عاهة نفسية وعقلية لا يداويها إدمان القراءة في كتب السنة، فإن السنة تجيء بعد القرآن، وحسن فقهها يجيء من حسن الفقه في الكتاب نفسه. وقد ذكر ابن كثير أن الإمام الشافعي قال: «كل ما حكم به الرسول ﷺ فهو مما فهمه من القرآن»، فكيف يفقه الفرع من جهل الأصل؟

إن الوعي بمعاني القرآن وأهدافه يعطي الإطار العام للرسالة الإسلامية، ويبين الأهم فالمهم من التعاليم الواردة، ويعين على تثبيت السنن في مواضعها الصحيحة.

والإنسان الموصول بالقرآن دقيق النظر إلى الكون، خبير بازدهار الحضارات وانهيارها، نيّر الذهب بالأسماء الحسنى والصفات العلى، حاضر الحس بمشاهد القيامة وما وراءها، مشدود إلى أركان الأخلاق والسلوك ومعاقد الإيمان، وذلك كله وفق نسب لا يطغى بعضها على بعض، وعندما يضم إلى ذلك السنن الصحاح مفسرة للقرآن ومتممة لهداياته فقد أوتي رشده»(49).

قرآن واحد:

ويؤمن شيخنا الغزالي بأن الله قد حفظ هذا القرآن فنقلته الأمة نقلًا متواترًا بلفظه ومعناه، وتوارثته الأجيال، محفوظًا في الصدور، متلوًّا بالألسنة، مكتوبًا في المصاحف، وأنه لا يوجد عند المسلمين جميعًا إلا قرآن واحد، يتعبدون بتلاوته،

---

(49) «هموم داعية» (ص: 52 – 54)، طبعة إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر.

ويرجعون إليه؛ ليأخذوا منه الهدى والنور، ويعرفون منه حكم الله تعالى في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والآداب.

يقول الشيخ حفظه الله ورعاه:

«لا يعرف التاريخ إلا قرآنًا واحدًا منشور النسخ بين جماهير المسلمين من ليلة القدر الأولى إلى يوم الناس هذا، ولم يحدث خلاف على هذه الحقيقة خلال أربعة عشر قرنًا مضت، فكتاب المسلمين واحد. وقد حاول بعض المستشرقين الصغار أن يختلق ريبة حول ذلك، فزعم أن عند الشيعة مصحفًا آخر، وهو زعم ساقط كان أقل من أن نثبته هنا. ولكنا ترخصنا في ذكره ليعلم من يجهل: أن القرآن الذي يحفظه جميع المسلمين ويحتفظون بنسخه في بيوتهم واحد.

ولم يؤثر عن شيعي أو سني أو خارجي أو صوفي: أن لديه قرآنًا آخر غير هذا الكتاب الفذ. إن المصحف يطبع في القاهرة فيقتنيه مسلمو إيران والهند من الشيعة دون أي تردد، عالمين بأن هذا هو الوحي الذي نزل على نبيهم.

وظاهر أن الأقدار ضاعفت أسباب الصيانة لهذا الكتاب، حتى انفرد بهذه المكانة التي لم يظفر بها كتاب سماوي آخر.

ومع كثافة الأسانيد المتواترة التي دفعت بهذا الكتاب إلينا، فإن هناك نظرًا آخر جديرًا بالاحترام كله. إن حديث القرآن عن الله ولقائه ومطالبه من عباده يعلو كثيرًا جدًّا عن نظيره في الكتب الأخرى.

فتالي القرآن يشعر بأن الله واحد واسع، عظيم، أعلى، جدير بالحمد كله، والمجد كله، يستحيل أن ينسب إليه نقص، أو يكون فوق كمال كمال.

وتالي العهد القديم يشعر بأن الله يذكر وينسى، ويخطئ ويصيب، ويفعل

ويندم، ويأكل مع الناس، ويلاكمهم أحيانًا ...!

وتـالي العهـد الجديـد يشـعر بـأن الله تجسـد وقتـل في سـياق غـامض حافـل بالمتناقضات.

وفي التوراة - كما سجلها العهد القديم - لا توجد كلمة عن لقاء الله، ولا يوجد ذكر ليوم القيامة. الحـديث كلـه عـن الشـعب المختـار، وحقوقـه في هـذه الـدنيا وواجباته تجاه رب إسرائيل! فأي تدين هذا؟!

والحديث عن يوم القيامة في العهد الجديد إما أن يؤخـذ عـن طريـق الـرؤى في المنام، أو الإشارات الروحية ليوم الدينونة ...

والبون بعيد بين هذا الأسلوب الخافت وبين الهدير الذي يسمع دويه في الوعـد والوعيد، ومشاهد القيامة، وصور الحساب، والثواب والعقاب، كـما تكـاثرت في سور القرآن.

والجانب الإنساني الحر ظاهر في القرآن الكريم، فأنت وحدك صانع مستقبلك، ومصور ملامحك. إن أحسنت لم يستطع أحد أن يعترض طريقـك إلى الجنـة، وإن أسأت لم يستطع أحد أن ينقذك من النار: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46]، فلا وسطاء ولا شفعاء ولا قرابين على نحو ما تصور الوثنية أو على نحو ما تصور الأديان السماوية التي انحرفت.

والقرآن - بهذا الواقع المشرق - جدير بأن يكون الصـوت الفـذ المنبعـث مـن السماء. فلو لم تدعمه أسانيد التواتر الغنية السخية لقال العقل: ما يصح عـن الله إلا هذا.

ومن هنا فنحن نوقن بأن القارات الخمس لا تحوي سجلًا للوحي الأعلى إلا في

هذا الكتاب العزيز ...»[50].

* * *

الفصل السابع

الغزالي . . . والسنة النبوية

* * *

(50) «دستور الوحدة الثقافية» (ص: 26، 27).

الغزالي . . . والسنة النبوية

القرآن الكريم هو المصدر الأول لفكر الشيخ الغـزالي الـدعوي والإصـلاحي، والسنة هي المصدر الثاني. فهو يَعُـدّ السـنة ضرورة لفهـم القـرآن، فهـي الشرـح النظري، والتطبيق العملي له. وهو يحتفل احتفالًا خاصًا بالسيرة، بحسبانها الجانب العملي من السنة، حيث جعل الله نبيـه «الأسـوة الحسـنة». وهـي تمثـل الإسـلام مجسدًا، والقرآن حيًّا، في مواقف ووقائع، تراها الأعين، وتلمسها الأيدي، ويـتعظ بها الخاص والعام. وفي هذا صنف كتابه القيم: «فقه السيرة».

ولهذا وجدنا في كتبه حشدًا كبيرًا من الأحاديث الشرـيفة، يسـوقها مـع آيـات القرآن العزيز لتكون نورًا على نور، فيبيّن بها حقائق الإسلام، ويرد بها على أباطيـل خصومه، ويصور بها عدله ورحمته، ووقوفه مع الضعيف حتى يقوى، ومع المظلوم حتى ينتصر، ومع الجاهل حتى يتعلم، ومع الجائع حتى يطعم، ومع الخائف حتى يأمن، ومع المستعبد حتى يتحرر.

صحيح أنه لم يعن بتخريج الحديث، وتمييز الصحيح مـن الضـعيف، مكتفيًـا بعزوه إلى من أخرجه حينًا، أو غير معزو حينًا، جريًا على ما اعتاده كثير من المؤلفين في الأعصر الأخيرة، من ذكر الأحاديث معلقة غير مسندة، بل هو مـا مضىـ عليـه المصنفون في الفقه وغيره قديمًا، وهو ما جعـل كثـيرًا مـن أئمـة الحـديث يعنـون بتخريج الكتب المشهورة في الفقه وغيره، كما فعل الزيلعي في «نصب الراية»، وابن حجر في «التلخيص»، والعراقي في تخريج أحاديث «الإحياء» وغيرهم. وهو حـين يذكر الضعيف إنما يستأنس به فيما ثبت بالقرآن وصحيح السنة ولا يتخـذه حجـة وحده.

ومن تأمل في كتابه: «فقه السيرة» ووقفاته العميقة مع الأحداث النبوية طوال مراحل حياته ﷺ من الميلاد إلى بعثته، ثم مرحلة الدعوة والمصابرة، ومرحلة الجهاد والمواجهة، أو مرحلة بناء الفرد في مكة، ومرحلة بناء المجتمع في المدينة – وجد فيه عقل الباحث المدقق، يتعانق مع قلب المؤمن المحب، وروح الداعية المحلق، الذي يحيا في السيرة بل تحيا فيه السيرة.

ويتجلى ذلك مرة أخرى في كتابه: «فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء»، الذي يلمس فيه كل من قرأه روح العاشق المتوله، أكثر من فكر العالم الباحث.

يقول الغزالي في مقدمة كتابه ذاك:

«شغفت بسير العباد الصالحين، وحاولت أن أقبس منها شعاعًا أستضيء به، كنت بقلبي مع موسى في مدين، وهو يحس لذع الوحشة والحاجة ويقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: 24].

وكنت مع عيسى وهو يواجه مساءلة دقيقة، ويدفع عن نفسه دعوى الألوهية: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: 117].

كنت مع إبراهيم وهو بوادي مكة المجدب يسلم ابنه للقدر المرهوب، ويسأل الله الأنيس لأهله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37].

غير أني انبهرت وتاهت مني نفسي، وأنا بين يدي خاتم النبيين محمد بن عبد

اللّٰه، وهو يدعو ويدعو.

لقد شعرت بأني أمام فن في الدعاء ذاهب في الطول والعرض، لم يؤثر مثله عن المصطفين الأخيار، على امتداد الأدهار.

ولست في مقام مفاضلة بين أحد من النبيين، إنها حقيقة علمية رأيت إثباتها في صفحات قلائل، مشفوعة بالدلائل التي تزدحم حولها.

وقد نقول: أعلى جبل في الأرض جبل كذا في الهند! وما نقصد النيل من الجبال الأخرى، إنه ذكر حقيقة. قد نقول: إن الشمس أكبر من القمر سبعين ألف ألف مرة، ليكن، ذاك تقرير حقيقة. وفي هذا الكتاب سياحة محدودة في جانب شريف من جوانب السيرة، جانب الذكر والدعاء.

ما فيه من توفيق هو محض الفضل الأعلى، وما قد أخطئ فيه هو رشح نفسي- الأمارة بالسوء. ورجائي أن يقبل ربي هذه الكلمات في ميزان الحسنات. كما أرجوه – تبارك اسمه – أن يقبل صلواتي على النبي العربي محمد، وأن يسعدنا جميعًا بشفاعته».

زوبعة كتاب السنة بين الفقه والحديث:

أما كتابه الأخير: «السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث» الذي هاج عليه خصومات الكثيرين، واستثار أقلامًا عدة، لترد عليه بقسوة وحِدّة، فمنطلقه فيه الدفاع عن السنة أمام فريق «العقلانيين». ولو أدى ذلك إلى رد بعض الأحاديث الثابتة في الصحاح إذا ناقضت منطق العقل، أو منطق العلم، أو منطق الدين نفسه، حسبما يراه.

والمبدأ مقرر لدى علماء الحديث أنفسهم، ولكن الخلاف في التطبيق. وربما

أسرف الشيخ في رد بعض الأحاديث الثابتة، وكان يمكن تأويلها وحملها على معنى مقبول، وربما قسا كذلك على بعض الفئات، ووصفهم ببعض العبارات الخشنة والمثيرة. وربما استعجل الحكم في بعض مسائل كانت تحتاج إلى بحث أدق، وإلى تحقيق أوفى.

ولكن الكتاب ليس كما تصوره الحملة عليه، كأنه كتاب ضد السنة، ولا كما تصور مؤلفه وكأنه ينكر السنة. فهذا ظلم بيّن للشيخ: الذي طالما دافع عن حجية السنة المشرفة، وهاجم خصومها بعنف.

وإنكار حديث أو حديثين أو ثلاثة، وإن ثبتت في الصحاح، لا يعني بحال إنكار السنة بوصفها أصلًا ثانيًا، ومصدرًا تاليًا للقرآن. ولو صح ذلك لأخرجنا أئمة كبارًا مثل أبي حنيفة ومالك من زمرة أهل السنة، لردهما أحاديث صحاحًا في العبادات أو المعاملات لم تثبت عندهما. بل لو صح ذلك لاتهمنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ لأنها ردت على بعض الصحابة أحاديث رووها وسمعوها بآذانهم من النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنها – في رأيها – مخالفة لما جاء به القرآن. فاتهمتهم بأنهم لم يحسنوا أن يسمعوا، أو يحسنوا أن يحفظوا.

وقد نخالف الصديقة بنت الصديق في فهمها وفي موقفها من تلك الأحاديث، كما نخالف مالكًا وأبا حنيفة في موقفهما كذلك. وقد نرد بالحجة على ما ذهبوا إليه، ونبين تهافته ووهن أساسه. ولكن مسلمًا ذا مسكة من عقل ودين، لا يستطيع أن يتهم عائشة، ولا أن يتهم أبا حنيفة أو مالكًا بأنه ضد السنة أو مارق من الدين.

وهذا هو موقفنا من الغزالي، قد نخالفه في بعض آرائه في الكتاب، ما قلّ منها أو كثر، وقد نخطئه فيها، فليس هو بمعصوم، ولكننا لا نتهمه في دينه، ولا في علمه،

ولا نهيل التراب على تاريخه الحافل، وكفاحه المتواصل، في نصرة الإسلام.

والواقع أن معظم ما تضمنه كتاب الشيخ ليس جديدًا عن فكره، بل هو مثبوت في مختلف كتبه، ضم شتاته في هذا الكتاب، مع بعض أفكار جديدة، وكلمات شديدة، ولهذا أثار ما أثار من ضجيج.

حديث الآحاد وإثبات العقائد:

وإذا تعرضنا لما أخذ على الشيخ في جانب السنة نجده يتلخص في أمرين أساسيين:

أولهما: أنه لا يعتمد أحاديث الآحاد في إثبات العقائد.

وهذا – كما بيناه في بعض كتبنا(51) – مؤسس على أمرين:

1 – أن العقائد لا بد أن تبنى على اليقين لا على الظن.

2 – وأن أحاديث الآحاد – وإن صحت – لا تفيد اليقين، بل لا يفيد اليقين إلا المتواتر.

ونصوص القرآن تؤيد الأمر الأول، فإن اللّه تعالى ذم المشركين بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم: 28].

وأقوال جمهور علماء الأصول – أصول الدين وأصول الفقه – وعلماء الحديث أنفسهم، تؤيد الأمر الثاني، واستثنوا ما احتفت به القرائن، كأن يكون في «الصحيحين»، وتلقته الأمة بالقبول، وسلم من المعارض. ونازع في ذلك بعض

---

(51) انظر كتابنا: «المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة» (ص: 115 – 125)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة.

المحدثين والحنابلة.

وهذا التوجه في التعامل مع أحاديث الآحاد في العقائد هو الشائع لدى المدارس والجامعات الدينية الشهيرة في العالم الإسلامي، التي تتبع منهج الأشاعرة والماتريدية في أصول الدين، مثل: الأزهر والزيتونة والقرويين وديوبند وما تفرع منها.

يقول شيخنا سدد الله خطاه:

«لقد تخرجت في الأزهر من نصف قرن، ومكثت في الدراسة بضع عشرة سنة، لم أعرف خلالها إلا أن حديث الآحاد يفيد الظن العلمي، وأنه دليل على الحكم الشرعي ما لم يكن هناك دليل أقوى منه ...

والقول بأن حديث الآحاد يفيد اليقين - كما يفيد المتواتر - ضرب من المجازفة المرفوضة عقلًا ونقلًا».

وينقل عن صاحب «المنار» قوله: «التفرقة بين ما ثبت بنص القرآن من الأحكام، وما ثبت بروايات الآحاد، واقتبسه الفقهاء: ضرورية. فإن من يجحد ما جاء في القرآن الكريم يحكم بكفره، ومن يجحد غيره ينظر في عذره! فما من إمام مجتهد إلا وقد قال أقوالًا مخالفة لبعض الأحاديث الصحيحة، لأسباب يعذر بها، وتبعه الناس على ذلك ... ولا يعد أحد ذلك عليهم خروجًا من الدين ...»[52].

---

(52) انظر: «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» (ص: 74، 75)، ط. سادسة، دار الشروق.

محققو الحنابلة في صف الغزالي:

وقد وجدت الحنابلة مختلفين في هذه القضية، نظرًا لاختلاف ما روي عن الإمام أحمد بشأنها، وتبين لي أن معظم الأصوليين المحققين في المذهب يميلون إلى أن حديث الآحاد - أو خبر الواحد - لا يفيد اليقين، وبتعبير آخر: لا يقتضي العلم. ذكر ذلك القاضي أبو يعلى في «العدة»، أبو الخطاب في «التمهيد»، وابن قدامة في «الروضة»، وابن تيمية في «المسودة».

يقول العلامة أبو الخطاب:

«خبر الواحد لا يقتضي العلم. قال الإمام أحمد في رواية الأثرم: إذا جاء الحديث عن النبي ﷺ بإسناد صحيح فيه حكم، أو فرض عملت به، ودنت الله تعالى به، ولا أشهد أن النبي ﷺ قال ذلك، فقد نص على أنه لا يقطع به، وبه قال جمهور العلماء[53].

وروى عنه حنبل: أنه قال في أحاديث الرؤية: نعلم أنها حق نقطع على العلم بها[54]، وبه قال جماعة من أصحابنا، وأصحاب الحديث[55]، وأهل الظاهر[56].

---

(53) انظر: هذا المسألة في «المعتمد» لأبي الحسين البصري (2/ 556)، و«العدة» لأبي يعلى (3/ 898)، و«البرهان» لإمام الحرمين (1/ 559)، و«الإحكام» للآمدي (2/ 32)، و«الروضة» لابن قدامة (ص: 99)، و«فواتح الرحموت» (2/ 121)، و«المسودة» (ص: 240)، و«الإحكام» لابن حزم (1/ 107).

(54) قال محقق «التمهيد»: وقيل: هما روايتان عن الإمام، والراجح أن الثانية محمولة على الأخبار التي كثرت وتلقتها الأمة بالقبول حتى أصبحت من المتواتر المعنوي، أو الأخبار التي نقلها الأئمة المتفق على عدالتهم وثقتهم من طرق متساوية، وتلقتها الأمة بالقبول. وقال أبو يعلى بعدما نقل الرأي الثاني: هذا عندي محمول على وجه صحيح من كلام الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأنه يوجب العلم من طريق الاستدلال لا من جهة الضرورة. انظر: «الروضة» (ص: 99)،

وجه الأول: أن خبر الواحد لو اقتضى العلم لاقتضاه كل خبر واحد، سواء كان الراوي ثقة أو غير ثقة، ألا ترى أن خبر التواتر أوجب العلم، لا فرق بين أن يرويه عدول أو فساق، ولوجب أن يقع العلم بخبر كل من يشهد على إنسان بمال أو كل من يدعي النبوة، ولم يقل هذا أحد، ولأنه لو أوجب خبر الواحد العلم لجاز ذلك أن يعارض التواتر، وينسخ به القرآن، ولا يجوز ذلك، ولأن الواحد منا يسمع خبر الواحد، فلا يوجب له العلم، حتى إن منها ما لا يوجب سماعه غلبة الظن، ولأنه يجوز عليه الكذب والسهو والغلط، فلا يجوز أن يقع به العلم، وعكسه التواتر.

احتج الأولون بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36]، وقوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33]، ثم أمرنا بالعمل بخبر الواحد، فثبت أن ذلك يوجب لنا العلم.

الجواب: أن التعبد بخبر الواحد لا يقتضي القول على الله سبحانه بما لا نعلم؛ لأنه قد قام عندنا الدليل القاطع على وجوب العمل بخبر الواحد، وإذا علمنا به، وقلنا قد تعبدنا بذلك، فقد قلنا على الله ما نعلم، وقفينا ما لنا به علم، ولأن العمل لا يقف على العلم، وإنما يوجب بغلبة الظن، كما يجب على الحاكم أن يحكم بالشاهدين، والعامي أن يعمل بقول المفتي، وكما يعمل بالقياس(57).

و«البلبل» (ص: 53)، و«العدة» (3/ 898)، وما بعدها.

(55) انظر: نسبة ذلك في «الروضة» (ص: 99)، و«المسودة» (ص: 240).

(56) انظر: رأيهم في «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (1/ 107).

(57) خلاصة هذا الجواب: أنه يراد بالعلم في الآية ما يعم غلبة الظن، بدليل انعقاد الإجماع على وجوب العمل بالأدلة التي تفيد غلبة الظن في الفروع، كخبر الواحد والقياس، وقد جعل بعض الأصوليين كالآمدي الآية: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36] في الأصول

وفي «المسودة» نقرأ هذه المسألة: خبر الواحد يوجب العمل، وغلبة الظن دون القطع، في قول الجمهور، وارتضى الجويني من العبارة أن يقال: لا يفيد «العلم» ولكن يجب العمل عنده، لا به، بل بالأدلة القطعية على وجوب العمل بمقتضاه. ثم قال: هذه مناقشة في اللفظ. ونقل عن أحمد ما يدل على أنه قد يفيد القطع إذا صح. واختاره جماعة من أصحابنا.

قال والد شيخنا: ونصره القاضي في الكفاية، وقال شيخنا «شيخ الإسلام ابن تيمية» وهو الذي ذكره ابن أبي موسى في الإرشاد، وتأول القاضي كلامه على أن القطع قد يحصل استدلالًا بأمور انضمت إليه: من تلقي الأمة له بالقبول، أو دعوى المخبر عن النبي ﷺ أنه سمعه منه في حضرته فيسكت ولا ينكر عليه، أو دعواه على جماعة حاضري السماع معه فلا ينكرونه، ونحو ذلك، وحصر ذلك بأقسام أربعة هو وأبو الطيب جميعًا، ومن أطلق القول بأنه يفيد العلم فسره بعضهم بأنه العلم الظاهر دون المقطوع به، وسلم القاضي العلم الظاهر.

وقال النظام إبراهيم: خبر الواحد يجوز أن يفيد العلم الضروري إذا قارنته أمارة.

وكذلك قال بعض أهل الحديث: منه ما يوجب العلم كرواية مالك عن نافع عن ابن عمر، وما أشبهه. وأثبت أبو إسحاق الإسفرائيني فيما ذكره الجويني قسمًا بين المتواتر والآحاد سمَّاه «المستفيض»، وزعم أنه يفيد العلم نظرًا، والمتواتر يفيد العلم ضرورة، وأنكر عليه الجويني ذلك. وحكي عن الأستاذ أبي بكر أن الخبر

دون الفروع، لقيام الإجماع على وجوب العمل بغلبة الظن فيها. انظر: «الإحكام» للآمدي: (2/ 35)، وانظر: «التمهيد» (3/ 78 – 80).

الذي تلقته الأمة بالقبول محكوم بصدقة، وأنه في بعض مصنفاته»[58].

وذكر شيخ الإسلام فصلًا يتعلق بمسألة خبر الواحد المقبول في الشرع هل يفيد العلم؟ فإن أحدًا من العقلاء لم يقل: إن خبر كل واحد يفيد العلم، وبحث كثير من الناس إنما هو في رد القول.

قال ابن عبد البر: اختلف أصحابنا وغيرهم في خبر الواحد العدل: هل يوجب العلم والعمل جميعًا أم يوجب العمل دون العلم؟ قال: والذي عليه أكثر أهل الحذق منهم أنه يوجب العمل دون العلم، وهو قول الشافعي وجمهور أهل الفقه والنظر، ولا يوجب العلم عندهم إلا ما شهد به اللّٰه وقطع العذر، لمجيئه مجيئًا لا اختلاف فيه، قال: وقال قوم كثير من أهل الأثر وبعض أهل النظر: إنه يوجب العلم والعمل جميعًا، منهم الحسين الكرابيسي.

قلت: وحكاه الباجي عن داود بن خويز منداد، وهو اختيار ابن حزم.

قال ابن عبد البر: الذي نقول به أنه يوجب العمل دون العلم كشهادة الشاهدين والأربعة سواء، قال: وعلى ذلك أكثر أهل الفقه والنظر والأثر[59].

رد بعض الأحاديث الصحاح:

والأمر الثاني الذي أخذ على الشيخ، وكتب فيه الكاتبون، وردده المرددون، وشنّع به المشنعون، هو رده لبعض الأحاديث الصحيحة من أحاديث الآحاد.

وما رده الشيخ من هذا النوع ردًّا صريحًا ليس بكثير، إنما هي أحاديث قليلة

---

(58) «المسودة» (ص: 240).

(59) انظر: «المسودة» (ص: 244، 245).

محدودة. وهو لم يردها لهوى في نفسه، ولا لوهن في دينه، ولا لتنكر للسنة، ولا لتنقص للوحي، بل حرصًا على الدين نفسه أن يجد العلمانيون واللادينيون فيه ثغرة ينفذون منها للطعن فيه، والتشكيك في قضاياه، وتوهين أصوله. فرده لتلك الأحاديث القليلة إنما هو دفاع عن الدين في مواجهة خصومه وأعدائه الكائدين له والمتربصين به.

وهذه الأحاديث التي ردها الشيخ لا يتوقف عليها أي أمر من أمور الدين. فلو مات المسلم ولقي ربه دون أن يقرأها أو يعرف عنها شيئًا ما نقص من إيمانه ذرة. وذلك، مثل حديث لطم موسى عليه السلام لعين ملك الموت حتى فقأها! وحديث: **«لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم «أي: لم يفسد»، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها»**!! ... إلخ ...

إن العالم لا يضره في دينه رده لبعض الأحاديث التي لم تثبت عنده. فما من إمام من أئمة المسلمين إلا رد أحاديث صحت عند غيره، ولم تصح عنده، والبخاري يشترط لقبول الحديث شروطًا لا يشترطها غيره من أئمة الحديث، حتى تلميذه مسلم في «صحيحه»، والإمام علي بن المديني أشد من البخاري في شروطه.

والأئمة اشترطوا لصحة الحديث: ألا يكون في سنده ولا متنه شذوذ ولا علة تقدح في صحته.

وقالوا: إذا رأيت الحديث يخالف العقول، أو يباين النقول، أو يناقض الأصول، فاعلم أنه غير مقبول.

فالمبدأ مسلم به، والخلاف إنما هو في التطبيق. وربما قبلوا أشياء لم يروها مخالفة للعقول، أو مناقضة للأصول، في عصرهم، ولكنا تبينا من الأمور ما لم يتبين لهم،

وقد انكشف لنا من العلم ما لم ينكشف غطاؤه لهم، فهنا يختلف موقفنا عن موقفهم، لاختلاف المعلومات لا لاختلاف المنهج.

أجل، لم ينكر الشيخ الغزالي دقة الشروط التي وضعها علماء الحديث الكبار، لتمييز الصحيح والحسن والضعيف، بل قال بصريح العبارة: إن أنزل وينزل غيري عندها! فهي شروط جامعة مانعة، لو نظر فيها رجل مادي لارتضاها في ضبط الأخبار وتأصيلها.

وما حدث: أن تساهلًا وقع في تطبيق هذه الشروط.

فإن حديث الثقات إذا ورد مخالفًا لمن هم أوثق وصف بالشذوذ، وإن كان سنده صحيحًا.

كيف تقع هذه المخالفة؟ إن الراوي بشر قد يخطئ الفهم، أو يغلبه النسيان، وهنا تجيء المقابلة بين حديث وحديث، وسند وسند، ومع التحري والاستقصاء يظهر الحق.

وقد تجيء المقابلة بين الدلالات المأخوذة من آية قرآنية، وبين الخبر المروي عن طريق الآحاد. ومن غرائب ذلك أن أبا حنيفة يبيح أن تباشر المرأة عقد زواجها بنفسها ويرد ما روي بالمنع، لأن الله يقول: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 234]، ويقول تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: 230].

فنسب العقد إليها، وهذا الإسناد حقيقي ولا داعي للقول بالمجاز ... إلخ. وأغلب الفقهاء يرفض هذا المذهب لضعف الاستنتاج وإن أيده كثيرون. والذي

نلفت النظر إليه أن أحدًا لا يرد حديثًا بالهوى أو لأنه لم يعجبه[60]، فذلك مسلك كما قلنا أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان.

ونتأمل في مسلك إمام فقيه محدث، هو مالك بن أنس ﵁. يرى مالك أن المدينة المنورة على عهده ورثت علم الصحابة والتابعين، وهم القرون المفضلة في هذه الأمة، وأن ما أجمع عليه أهل المدينة هو الصورة الدقيقة لسنة الرسول ﷺ، فإذا جاء حديث مخالف لما عليه العمل عند أهل المدينة تجهم له مالك، وتوقف في قبوله.

إنه وإن رواه الثقة فقد حالف الثقات، أي أنه وفق مصطلح أهل هذا الفن شاذ، ومن ثم رفض مالك النافلة قبل المغرب، ورفض تحية المسجد والإمام يخطب، مع ورود أحاديث تجيز ذلك، بل تستحبه ... إن موقف مالك من هذه المرويات كموقف عمر بن الخطاب من حديث فاطمة بنت قيس في سكنى ونفقة المطلقة ثلاثًا، فقد رد الحديث - على صحته - قائلًا: لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لحديث امرأة، لا ندري حفظت أو نسيت! إنه لا يرد السنة، وحاش له ذلك. إنه ينكر أن هذا الحديث سنة. قال الشيخ عبد الله كنّون كبير علماء المغرب - وهو مالكي المذهب - :

«نلمح إلى رأينا في تقديم مالك لعمل أهل المدينة على الخبر الصحيح الذي يروى عن طريق الآحاد؛ فإنا نرى أنه ذهاب منه إلى وجوب النظر في متن الحديث، كما ننظر إلى السند. إن متن الحديث إذا وجد له معارض من الأصول والحقائق الثابتة المسلمة، وكان من رواية الآحاد - أي لم يكن متواترًا فيعلم بالضرورة أنه من الدين - فإنه يمكن وضعه موضع البحث، ويتوقف العمل به حتى يبت فيه أهل

---

(60) وهذا ما وضحه ابن تيمية في كتابه القيم: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام».

العلم».

قال: «مما يستأنس به لهذا ما روي عن ابن المعذل أنه قال:

سمعت إنسانًا سأل ابن الماجشون: لم رويتم الحديث ثم تركتموه؟ فقال: ليُعلَم أنّا على علم تركناه» ...

وهذا القول يرد على من زعم أن الإمام مالكًا ترك العمل بالحديث لأنه لم يبلغه، لا، إنه بلغه، ولكنه ثقة برجحان ما عنده يأباه.

إن الآحاد لا ترد الإجماع أو شبه الإجماع، وهو يرى أن ما خالف إجماع أهل المدينة مرفوض.

ويرى أبو حنيفة أن حديث الآحاد يفيد الظن الراجح، فكل دلالة أقوى ترجح عليه كظاهر القرآن، والقياس القطعي[61].

ولقد تعرض ابن تيمية في «المسوَّدة» لقضية من يرد الحديث الصحيح، وهل يكفر به، فقال: «وقد اختلف العلماء في تكفير من يجحد ما ثبت بخبر الواحد العدل، وذكر ابن حامد في أصوله عن أصحابنا في ذلك وجهين، والتكفير منقول عن إسحاق ابن راهويه».

وبعد بحث ومناقشة في المسألة قال شيخ الإسلام:

«ولهذا كان الصواب أن من رد الخبر الصحيح – كما كانت ترده الصحابة – اعتقادًا لغلط الناقل أو كذبه، لاعتقاده الراد أن الدليل قد دل على أن الرسول لا

(61) «علل وأدوية» (ص: 88 – 90).

يقول هذا، فإن هذا لا يكفَّر ولا يفسَّق، وإن لم يكن اعتقاده مطابقًا، فقد رد من الصحابة غير واحد من الأخبار التي هي صحيحة عند أهل الحديث»[62].

فهذا هو قول العلماء الراسخين، فَدَعْك من المتطفلين على العلم، الذين يكفِّرون العلماء بلا دليل، ويقولون على الله ما لا يعلمون.

***

(62) «المسودة» (ص: 245 – 247).

الغزالي مدافعًا عن السنة

وما يؤسف له أن كثيرًا من الناس يجهل الموقف المبدئي للشيخ الغزالي من السنة، وهو موقف الالتزام الكامل بها، والمحاماة عنها، والاشتباك مع خصومها، بقلمه البليغ، وبيانه الدفاق. ولكم شدد النكير في أكثر من كتاب له على الذين يزعمون الاستغناء بالسنة عن القرآن، مسفهًا رأيهم، ومضللًا اتجاههم. كما حمل في الوقت نفسه على الذين يخوضون في السنة، ويتحدثون عنها، دون أن يعايشوا القرآن، ويضربوا في معرفته بسهم وافر.

منزلة السنة من القرآن:

وقد تعرض لذلك مبكرًا في كتابه: «فقه السيرة» مبينًا «منزلة السنة من الكتاب» فقال:

«والقرآن هو قانون الإسلام، والسنة هي تطبيقه، والمسلم مكلف باحترام هذا التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه. وقد أعطى الله نبيه حق الاتباع فيما يأمر به وينهى عنه لأنه - في ذلك - لا يصدر عن نفسه بل عن توجيه ربه، فطاعته هي طاعة لله، وليست خضوعًا أعمى لواحد من الناس، قال الله ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: 80]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: 7].

إن السير في ركاب المرسلين هو الخير كله، ومن ثم كانت سنة محمد عليه الصلاة والسلام مصدرًا لشريعته مع الكتاب الذي شرفه الله به. وجمهور المسلمين على هذا الفهم. إلا أن السنن المأثورة عرض لها ما يوجب اليقظة في تلقيها، فليس

كل ما ينسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام سنة تقبل، ولا كل ما صحت نسبته صح فهمه، أو وضع موضعه ...

والمسلمون لم يؤذَوا من الأحاديث الموضوعة قدر ما أوذُوا من الأحاديث التي أُسيء فهمها واضطربت أوضاعها. حتى جاء أخيرًا من ينظر إلى السنن جمعاء نظرة ريبة واتهام، ويتمنى لو تخلص المسلمون منها ...

وهذا خطأ من ناحيتين:

إهمال الحقيقة التاريخية أولًا، فإن الدنيا لم تعرف بشرًا أحصيت آثاره، ونقدت بحذر، ومُحّصت بدقة، كما حدث ذلك في آثار محمد بن عبد الله، فكيف ترمى بعد ذلك في مطارح الإهمال؟!

والناحية الأخرى: أن في السنة كنوزًا من الحكمة العالية لو نسب بعضها إلى أحد من الناس لكان من عظماء المصلحين، فلماذا تضيع على صاحبها ويحرم الناس خيرها؟

عندما درسنا تراث محمد عليه الصلاة والسلام في «الأخلاق»(63)، وذاكرنا أحاديثه التي تربو على الألوف في شتى الفضائل، خُيل إلينا: لو أن جيشًا من علماء النفس والتربية اجتمع ليسوق للعالم مثل هذا الأدب لعجز، والأخلاق شعبة واحدة من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام الضخمة». انتهى(64).

(63) يقصد بذلك كتابه: «خلق المسلم».

(64) انظر: «فقه السيرة» (ص: 44 - 46).

إضاعة السنة إضاعة للدين كله:

وفي كتابه: «دستور الوحدة الثقافية للمسلمين» يقول:

«تواجه السنة النبوية هجومًا شديدًا في هذه الأيام، وهو هجوم خال من العلم ومن الإنصاف، وقد تألفت بعض جماعات شاذة تدَّعي الاكتفاء بالقرآن وحده.

ولو تم لهذه الجماعات ما تريد لأضاعت القرآن والسنة جميعًا، فإن القضاء على السنة ذريعة للقضاء على الدين كله. إن محاربة السنة لو قامت على أسس علمية لوجب ألا يدرس التاريخ في بلد ما.

لماذا يقبل التاريخ على أنه علم وتهتم كل أمة به، مع أن طرق الإثبات فيه مساوية أو أقل من طرق الإثبات في الحديث النبوي؟

وأمر آخر نحب أن نثيره: لماذا تدرس سير العظماء وكلماتهم وتعرض للتأسي والإعجاب، ويحرم من ذلك الحق رسل الله، وفي صدارتهم سيد أولئك الرسل مروءة وشرفًا، وبيانًا وأدبًا، وجهادًا وإخلاصًا؟

إن الله في كتاب أحصى أسماء ثمانية عشر نبيًّا من الهداة الأوائل، ثم قال للهادي الخاتم: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 90]. فإذا برز للإنسانية إنسان كامل التقت في سيرته شمائل النبوات كلها، وتفجرت الحكمة على لسانه كلمات جوامع، واستطاع - وهو الفرد المستوحش - أن يحشد من القوة ما يقمع كبرياء الجبابرة، ويكسر قيود الشعوب، ويوطئ الأكناف للحق المطارد ... إذا يسر الله للإنسانية هذا الإنسان العابد المجاهد الناصح المربي، جاء غرٌّ يقول: لا نأخذ منه ولا نسمع له، ثم يستطرد مخفيًا غشه: حسبنا كتاب الله! وهل السنة إلا امتداد لسناه، وتفسير لمعناه، وتحقيق

لأهدافه ووصاياه؟»[65].

علاقة السنة بالقرآن:

وأبرز كتاب تناول فيه الغزالي صلة السنة بالقرآن، بتوضيح وتفصيل وتأصيل، هو كتاب: «ليس من الإسلام»، ولا بأس أن أنقل هنا بعض الفقرات منه - وإن طالت - لبيان الموقف الحقيقي للشيخ من السنة، ولننصفه من خصومه، الذين غلا بعضهم، بل فجر في خصومته له، سامحهم الله.

القرآن ثم السنة:

يقول الغزالي تحت هذا العنوان:

«المصدر الأول لتعليم الإسلام هو القرآن الكريم، وهو من المصادر الأخرى بمنزلة الجذع من فروع الشجرة وثمارها.

وفي الحديث: «**فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه**».

وأنت ترى في الأنظمة العامة التي تحكم الجماعات دساتير أصيلة. ثم قوانين إدارية وجنائية وشخصية وتجارية.

ثم لوائح وقرارات ومذكرات تفسيرية ... إلخ.

والمفروض في الدساتير أنها مجمع القواعد الخطيرة في الحكم والتشريع والتنفيذ، وأنها تضم أمهات المسائل التي ينبغي النص عليها ولا تترك للتقديرات المختلفة.

وأن ما عداها يرتكز عليها ويستمد حرمته منها.

---

(65) «دستور الوحدة الثقافية للمسلمين».

ولذلك لا يمكن أن يحتوي على ما يخالفها نصًّا أو روحًا.

فإذا وجد هذا المخالف ألغي من تلقاء نفسه.

كذلك كتاب اللَّه، هو قطب الإسلام، ومنبع شرائعه، والدستور الذي يقتعد الصدارة فيما يضم من توجيه وأدب ووصايا وأحكام.

وقد تضمن أصول الإسلام. ومنه تؤخذ الصور العامة لما يرضاه اللَّه لعباده في شئون حياتهم، ومناحي تفكيرهم، ومعالم سلوكهم. والمسلمون للأسف لا يقدِّرون الكتاب العزيز حق قدره.

ولا يعلقون بصائرهم وأبصارهم بمعانيه وأهدافه كما ينبغي.

ودَعْك من تجويد التلاوة كما يفعل أصحاب الأصوات، ومن التأثر الموقوت الذي تلمح مظاهره على بعض الأجسام، فإن هذا وذاك لا يدلان على شيء ذي بال ...

إن القرآن هو الهداية الأولى للناس، الهداية التي صدرت عن اللَّه مُحصية قواعد الحق وضمانات النجاة. فآيات هذا القرآن تحتوي على معالم الصراط المستقيم مثلما تحتوي آفاق الكون على أسرار العلم وقواه المذخورة للخلق ...

ولو عقل البشر لوقفوا بإزاء كل سورة، بل كل حرف، يستنبئونه اليقين، ويتعرفون منه كيف يوثِّقون صلاتهم برب العالمين ...

إن كلام اللَّه فوق كل كلام.

واستقباله بمشاعر الحفاوة والجد والاستقصاء أمر واجب.

أو هو – في الحقيقة – أعود شيء بالنفع على الناس.

وكلما زاد الارتباط به وثاقة زاد رسوخ القدم على طريق الخير والبر ...

والعجب لأقوام يقدِّمون على كلام الله وأحكامه كلامًا آخر وأحكامًا أخرى.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: 87].

إن مقتضى الإيمان بالله هو إدمان التأمل في كتابه التماسًا للنفع المحقق، واقتطافًا للثمار الطيبة في العاجلة والآجلة معًا.

والمؤمن بالقرآن الكريم يستحيل أن يرجِّح على دلالته دلالة، أو أن يشرك مع توجيهه هديًا. ذلك أن القرآن يعلو ولا يُعلَى عليه، وأنه يحكم على سائر الأدلة الأخرى، ولا يحكم شيء منها عليه.

ويستحيل - بداهة - أن يكون في مصادر التشريع الأخرى ما يعارضه أو يسير في مجرى يغاير اتجاهه. ولو وجد شيء من ذلك، فهو دخيل على دين الله. وطبيعة السنة والقياس والاستصلاح، وما شابه ذلك ... طبيعة الفروع مع الأصل، أو الأعضاء من الرأس.

إن الرسول ﷺ يبلغ عن الله ويوضح مراده، ويكمل الأحكام في الصور الجزئية الكثيرة التي ليس من شأن الدستور العام أن يتعرض لها.

فالقرآن مثلًا عرض للبيع - وهو أشيع المعاملات - فذكر من أحكامه ما لا يتجاوز أصابع اليد عدًّا. أما السنة ففيها بضع مئات من الأحاديث التي تفصِّل وتشعِّب ...

وللسنة - عدا هذا النطاق التشريعي - ميدان أوسع، وينبغي أن نطيل التأمل

فيه.

هبْ هيئة ما طلعت على الناس بمنهاج مبين في كتاب محدود، وأرادت أن تكافح لتعميمه وسياسة المجتمع به، ماذا تفعل؟ إنها قد تصدر صحيفة لتكون لسان حالها، وتكرس فيها جهودًا كبيرة لنشر آرائها واجتذاب الجمهور إليها.

هذا اللسان الناطق باسم الهيئة، والمعبر الرسمي عن وجهة نظرها، له مكانته التي لا ريب فيها.

وما يذيعه بين الحين والحين تؤخذ الهيئة به، ويُعَدّ بيانًا دقيقًا عن موقفها.

ووظيفة الصحيفة الرسمية لهيئة ما، أنها تصور حكمها على الحوادث المتجددة وتنتهز المناسبات الحكيمة لتزكية برامجها، والإشادة بما حوت من إصلاح.

وهي تلون - حسب الأيام والأشخاص - ما تعرضه من مبادئ.

فقد تقول للطلاب كلامًا غير الذي تقوله للعمال، وتحدِّث الأجانب بما لا تحدِّث به المواطنين.

وقد يفهم البعض منهاج الهيئة على أنحاء خاطئة فتفيض هي في شرح المقصود منه، وترد الأوهام عما قامت للدفاع عنه.

وهذا التغيير والتفسير يتبع الأحوال والأقوام وما تقتضيه الملابسات المختلفة من توجيهات مناسبة.

ولا موضع البتة بأن هناك تعارضًا أو تفاوتًا بين منهاج الهيئة وما تنشره صحيفتها الرسمية.

ذلك - على ضرب من التجوز - عمل السنَّة مع الكتاب.

ولقد ظل رسول الله ﷺ يتحدث ثلاثة وعشرين عامًا، ويسوس الأمة بسيرته فيها، بروزه على سواء للأصدقاء والخصوم، وعمله الدائب لهداية الناس لا يخفى منه شيء.

وليس المهم أن نعرف ما حدَّث به وحسب، ولكن المهم أن نعرف كيف ومتى، ومَن حدَّث؟

وإن هذه الظروف تعين إعانة حاسمة، على فقه السنة فقهًا صحيحًا.

أمثلة لقاعدة:

- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رجل: يا رسول الله، أي العمل أحَب إلى الله؟ قال: «**الحال المرتحل**»! قال: وما الحال المرتحل؟ قال: «**الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حَل ارتحل**».

- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**». قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**». قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**».

قال ابن مسعود: حدثني بهن، ولو استزدته لزادني ...

- وعن أبي هريرة أن أبا ذر رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ورسوله**». قيل: ثم ماذا؟ قال: «**جهاد في سبيل الله**». قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**».

- وعن أبي موسى الأشعري: قالوا: يا رسول الله، أي الإسلام أفضل؟ قال: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**».

- وعن عبد الله بن عمر أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «**تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**».

هذه إجابات شتى لسؤال واحد، فما معنى هذا؟

معنى هذا أن حديث رسول الله ﷺ قد يكون متجهًا إلى رعاية أحوال المخاطبين، فيبرز من العبادات والآداب ما يراه أليق بحياتهم، وما يراهم أمس إليه حاجة. ويسكت عن غيره، لا تهوينًا من شأنه، فقد يسكت عن أركان عظيمة القدر في الدين تكفلت ببيانها آيات القرآن أو سُنن أخرى.

والذي يستفاد من هذه الإجابات أنه لا يجوز أخذ حديث ما على أنه الإيمان كله. كما أنه لا تجوز الغفلة عن الملابسات التي سيق فيها الحديث؛ فإنها تلقي ضوءًا كاشفًا على المراد منه.

وكما راعت السُّنن أحوال المخاطبين، قد تراعي الأحوال العامة للجماعة.

فعند كَلَب الكفار وضرواتهم على بلادنا، يكون الجهاد أفضل من الحج.

وعند اشتداد الأزمات وكثرة البائسين، تكون الصدقة أفضل من الصلاة.

وعندما يظهر قصور أمتنا في ميدان الاحتراف والتصنيع، يكون الاشتغال بالكيمياء والحديد أحب إلى الله من حراثة الأرض ورعاية الغنم ...

إن فهم القرآن لا يتم إلا بمعرفة السنة، وفهم السنة لا يصح إلا بمعرفة المناسبات الحكيمة التي سيق من أجلها التوجيه النبوي.

وإذا لم تكن لدينا إحاطة شاملة بالأزمنة والأمكنة والوقائع التي أرسلت فيها هذه الأحاديث، فقد تكون في الإحاطة بجملة السنن عوض يسد هذا النقص.

فإنك أمام كثرة المرويات وتعدد معانيها لا ترى بدًّا من تنسيقها وترتيبها، ووضع كل حديث بإزاء ما يوافقه من أحوال.

ولقد بلغني أن هناك مؤلفات في «أسباب الحديث»(66)، طبعت في الشام على غرار «أسباب النزول» التي امتلأت بها كتب التفسير، ونحن نأسف لبُعد هذه المؤلفات عن متناولنا، فإن إشاعتها ضرورة لخدمة السنة وصد الهاجمين عليها ...

وهذا الذي ذكرناه في فهم السنة وصلتها بالكتاب، لم نأت بجديد فيه ... إنما هو علم الأئمة الأولين، وإدراكهم الصحيح لحقائق هذا الدين».

وظيفة السنة:

«لقد كنت عندما أحب الاستشهاد بالكتاب والسنة في موضوع ما ... ألاحظ هذه الحقيقة، وأجد طائفة كبيرة من الأحاديث تطابق في معانيها وأهدفها ما تضمن القرآن الكريم من معانٍ وأهداف، وأن هذه الأحاديث قد تقرر المعنى نفسه، الذي احتوته الآية، أو تقرر معنى آحر، يدور في فلكه وينتظم معه في اتجاه واحد، وإن بدا للعين المجردة أن الصلة بينهما بعيدة.

فمن القبيل الأول – مثلًا – يقول الرسول ﷺ: **«اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت»**.

فإن هذا المعنى لا يخرج عن قول الله ﷻ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا

---

(66) يقصد: كتاب: «البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف» تأليف ابن حمزة الحسيني الدمشقي. وقد نشرته بعد ذلك دار التراث العربي بالقاهرة، بتحقيق الدكتور الحسيني هاشم، وتقديم شيخ الأزهر الأسبق، الدكتور عبد الحليم محمود رحمهما الله. وقد نشر كتاب في نفس الموضوع للحافظ السيوطي.

مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2].

وسرد الأمثلة التي من هذا النحو يطول.

ومن القبيل الثاني – مثلًا – أن الرسول ﷺ نهى أن يشرب في آنية الذهب والفضة وأن يؤكل فيها، ونهى عن لبس الحرير وأن يُجلَس عليه.

فإن هذا الحكم الذي جاءت به السنة مشتق من تحريم القرآن للترف واعتباره المترفين أعداء كل إصلاح، وخصوم كل نبوة، وعوامل للهدم في كل أمة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: 34].

والنهي عن اتخاذ القبور مساجد – وقد جاءت به السنة – هو في الحقيقة حماية حاسمة للتوحيد الذي ضل عنه النصارى بما اتخذوا من معابد على قديسيهم حتى احتج مشركو مكة بذلك وهم يعارضون الرسول ﷺ: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ [ص: 7].

والسنة التي تكون بهذه المثابة في تقرير غايات القرآن المرسومة أو المفهومة، أو التي تفصل مجمله وتوضح مشكله ... تأخذ قسطًا كبيرًا من عناية المسلمين، ومنزلتها من أدلة الأحكام الشرعية معروفة ...

وهناك سنن أخرى تخصص أحكامًا عامة في القرآن.

ففي قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [النساء: 11] بينت السنة أن الابن القاتل لا حظّ له في ميراث.

وفي قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة: 3]، بينت السنة أن هناك مباحين في كل من هذه المحرمات: «**أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد،**

والكبد والطحال».

وفي قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]، بينت السنة أن ليس كل سارق يُقطع. إذ لا قطع فيما دون النصاب المقرر، ولا قطع على جائع ينشد طعامه، ولا على مغصوب يسترد ما أخذ منه ...

فإذا ثبت القطع، ففي اليمين، وعند الرسغ، كما بينت السنة ...

وقد جاءت السنة بأحكام يسرت بعض العزائم التي أمر الكتاب العزيز بها.

فالقرآن مثلًا يأمر بغسل القدمين ويعد ذلك ركنًا في الوضوء ...

وتنظيف الرجلين أمر لا بد منه في صحة الصلاة.

وقد بيّن رسول الله ﷺ أن الرجل إذا أدخل قدميه طاهرتين في خفيه أو جوربيه، فليس بضروري أن يعيد غسلهما كلما أراد الوضوء، وبحسبه أن يمسح على ظاهرهما – فوق الحذاء أو الجورب – إشارة إلى الركن الذي لحقته الرخصة.

وهذا الذي صنعه الرسول ﷺ وأمر به ليس هوًى جَنح إليه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ 2 وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ [النجم: 2، 3]، إنما هو إرشاد الله له، وهو عمل يتسق مع قاعدة الإسلام الأولى في السماحة والتيسير، وليس فيه أي تناقض مع تعاليم القرآن.

ونستطيع أن نقول: إنه ليست هناك سنة تعارض حكمًا قرآنيًّا ما، بل إنه من المستحيل أن يوجد حديث يعارض أحكام القرآن الخاصة، أو قواعده العامة.

ثم إن الحديث الواحد لا نأخذه على حدة عند الاستدلال، بل يجب أن نأخذ جميع الأحاديث التي وردت في موضوع واحد ثم نلحقها بما يؤيدها ويتصل بها من

الكتاب الكريم، ولن نعدم هذه الصلة». اهـ.

لقد أطلت النقل هنا قصدًا لأبيّن موقف الشيخ الغزالي المبدئي والأساسي من السنة، وهو موقف العالِم المسلم المتشبث بها، الغيور عليها، المدافع عنها، المهاجم لأعدائها، الحريص على حسن فهمها. أما الخلاف مع الشيخ فهو في التفصيلات والأمثلة التطبيقية، وهذه لا ينبغي أن تعكر صفاء المبدأ المسلم، والقاعدة المقررة.

السنة حق:

ويزيد ذلك الشيخ إيضاحًا فيقول تحت هذا العنوان «السنة حق»:

«إذا صح أن رسول الله ﷺ أمر بشيء أو نهى عن شيء، فإن طاعته فيه واجبة، وهي من طاعة الله.

وما يجوز لمؤمن أن يستبيح لنفسه التجاوز عن أمر للرسول فيه حكم: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: 36].

والمسلمون متفقون على اتباع السنة بوصفها المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن الكريم، لكن السنن الواردة تتفاوت ثبوتًا ودلالة تفاوتًا لا محل هنا لذكره. وقد وضعت لضبط ذلك مقاييس عقلية جيدة، يرجع إليها في مظانها من شاء ...

وللناقد البصير، أن يتكلم في حديث ما من ناحيتي متنه وسنده، وأن يرده لأسباب علمية يبديها.

والمجال الفني لهذا الموضوع رحب ممهد، خاضه العلماء الأقدمون وتركوا فيه

آثارًا ضخمة.

لكن المؤسف أن بعض القاصرين - ممن لا سهم له في معرفة الإسلام - أخذ يهجم على السنَّة بحمق، ويردها جملة وتفصيلًا.

وقد يسرع إلى تكذيب حديث يقال له، لا لشيء، إلا لأنه لم يرقه، أو لم يفقهه.

وتكذيب السنة على طول الخط احتجاجًا بأن القرآن حوى كل شيء بدعة جسيمة الخطر؛ فإن الله ﷻ ترك لرسوله السنن العملية يبينها ويوضحها. وقد ثبتت هذه بالتواتر الذي ثبت به القرآن، فكيف تجحد؟

بل كيف تجحد وحدها ويعترف بالقرآن؟

وكيف نصلي ونصوم ونحج ونزكي ونقيم الحدود، وهذه كلها ما أردكت تفاصيلها إلا من السنة؟

وإن إنكار المتواتر من السنن العملية خروج عن الإسلام. وإنكار المروي من سنن الآحاد - لمحض الهوى - عصيان مخوف العاقبة ...

والواجب أن ندرس السنة دراسة حسنة، وأن ننتفع في ديننا بما ضمت من حكم وآداب وعظات. وإن الولع بالتكذيب لا إنصاف فيه ولا رشد.

وقد تعقبتُ طائفة من منكري السنن، فلم أر لدى أكثرهم شيئًا يستحق الاحترام العلمي.

قالوا: إن السلف اهتموا بالأسانيد وحبسوا نشاطهم في وزن رجالها، ولم يهتموا بالمتون، أو يصرفوا جهدًا مذكورًا في تمحيصها ...

وهذا خطأ. فإن الاهتمام بالنسد لم يقصد لذاته وإنما قصد منه الحكم على المتن

نفسه.

ثم إن صحة الحديث لا تجيء من عدالة رواته فحسب، بل تجيء أيضًا من انسجامه مع ما ثبت يقينًا من حقائق الدين الأخرى؛ فأي شذوذ فيه، أو علة قادحة يخرجه من نطاق الحديث الصحيح ...

على أن اتهام حديث ما بالبطلان مع وجود سند صحيح له، لا يجوز أن يدور مع الهوى، بل ينبغي أن يخضع لقواعد فنية محترمة.

هذا ما التزمه الأئمة الأولون، وما نرى نحن ضرورة التزامه.

ذكر بعضهم حديث: «**الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام**».

فقال: إن الواقع يكذبه، وإن صححه البخاري.

ويظهر أنه فهم من «**كل داء**» سائر العلل التي يصاب الناس بها.

وهذا فهم باطل، ولو كان ذلك مراد الرسول ﷺ ما كان هناك موضع للأحاديث الكثيرة الأخرى التي تصف أدوية أخرى لعلل شتى.

والواقع أن «**كل داء**» لا تعني إلا بعض أمراض البرد، فهي مثل قول القرآن الكريم في وصف الريح التي أرسلت على «عاد»: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: 25]، فـ ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ هو ما عمرت به مساكن القبيلة الظالمة فحسب.

وهذا الحديث، لو أن مسلمًا مات دون أن يعلم به ما نقص إيمانه ذرة.

إن أبا بكر وعمر كليهما، لم يعلما بالحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ الذي قال فيه: «**أمرت أن أقاتل الناس - يعني: وثنيي الجزيرة - حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني**

دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله».

فإن الحديث الذي حفظاه ليس فيه: «إقام الصلاة وإيتاء الزكاة».

ولو علم عمر بهذا النص الزائد ما اعترض على أبي بكر في قتاله مانعي الزكاة.

ولو علم به أبو بكر ما استدل على رأيه بالقياس والاستنباط.

ولكن فقه الشيخين في الكتاب العزيز، وحسن استفادتهما مما يعلمان من سنة أغنى وكفى ... ولم يضرهما ما يجهلان من روايات أخرى.

بيد أن الطعن - هكذا خبط عشواء - في الأسانيد والمتون كما يصنع البعض ليس القصد منه إهدار حديث بعينه، بل إهدار السنة كلها، ووضع الأحكام التي جاءت عن طريقها في محل الريبة والازدراء.

وهذا - فوق أنه غمط للحقيقة المجردة - يعرِّض الإسلام كله للضياع.

إن دواوين السنة وثائق تاريخية من أحكم ما عرفت الدنيا.

ويمكننا أن نقول: إن الكتب المقدسة لدى بعض الأمم ما تزيد في قيمتها التاريخية عن أحاديث دونها علماؤنا، وحكموا على طائفة منها بالضعف، وطائفة أخرى بالوضع!!

والسنة - لكثرة ما عرضت له من تفاصيل - تضمنت أحكامًا كثيرة، والأحكام قيود توضع على تصرفات الناس، والقيد عندما يجيء في مكانه الذي يناسبه ويلائمه، لا يكون هناك معنى للتبرم به والإنكار عليه.

إنما ينشأ الاعتراض من سوء استعمال هذه القيود لأنها - والحالة هذه - سوق توصد أبوابًا يجب أن تفتح، وتضيق حدودًا يجب أن تنفسح، وتحظر حركات يجب

أن تأخذ مداها دون حرج.

وأكثر الظلم الذي وقع على السنة أصابها من أن حديثًا من الأحاديث قدر له أن يعمل في نطاق معين، فجاء بعض القاصرين وحرفه عن موضعه بالتعميم والإطلاق»[67] انتهى.

إن الشيخ الغزالي حَفِظَهُ اللَّهُ لم ينكر مصدرية السنة للتشريع وللتربية والدعوة يومًا ما، وما كان له أن ينكر، بل دافع عنها، وذاد عن حماها.

«وإنما ينكر أن تتناولها الأذهان الكليلة، فتردّ نهارها ليلًا، كما ينكر أن يقل شغل الأمة بالقرآن الكريم، فتذهل بذلك عن الأصل الركين، والعماد المتين.

أما أن تتجه الهمم إلى كتاب الله، وتستعين على فهمه وإبلاغ هداياته وإنقاذ أحكامه بأحاديث رسول الله ﷺ، فذلك هو المنهج السديد».

تعليق على أحاديث الفتن:

انظر إلى تعليقه على «أحاديث الفتن» وما وقع فيها من سوء الفهم، حتى غدت من أسباب تقاعس المسلمين عن نصرة دينهم، والعمل لنهضة أمتهم، وإصلاح أحوالهم، لما يوحي به سرد هذه الأحاديث من أن الإسلام أبدًا في إدبار، وأن الكفر في إقبال، وأن الخير منهزم، والشر منتصر، وأن لا جدوى من محاولات الترميم والإصلاح، فنحن في آخر الزمان.

وشيوع هذا الفهم السقيم خطر على كيان الأمة وعلى وجودها، وهو ضد سنن الكون، وضد الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الأخرى. وكيف يقبل هذا في

(67) «ليس من الإسلام» (ص: 29 – 43).

دين يأمر بالعمل للدنيا إلى آخر رمق فيها: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها**»(68)؟!

فكيف يوئس الرسول الكريم أمته من العمل لدينهم، وهو يهيب بهم أن يعملوا لدنياهم إلى آخر لحظة؟! هذا مستحيل.

من أجل هذا يقاوم الغزالي تلك الأفهام الرديئة التي تحمل على القعود واليأس، وتخدر الأمة عن الجهاد والكفاح.

لنقرأ معًا تلك الفقرات النيرة من كتابه: «قذائف الحق» يقول حَفِظَهُ ٱللَّهُ:

دين زاحف مهما كانت العوائق:

«كلما قرأت أبواب الفتن في كتب السنة شعرت بانزعاج وتشاؤم، وأحسست أن الذين أشرفوا على جمع هذه الأحاديث، قد أساءوا - من حيث لا يدرون ومن حيث لا يقصدون - إلى حاضر الإسلام ومستقبله!

لقد صوروا الدين وكأنه يقاتل في معركة انسحاب، يخسر فيها على امتداد الزمن أكثر مما يربح!

ودونوا الأحاديث مقطوعة عن ملابساتها القريبة، فظهرت وكأنها تغري المسلمين بالاستسلام للشر، والقعود عن الجهاد، واليأس من ترجيح كفة الخير؛ لأن الظلام المقبل قدر لا مهرب منه.

---

(68) رواه عن أنس أحمد (3/ 183، 184)، والبخاري في «الأدب المفرد» (479)، والطيالسي (2068)، والبزار مختصرًا، وقال الهيثمي: «ورجاله ثقات أثبات» «مجمع الزوائد» (4/ 63)، وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني، حديث رقم (6).

وماذا يفعل المسلم المسكين، وهو يقرأ حديث أنس بن مالك الذي رواه البخاري عن الزبير بن عدي، قال: شكونا إلى أنس بن مالك ما نلقى من الحجاج فقال: «**اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم**»، سمعته من نبيكم ﷺ!!

وظاهر الحديث أن أمر المسلمين في إدبار، وأن بناء الأمة كلها إلى انهيار، على اختلاف الليل والنهار!

هذا مع أن الحديث يخالف أحاديث صحاحًا كثيرة تحمل مبشرات بظهور الإسلام، واتساع دولته، وانتشار دعوته.

كما يخالف الأحداث التي وقعت في العصر الأموي نفسه!

فقد جاء الوليد بن عبد الملك فمد رقعة الإسلام شرقًا، حتى احتوت أقطارًا من الصين، وامتدت رقعة الإسلام غربًا، حتى شملت إسبانيا والبرتغال وجنوبي فرنسا.

ثم تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز فنسخ المظالم السابقة، وأشاع الرخاء، حتى عز على الأغنياء أن يجدوا الفقراء الذين يأخذون صدقاتهم!

ولقد أتى بعد أنس بن مالك عصر الفقهاء والمحدِّثين الذين أحيوا الثقافة الإسلامية، وخدموا الإسلام أروع وأجل خدمة، فكيف يقال: إن الرسالة الإسلامية الخاتمة كانت تنحدر من سيء إلى أسوأ؟! هذا هراء.

الواقع أن أنسًا ﷺ كان يقصد بحديثه منه الخروج المسلح على الدولة بالطريقة التي شاعت في عهده ومن بعده، فمزقت شمل الأمة، وألحقت بأهل الحق خسائر جسيمة، ولم تنل المبلطين بأذى يذكر.

وأنس بن مالك أشرف دينًا من أن يمالئ الحجاج أو يقبل مظالمه، ولكنه أرحم بالأمة من أن يزج بأتقيائها وشجعانها في مغامرات فردية تأتي عليهم، ويبقى الحجاج بعدها راسخًا مكينًا!

وتصبيره الناس حتى يلقوا ربهم - أي حتى ينتهوا هم - لا يعني أن الظلم سوف يبقى إلى قيام الساعة، وأن الاستكانة للظلمة سنة ماضية إلى الأبد!

إن هذا الظاهر باطل يقينًا، والقضية المحدودة التي أفتى فيها أنس لا يجوز أن تتحول إلى مبدأ قانوني يحكم الأجيال كلها.

لقد سلخ الإسلام من تاريخه المديد أربعة عشر قرنًا، وسيبقى الإسلام على ظهر الأرض ما صلحت الأرض للحياة والبقاء، وما قضت حكمة الله أن يختبر سكانها بالخير والشر.

ويوم ينتهي الإسلام من هذه الدنيا فلن تكون هذه دنيا؛ لأن الشمس ستنطفئ، والنجوم ستنكدر، والحصاد الأخير سيطوي العالم أجمع!

فليخسأ الجبناء دعاة الهزيمة وليعلموا أن الله أبر بدينه وعباده مما يظنون.

لقد ذكر لي بعضهم حديث: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»[69]، وكأنه يفهم منه أن الإسلام سينكمش ويضعف، وأن على من يسمع هذا الحديث أن يهادن الإثم، ويداهن الجائرين، ويستكين للأفول الذي لا محيص عنه.

وإيراد الحديث وفهمه على هذا النحو مرض شائع قديم.

---

(69) رواه أحمد ومسلم وغيرهما.

ولو سرت جرثومة هذا المرض إلى صلاح الدين الأيوبي ما فكر في استنقاذ بيت المقدس من الصليبيين القدامى!

ولو سرت جرثومة هذا المرض إلى سيف الدين قطز ما نهض إلى دحر التتار في «عين جالوت»!

ولو سرت جرثومة هذا المرض إلى زعماء الفكر الإسلامي في عصرنا الحاضر، ابتداء من جمال الدين الأفغاني إلى الشهداء والأحياء من حملة اللواء السامق، ما فكروا أن يخُطوا حرفًا، أو يكتبوا سطرًا!

وقلت في نفسي: أيكون الإسلام غريبًا وأتباعه الذين ينتسبون إليه يبلغون وفق الإحصاءات الأخيرة ثمانمائة مليون نفس؟![70].

يا للخذلان والعار!

الواقع أن هذا الحديث وأشباهه يشير إلى الأزمات التي سوف يواجهها الحق في مسيرته الطويلة، فإن الباطل لن تلين بسهولة قناته، بل ربما وصل في جرأته على الإيمان أن تقتحم حدوده ويهدد حقيقته، ويحاول الإجهاز عليه!

وعندما تنجلي الظلماء عن رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، يقاومون الضلال بجلد، ولا يستوحشون من جو الفتنة الذي يعيشون فيه، ولا يتخاذلون للغربة الروحية والفكرية التي يعانونها، ولا يزالون يؤدون ما عليهم لله حتى تنقشع الغمة، ويخرج الإسلام من محنته مكتمل الصفحة، بل لعله يستأنف زحفه الطهور

---

(70) تقدر الإحصاءات الحديثة عدد المسلمين اليوم بنحو مليار وثلث من البشر (1300 مليون مسلم).

فيضم إلى أرضه أرضًا وإلى رجاله رجالًا.

وذلك ما وقع خلال أعصار مضت، وذلك ما سيقع خلال أعصار تجيء، وهذا ما ينطق به حديث الغربة الآنف، فقد جاء في بعض رواياته:

«طوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي»[71]. فليست الغربة موقفًا سلبيًّا عاجزًا، إنها جهاد قائم دائم حتى تتغير الظروف الرديئة، ويلقى الدين حظوظًا أفضل.

وليس الغرباء هم التافهين من مسلمي زماننا، بل هم الرجال الذين رفضوا الهزائم النازلة، وتوكلوا على الله في مدافعتها حتى تلاشت!

والفتن التي لا شك في وقوعها والتي طال تحذير الإسلام منها: فتنة التهارش على الحكم، والتقاتل على الإمارة، ومحاولة الاستيلاء على السلطة بأي ثمن، وما استتبعه ذلك من إهدار للحقوق والحدود، وعدوان على الأموال والأعراض ... وهذا المرض كان من لوازم الطبيعة الجاهلية التي عاشت على العصبية العمياء ...

والعرب في جاهليتهم ألفوا هذا الخصام والتعادي، فهم كما قال دريد بن الصمة:

يُغار علينا واترين فيشتفى ... بنا إن أصبنا أو نغير على وتر

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا ... فما ينقضي إلا ونحن على شطر

وما رواه أحمد عن تميم الداري[72] يؤيده ما رواه عن المقداد بن الأسود قال:

---

(71) راجع في روايات الحديث كلها كتاب «غربة الإسلام» لابن رجب الحنبلي.

(72) يريد حديث: **«ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر أو وبر إلا**

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل ...** »[73].

وكذلك ما رواه عن قبيصة بن مسعود: صلى هذا الحي من محارب – اسم قبيلة – الصبح، فلما صلوا قال شاب منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها – أمراءها – في النار إلا من اتقى وأدى الأمانة**».

ويقول صاحب «المنار» في نهاية تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ...﴾ [الأنعام: 65].

«اعلم أن الاستدلال بما ورد من أخبار وآثار في تفسير هذه الآية لا يدل هو ولا غيره من أحاديث الفتن على أن الأمة الإسلامية قد قضي عليها بدوام ما هي عليه الآن من الضعف والجهل كما يزعم الجاهلون بسنن الله، اليائسون من روح الله، بل توجد نصوص أخرى تدل على أن لجوادها نهضة من هذه الكبوة، وأن لسهمها قرطة بعد هذه النبوة، كالآية الناطقة باستخلافهم في الأرض – سورة النور – فإن عمومها لم يتم بعد، وكحديث: «**لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا، وحتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق**» رواه أحمد.

أدخله الله هذا الإسلام» رواه أحمد في «مسنده» (4/ 103)، وقال الهيثمي (6/ 14): «رجاله رجال الصحيح»، ورواه الحاكم (4/ 430)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(73) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، كما قال الهيثمي (6/ 14)، ورواه الحاكم وصححه على شرطهما أيضًا (4/ 430).

والشطر الأول منه لم يتحقق بعد، ويؤيده ويوضح معناه ما صح عن مسلم من أن ساحة المدينة المنورة سوف تبلغ الموضع الذي يقال له أهاب، أي أن مساحتها ستكون عدة أميال، فكونوا يا قوم من المبشرين لا من المنفرين، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: 88].

وخطأ كثير من الشراح جاء من فهمهم أن ترك الشر ـ هو غاية التدين، وأن اعتزال الفتن هو آية الإيمان.

وهذا عجز سببه ضعف الهمة وسقوط الإرادة.

وإني لأذكر فيه قول المتنبي:

إنا لفي زمن ترك القبيح به   من أكثر الناس إحسان وإجمال

أجل، فإن ترك الصغائر غير بلوغ الأمجاد، وتجنب التوافه والرذائل غير إدراك العظائم وتسنم الهام، والتلميذ الذي لا يسقط شيء والذي يحرز الجوائز شيء آخر!

والرسول الكريم عندما يأمرنا باعتزال الفتن لا يُنهي واجبنا عند هذا الحد ... سوف يبقى بعد ذلك الاعتزال الواجب بناء الأمة على الحق، ومد شعاعاته طولًا وعرضًا حتى تنسخ كل ظلمة»(74).

خلاصة الموقف من السنة:

والخلاصة من كل ما ذكرناه هنا تبدو للمنصف فيما يلي:

1 - أن الغزالي يؤمن إيمانًا لا ريب فيه بأن السنة هي المصدر الثاني للإسلام، ولا يشك في ذلك من قرأ كتبه منذ «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» إلى آخر

(74) «قذائف الحق» (ص: 208 - 211).

كتبه.

2 – أن الغزالي جرد قلمه للدفاع عن حجية السنة، في مواجهة المشككين فيها والمجترئين عليها، كما تجلى ذلك في أكثر من كتاب له.

3 – أن الغزالي يحمل قلبًا يفيض حبًّا لرسول الله ﷺ، ويراه النموذج الذي تجسد فيه الكمال البشري، وتجمعت فيه مواريث النبوات، وفضائل النبيين الذين هداهم الله فاقتدى خاتمهم بهداهم.

4 – أن كتب الغزالي ومقالاته وخطبه ومحاضراته، منذ أمسك بالقلم ليكتب، ومنذ ارتقى المنبر ليخطب، مملوءة بالاستشهاد بالحديث الشريف والاستناد إلى السنة القولية والفعلية والتقريرية.

5 – أن الغزالي إذا رد بضعة أحاديث – صحت عند غيره – لاعتبارات دينية وعلمية، وعقلية ثبتت عنه – لا لهوى عنده، ولا لاحتقار للوحي والرسالة والرسول – فهذا لا يسقط اعتباره، فما من إمام من الأئمة إلا رد من الأحاديث ما ثبت عند الآخرين، لاعتبارات رآها، وإن رفضها غيره.

وهذه الحقائق كلها بينة واضحة وضوح الشمس، لا يجحدها إلا أعمى أو مكابر.

وهبني قلت: هذا الصبح ليل   أيعمَى العالمون عن الضياء؟!

يقول الشيخ حفظه الله في مقدمة كتابه: «السنة النبوية» في طبعته السادسة:

«وقد شتمني بعض الناس، فوجدت الإعراض أولى، ومَن مِن الأنبياء لم يشتم؟ فليتأس بهم أتباعهم في الصبر والتجاوز.

لكن الشتم الذي أوجعني: اتهامي بأني أخاصم السنة النبوية!

وأنا أعلن أن اللَّه ورسوله أحب إليّ مما سواهما، وأن إخلاصي للإسلام يتجدد ولا يتبدد، وأنه أولى بأولئك المتحدثين أن يلزموا الفقه والأدب. فغايتي تنقية السنة مما قد يشوبها».

***

الفصل الثامن
الغزالي . . . والفقه

***

الغزالي . . . والفقه

الغزالي فقيه النفس:

لم يشتغل الغـزالي بــ «فقـه الفـروع»، ولم يؤلـف كتابًـا ممـا يدخلـه النـاس في اختصاص «الفقه». وقد كتب في جوانب الثقافة الإسلامية المتنوعة، من العقيـدة، إلى الأخلاق، إلى السيرة، إلى التفسير، ولكنـه لم يؤلـف كتابًـا خالصًـا في الفقـه أو أصوله.

وفي «ملتقى الفكر الإسلامي» بالجزائر الذي خصص لـ «الاجتهـاد» قـال عـن نفسه: إنني ليس لي عقلية الفقيه، أخي فلان «يقصـدني» هـو الـذي يملـك هـذه العقلية.

وقديمًا كان يحيل مسائل الفقه على أخيه الشيخ «سيد سابق».

وهذ الكلام قد يوهم أن الشيخ مبتوت الصلة بالفقه. وهذا غير صـحيح، فـلا ينبغي الإطلاق في هذا الأمر.

إنه صحيح إذا حمل على معنى الاشتغال بالمسائل الجزئية والفروع والتفصيلات الفقهية، التي تحتاج إلى بحث في بطون الكتب والشروح والحواشي، وتتبع الأقوال والمسائل والأدلة، إلى غير ذلك.

أما إذا أريد بالفقه: فهم مقاصد الشريعة وكلياتها، ورد الجزئيات إليها، وإبـراز القضايا المهمة من خلال الأدلة القرآنية والنبوية، فللشيخ هنا فقـه يـذكر ويقـدر. وهو الذي يعبر عنه في تراثنا بـ «فقه النفس».

وهو إنما دخل إلى الفقه من باب الـدعوة، فهـو – لكـي يبـين وجهـة الإسـلام

وعظمته وعدله وسموّه - لزمه أن يتحدث عن قضايا كثيرة، تتعلق بالفقه والتشريع.

ولعل هذا الجانب هو الذي جر عليه سخط كثير من الجامدين والمتعصبين، مثلا آرائه حول المرأة والغناء والموسيقى وإعفاء اللحى، وتقصير الثياب، والعلاقات الدولية في السلم والحرب.

وفي السنوات الأخيرة - التي قضاها مستشارًا ورئيسًا للمجلس العلمي بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بالجزائر - كان يستفتى في أمور كثيرة كلية وجزئية، فيجيب عنها، ما أتيح له الوقت، فيقنع ويشبع.

***

الغزالي والفقه الاقتصادي

بيد أني أود أن أنبه هنا على أن اهتمام الشيخ بالفقه - بالمعنى الأعمق والأوسع - بدأ منذ فجر تأليفه، كما يتضح ذلك لمن قرأ كتاباته الأولى الرائدة في الجوانب المتعلقة بالاقتصاد الإسلامي، فهو ينادي بتحديد «الملكيات الكبيرة»، ويدلل على ذلك من قواعد الفقه ومقاصد الشرع.

ويناقش «المتحدث الرسمي للإسلام» - المفتي في ذلك الوقت - في دفاعه عن الملكيات الكبيرة في مصر، ومدى شرعيتها، وكيف اكتسبت، ثم كيف نمت واتسعت. ومن قرأ مناقشة الشيخ هنا بتأمل وإنصاف، وجدها تدل على أصالة فقهية، وملكة فطرية، صقلتها الدراسة الأزهرية، مع الاستعانة على إنضاج الفتوى بقراءة التاريخ، واستقراء الواقع. فالمفتي الحق هو الذي يزاوج بين الواجب والواقع، ولا يتقوقع على الأقوال النظرية، معزولًا عن الناس والحياة.

وفي رأيه أن فقه العبادات قد اتسع واستبحر أكثر مما يلزم، والقليل منه يكفي. ولفت النظر إلى العناية بالفقه الدستوري والسياسي والاقتصادي والمدني، مما يحتاج إليه المجتمع المعاصر.

وهو أميل إلى مدرسة الرأي منه إلى مدرسة الأثر، وكثيرًا ما أبدى إعجابه بمذهب أبي حنيفة في عدم إثبات الفرضية أو التحريم إلا بنص لا شبهة فيه، وبمذهب مالك في الاحتجاج بالمصلحة المرسلة، وتقديم عمل المدينة على أحاديث الآحاد.

ولا بأس بأن نعرض هنا نموذجًا من فقهه «القديم» في الجانب الاقتصادي، وإن كان يغلب عليه حماسة الشباب، وثورته على الظلم الاجتماعي. وربما عدل الشيخ

بعد ذلك عن بعض هذه الآراء، أو ضبطها وقيدها، ولكن الذي يهمنا منها دلالتها العامة على «فقه النفس» عنده.

ومن أبرز النماذج هنا: حديثه عن الملكية: هل تقيد أو لا؟

فلنقرأ ما يقول الشيخ هنا في كتابه: «الإسلام المفترى عليه».

مبدأ الملكية بين التقييد والإطلاق:

لا جدال في أن للإنسان حق التملك، اعترفت بذلك رسالات السماء وقوانين الأرض جميعًا.

وحب التملك غريزة، يعُدها علماء النفس من قواعد السلوك البشري، كسائر الغرائز الأخرى المعترف بها، من جنسية واجتماعية وبدنية.

وغرائز الإنسان لا تُستأصل استئصالًا، وإنما تحوَّر آثار العملية، في الشكل الذي يرضاه الشرع والقانون.

ومن ثم فقد أباح الدين للإنسان أن يتملك، ولكن عن طرق معينة لا يجوز تخطيها.

وأباحت النظم الوضعية للمرء أن يتملك؛ فتلك غريزته التي لا يمكن وقفها البتة.

ثم اختلف كيف يملك؟ وكم؟

فقالت الشيوعية: لا يملك إلا دخله الذي يستحقه من عمله، أو ما يدخره من هذا الدخل المحدود، أو ما يستهلكه في اقتناء حاجاته الشخصية. ورفضت أنواع التملك الأخرى.

أما الرأسمالية، فقد تركت حرية التملك مطلقة، ولم تضع إلا قيودًا خفيفة على طرائق الكسب، ولم تضع حدًّا معينًا للثروات المكتسبة، ولم تعرق تداولها بالمواريث، كما فعلت الشيوعية.

والإسلام يعترف بمبدأ الملكية، ويضعه تحت الوصاية الدقيقة من تعاليمه المقررة، في قواعده العامة ونصوصه الخاصة.

فهو يطلقه إن كانت المصلحة العامة تقضي بإطلاقه. ويقيده إن كان الأمر على العكس.

وفي كلتا الحالتين، فالإسلام واضح في رفضه لكل تملك باطل. وهو يسأل كل مالك: ما أين لك هذا؟ ليعرف أهو حق فيبقيه له! أم لا، فيسلبه إياه؟

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 188].

ولو طبق مبدأ «من أين لك هذا؟» على الأملاك الكبيرة القائمة في ربوع الشرق، لأصبح أكثر أغنياء الشرق فقراء.

فأصول هذه الأموال منهوب يحرم الأكل منه، وتحرم الصلة فيه كما قال الفقهاء.

واستثمار هذه الأملاك مطعون فيه؛ لقيامه على سرقة الجهود، وظلم الأجراء.

والملكيات التي تكونت على أساسه، نتجت - في الأغلب - من بين ما يستحقه العمال من أجور عدلًا، وبين ما يصل إلى أيديهم فعلًا.

ومذهب الإمام مالك، يقدر أجر العامل بنصف الربح[75]. فكيف إذا كان ما يأخذه العمال، لا يصل إلى عشر الربح، بل إلى 1٪؟

على أن مبدأ الملكية الذي أباحه الإسلام، يخضع للسلطة التي منحها الإسلام للدولة، في تقييد المباحات حسب المصلحة.

فإن الإسلام أعطى الحاكم حق التدخل في بعض المباحات المشروعة بالحظر، إذا كان من وراء ذلك غرض سليم.

ألا ترى الحكومة تحدد مساحة ما يزرع قطنًا أو قمحًا، وتفرض العقوبات على من يخالف ذلك، ولا يرى الدين في ذلك بأسًا، ولم يبد علماء الدين احتجاجًا؛ مع أن زراعة هذه الأصناف مباحة كمًّا وكيفًا لمن يشاء؟ إن ذلك راجع إلى المبدأ الفقهي المقرر، الذي يبيح للدولة «إسلاميًّا» أن تقيد حرية الزراعة، وأن تقيد حرية التملك؛ ما دام هناك من الدواعي الاجتماعية ما يحتم ذلك.

ويرى فريق من الناس، أن هذه الأمور من شئون الدنيا المحضة.

فلنا أن نتصرف فيها على النحو الذي نشاء، دون انتظار للفتوى التي يصدرها الدين!

وقد وكل إلينا الدين هذا الحق، فلا معنى للتخلي عنه. ويستدلون بالحديث الكريم: «**أنتم أعلم بشئون دنياكم**»[76].

---

(75) لعله يقصد «العامل» في القراض «المضاربة» بمعنى: أن رب المال له نصف الربح، والعامل بخبرته وجهده له النصف.

(76) رواه مسلم عن عائشة وأنس.

وهذه المحاولة لإخراج المسألة من الدائرة التي يحكم فيها الدين، لا فائدة منها ولا مسوغ لها.

ولعل الدافع لها هو الخوف من أن تقف أحكام الدين، حجر عثرة في طريق التقدم الاجتماعي، وسير الحضارة إلى الأمام. وهذا التخوف لا موضع له أبدًا بالنسبة إلى الإسلام. ففي قواعد هذا الدين من السعة والمرونة، ما يشفي ويريح.

ولو توجه العقلاء والمصلحون إلى الإسلام، يحكِّمونه فيما شجر بينهم، لوصلوا إلى أهدافهم في يسر، ولمزقوا ما على صفحة الحقيقة من حجاب، وما أخفى وجهها الوضاح من نقاب.

فإن الدين في جميع الأحوال، ضرورة اجتماعية، وإن كان رجاله في أغلب الأحوال، آفة اجتماعية.

وإليك طائفة من القواعد، التي تأسس عليها الفقه الإسلامي، واستخلصت من الكتاب والسنة ولم يثر حولها نزاع.

وسنعرض مبدأ الملكية على هذه القواعد لتقول فيه كلمتها الحاسمة:

1 - رفع الضرر.

2 - منع الحرج.

3 - سد الذرائع.

4 - دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح.

5 - الضرورات تبيح المحظورات.

6 - يرتكب أخف الضررين.

7 – ما قارب الشيء يعطى حكمه.

8 – للأكثر حكم الكل.

9 – ما أدى إلى الحرام، فهو حرام.

10 – ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب.

11 – ما رآه المسلمون حسنًا، فهو عند اللَّه حسن ... إلخ، إلخ.

ولو انفردت قاعدة من هذه القواعد بالحكم على مبدأ الملكية وقررت تضييق الخناق عليه، لكفى. فكيف وهي كلها تؤدي في هذه الأيام، إلى محاصرة حق التملك، وإحاطته بشتى القيود؟

خذ مثلًا قاعدة «منع الضرر» فهي تعطي الدولة الحق في مصادرة أي تصرف يضير كتلة الشعب، ويمس سلامة الجماعة، لا عن طريق تحريم المباح فحسب، بل عن طريق التصرف – بالتأويل – في بعض النصوص الواردة.

وأقرب مشاهَد لنا قانون «التسعير» الذي صدر في السنين الأخيرة، ورحب به العلماء أيما ترحيب.

فهذا القانون مناف في تشريعه لما جاء في السنة من «الامتناع عن تسعير البضائع».

فعن أنس رضي الله عنه: أن الناس قالوا: يا رسول اللَّه، غلا السعر، فسعر لنا. فقال: «**إن اللَّه هو المسعر، القابض الباسط الرازق، وإني لأرجو أن ألقى اللَّه تعالى، وليس أحد**

يطالبني بمظلمة، في دم ولا مال»[77].

ومع ورود هذا الحديث وغيره، لم يقم اعتراض من أحد، لما رأت الدولة أن تسعر البضائع؛ لأن الأضرار الفادحة، من ترك الأسعار حرة، توجب التدخل في أمرها حتمًا.

وإطلاق الملكية أو تقييدها، لا يزيد في شأنه - إن لم يقل - عن إطلاق الأسعار أو تقييدها.

ورفع مستوى المعيشة هدف تدندن من حوله الحكومات، تريد أن يُنَعَّم الجمهور بأكبر قسط مستطاع من طيبات الحياة، وأن يتاح للأفراد كافة أخذ حقهم من أنعم الله التي أخرج للناس.

فهذه المجهودات المدينة المبذولة في هذه السبيل، ليست إلى ترجمة صحيحة لقاعدة «رفع الحرج» التي اعتمدها الإسلام، وبشر بها في تعاليمه.

وإذا كان رفع الحرج لا يتم إلا برفع إغلال الرأسمالية القائمة على إطلاق التملك والتمليك، فمن الذي يفتي بإبقاء المسلمين في سجنها الضيق الظلوم؟

وقد ذكر القرآن أن ثمة طائفة من الناس، سمَّاهم «السادة الكبراء» إذا ظهروا في قرية أفسدوها، وإذا قاموا على سبيل أبهموها وأضلوها، حتى يصيح الشاردون خلفهم يوم القيامة:

﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ 67 رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: 67، 68].

---

(77) حرية التجارة التي عناها الحديث تقرر في عهود السلم والاستقرار فحسب «الغزالي».

فإذا كان ترك مبدأ الملكية طليقًا، سيفضي حتمًا إلى تكون هـذه الطائفـة؛ فـإن الإسلام يوجب – سدًّا للذريعة – ألا يترك.

وإذا كان بعض كبار الملاك صالحًا منصفًا، يؤدي واجباته على أساس أن الملكية وظيفة اجتماعية؛ فإن أكثرهم على العكس، والحكم يتبع الكثرة لا القلة.

والمرجع في ذلك أحوال العصر، وعبر التاريخ.

نستطيع أن نعرض مبدأ الملكية، على بقية القواعد التي ذكرناها آنفًا. وسـنرى أنها لا تسمح – البتة – ببقائه، على الأسلوب الذي يظهر به الآن.

أما حدود التقييد، فهي الأخرى متروكة لميـزان المصـلحة العامـة، يرتفـع بهـا وينخفض ... كما تريد الشعوب. اهـ.

أهذا كلام رجل بعيد عن الفقه؟ كلا. إنه كلام رجل يستلهم القرآن، ويقتبس من مشكاة النبوة، ما يضيء الطريق لفقه عصري مستنير.

وهو – إلى جانب ذلك – بصير بالواقع والتاريخ مواكب للزمن، متفـتح العـين والعقل على ما يجري حوله. ولذلك كانت فتواه عن الملكيات في مصر مبينـة عـلى دراسة واقعية للملكية وتاريخها في مصر.

الزكاة والضريبة:

ويتحدث الشيخ عن «الزكاة والضريبة» في ضوء الأصول الفقهية، فيقول:

«للمصالح المرسلة وأنواع القياس منزلة كبرى في الفقه الإسلامي؛ فهي مرجع وثيق لكبار الأئمة، يستنبطون منه شتى الأحكـام، ويواجهـون بـه صـور الحيـاة المتجددة على مر الأيام. وإلى هذه الأصول التشريعية أمر عمر بالقصاص من جماعة

قتلوا واحدًا فقتلهم جميعًا، وإليها كذلك لم يعتبر أرض فارس غنيمة تقسم أخماسًا على الفاتحين، فأبقى الأرض لأهلها وضرب عليها الخراج وعليهم الجزية. وإليها أيضًا أشار عليّ بجعل حد الخمر ثمانين جلدة، فإن من سكر هذي، ومن هذي افترى، والأمثلة كثيرة، وليس هنا موضع سردها ...

زكاة المال وزكاة الدخل:

وقد جدت في هذا العصر مشكلات مالية، لا يجوز أن نقف أمامها مكتوفي الأيدي، كما لا ينبغي أن نتراخى في وضع حلولها، حتى لا يضطرب الناس في أمر دينهم. من ذلك نظام الزكاة. فالزكاة ركن من أركان الإسلام الأولى، ومن دعائم أوضاعه الاقتصادية التي يكفر من جحدها ويحارب مع المرتدين من منعها. وأنصبة الزكاة في صنوف المال حددها الدين تحديدًا يُعَدّ نصًّا في أكثر الأحوال. ونريد أن نَعُدّه قياسًا فيما سنورده من أمثال ونظائر.

ولبيان ذلك نقول: إن الإسلام أوجب إخراج ربع العشر من رأس المال الذي يبلغ مائتي درهم فما فوق. والزكاة في هذه الصورة معتبرة برأس المال فقط زاد أو نقص أو بقي على حاله، ما دام قد مر عليه العام.

وقد فرض الإسلام كذلك زكاة في الزورع والثمار، جعلها العشر أو نصف العشر.

والزكاة في هذه الصورة قد اعتبرت على أساس الدخل الناتج، مر عليه العام أو لم يمر، ولا عبرة فيها برأس المال الْمُغِلّ، وهو الأرض المزروعة قلت قيمتها أو عظمت.

ومن هنا نستطيع الحكم بأن قاعدة فرض الزكاة في الإسلام قد تكون رأس

المال، وقد تكون مقدار الدخل، ونخلص من هذا إلى أن من له دخل لا يقل عن دخل الفلاح الذي تجب عليه الزكاة، يجب أن يخرج زكاة مساوية، ولا عبرة البتة برأس المال، ولا بما يتبعه من شروط؛ فالطبيب والمحامي والمهندس والصانع وطوائف المحترفين والموظفين وأشباههم تجب عليهم زكاة، ولا بد أن تخرج من دخلهم الكبير، ولنا على ذلك دليلان:

الأول: عموم النص في قول القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 267]، ولا شك في أن ربح الطبقات الآنفة كسب طيب يجب الإنفاق منه، وبهذا الإنفاق الواجب يدخلون في عداد المؤمنين، الذين ذكر القرآن أوصافهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 3].

والدليل الثاني: أن الإسلام لا يتصور في حقه أن يفرض الزكاة على فلاح يملك خمسة أفدنة، ويترك صاحب عمارة تدر عليه محصول خمسين فدانًا، أو يترك طبيبًا يكتسب من عيادته في اليوم الواحد ما يكسبه الفلاح في عام طويل من أرض إذا أغلت بضعة أرادب من القمح ضربت عليها الزكاة يوم الحصاد! ...

لا بد إذن من تقدير زكاة على أولئك جميعًا، وما دامت العلة المشتركة التي يناط بها الحكم موجودة في الطرفين، فلا ينبغي المراء في إمضاء هذا القياس وقبول نتائجه.

وقد يقال: كيف نقدر هذه الزكاة؟ وعلى أي نسبة تكون؟

والجواب سهل. فقد ردد الإسلام زكاة الثمار بين العشر ونصف العشر على قدر عناء الزارع في ري أرضه، فلتكن زكاة كل دخل على قدر عناء صاحبه في عمله،

ومن الممكن إيضاح التفاصيل وتفريع المسائل وتحديد القيم بعدما نقر هذا الأصل الخطير، والأمر لا يستقل به تفكير واحد، بل يحتاج إلى تعاون العلماء والباحثين»[78]. اهـ.

هذا هو فقه الشيخ، قد تأخذ به وقد لا تأخذ، ولكن المهم هنا أنه يدل على نظر فقهي أصيل[79].

***

(78) «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» (ص: 92 – 94).

(79) نقلنا رأي الشيخ هذا في كتابنا: «فقه الزكاة»، ولكنا أخذنا بما هو أقرب منه مأخذًا، وهو تزكية «المال المستفاد» عند قبضه، كما هو مذهب ابن مسعود وابن عباس ومعاوية وعمر بن عبد العزيز وعدد من أئمة السلف.

فقه الغزالي وقضايا المرأة

ومن أبرز القضايا الفقهية التي أثارها الغزالي، وجرّت عليه كثيرًا من القيل والقال: قضايا المرأة وفقهه فيها، واختلاف بعض الناس معه فيها. وخصوصًا إخواننا السلفيين.

ولا بأس في أن يختلف الناس في هذه القضايا ما بين مشدد وميسر، فقد عرف تراثنا قديمًا شدائد ابن عمر، ورخص ابن عباس، رضي الله عن الجميع.

ولكن الذي يتأمل هذه القضايا الخلافية ببصيرة وإنصاف، يرى أن منطق الشيخ أرشد من منطق مخالفيه، وأن أدلته أقوى من أدلتهم، وأن رأيه أدنى إلى تحقيق مقاصد الشرع، ومصالح الخلق، ومراعاة طبيعة العصر. اقرأ ما كتبه في الرد على القائلين بوجوب النقاب تجد ذلك واضحًا، يقول الشيخ:

إن هذا النوع من المتحدثين عن الإسلام يقف من مسيرة الإسلام، ويصد عن سبيل الله. وقد عرفت أنهم يقلدون مذهب ابن حنبل رضي الله عنه، وأحمد بن حنبل بريء من هذا المسلك، وهو لا يقول: إن وجه المرأة عورة، ذكر ذلك «المغني» لابن قدامة، وكذلك رأى أئمة المذاهب المتبوعة، أو حنيفة ومالك ...

قال ابن قدامة (ص: 431) من الجزء الأول: قال مالك والأوزاعي والشافعي: «جميع المرأة عورة إلا وجهها وكفيها، وما سوى ذلك يجب ستره في الصلاة؛ لأن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: 31] قال: الوجه والكفين، وأن النبي نهى المرأة المحرمة عن لبس القفازين والنقاب، ولو كان الوجه والكفان عورة لما حرم سترهما، ولأن الحاجة تدعو إلى كشف الوجه للبيع

والشراء، والكفين للأخذ والعطاء، وقال بعض أصحابنا: المرأة كلها عورة؛ لأنه قد روي في حديث عن النبي ﷺ: «المرأة عورة». ولكن رخص لها في كشف وجهها وكفيها لما في تغطيته من المشقة».

إلى أن قال (ص: 432): ويكره أن تنتقب المرأة وهي تصلي ...

وأجمعوا على أن المرأة، تكشف وجهها في الصلاة والإحرام. نقول:

وذلك كتحريم تغطية الرأس على الرجال عند الإحرام، والرأس ليس بعورة بالنسبة لهم، وإلا ما وجب كشفه، وكذلك الوجه والكفان بالنسبة إلى المرأة، ونحن نعلم أن هناك متطيرين يرون أظافرها عورة، وهؤلاء لا وزن لا لرأيهم ولا لروايتهم.

وجاء في الجزء السابع من «المغني» و«الشرح الكبير» مزيد من الإيضاح لهذه القضية.

إذا أراد امرؤ الزواج فخطب إحدى النساء، فماذا يفعل ليستريح إلى الزواج منها:

يقول الحنابلة: يكفيه ما يرى عادة، ولا ينبغي له أكثر من ذلك. قال صاح «المغني»:

«لا خلاف بين أهل العلم في إباحة النظر إلى وجهها؛ وذلك لأنه ليس بعورة، وهو مجمع المحاسن وموضع النظر، ولا يباح له النظر إلى ما لا يظهر عادة».

وقد رويت أقوال أخرى فيما يرى سوى الوجه والكفين لا مكان لذكرها هنا.

قال صاحب «المغني»: «وللشاهد النظر إلى وجه المشهود عليها لتكون الشهادة

واقعة على عينها. قال أحمد: لا يشهد على امرأة إلا أن يكون قد عرفها بعينها، وإن عامل امرأة في بيع أو إجارة فله النظر إلى وجهها ليعلمها بعينها فيرجع إليها بالدرك».

نقول: وأدب الإسلام العام هو غض النظر، فلا يجوز التفرس والحملقة، وإنما أباح الحنابلة النظر فيما ذكرنا لطبيعة التعامل والتقاضي، وقد نقل ابن قدامة عن القاضي أبي يعلى أنه يحرم عليه النظر إلى ما عدا الوجه لأنه عورة؛ أي ما عدا الوجه ...

قال صاحب «المغني»: «فأما نظر المرأة إلى الرجل ففيه روايتان: إحدهما؛ لها النظر إلى ما ليس بعورة، والأخرى؛ لا يجوز لها النظر من الرجل إلا إلى مثل ما ينظر إليه منها».

نقول: يعني الوجه والكفين، وقد رد ابن قدامة حديث: «**أفعمياوان أنتما**»، وهو حديث مرفوض عند جمهرة العلماء، بل مخالف لما صح بالنسبة إلى البيت النبوي الكريم، وبالنسبة إلى جمهور الأمة.

فأما بالنسبة إلى البيت النبوي؛ فقد قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر الحبشة يلعبون في المسجد. متفق عليه. وأما بالنسبة إلى جمهور الأمة فقد قال الرسول ﷺ لفاطمة بنت قيس: «**اعتديّ في بيت ابن أم مكتوم، فإنه رج أعمى، تضعين ثيابك فلا يراك**» متفق عليه أيضًا.

إنه غريب ألا يعرف الحنابلة مذهبهم، أليس الجهل عيبًا؟ وقد يقولون: نحن نعرف المذهب ولكنا نرى الميل إلى وجهة نظر أخرى! تقول: ليكن لكم ذلك، على أن تعيبوا من يردد فقه إمامكم ويأخذ به، فليس ابن حنبل متهمًا في نصحه للأمة

وإخلاصه للدين. فكيف إذا كان فقهه في هذه القضية فقه جمهرة العلماء؟!

فقه السنة لا يلزم، وفقه المذاهب لا يلزم، إذن ما الذي يلزم؟ تفكير المتشائمين وهواة جمع التوافه؟![80].

في دائرة النص والإجماع:

قد توافق الشيخ الغزالي فيما ذهب إليه من آراء فقهية، وقد تخالفه، فهذا من حقك. فهو لم يزعم لنفسه العصمة فيما اجتهد فيه. ولكن ليس من حقك أن تتهمه في دينه لمجرد أنه خالف رأيك، أو خالف رأي الجمهور الأعظم من الفقهاء. فكم من إمام انفرد عن سائر الأمة بأقوال لم يقلها غيره من أئمة المذاهب المتبوعة. وكثيرًا ما تقرأ هذه العبارة في كتب الحنابلة: وهذا من «مفردات المذهب». وقد نظمت هذه المفردات في كتاب خاص.

وقد تتعبت ما قاله الشيخ، فلم أره خرج على نص مقطوع به، بل ولا نص مجمع على صحة ثبوته، وصراحة دلالته.

وكذلك لم أره خرج على إجماع متقين. إنما ينقد بأنه خرج على رأي الجمهور، وبهذا اتهم شيخ الإسلام ابن تيمية من قبل، وحوكم على ذلك وظلم وسجن، ومات في سجنه. بل اتهم صراحة بالخروج على الإجماع. هذا مع أن الشيخ الغزالي

---

(80) انظر: كتاب: «الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر» (ص: 161 – 164)، وانظر في قضية النقاب أيضًا للشيخ: «السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث» ط. سادسة. وانظر: كتابنا: «فتاوى معاصرة» (جـ: 2) فتوى: هل النقاب بدعة؟ وفتوى: هل النقاب واجب؟ وانظر: كتاب صديقنا الأستاذ عبد الحليم أبو شقة: «تحرير المرأة في عصر الرسالة» (جـ 3) «ملابس المرأة وزينتها».

أعلن في كتبه مرارًا: أنه يكره الشذوذ والخروج عن الإجماع، ويحب أن يبقى مع السواد الأعظم للأمة.

فهم الشيخ لحديث: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»:

لقد قالوا: إنه خرج على النص في قضية تولي المرأة الوظائف العامة. وهذا معارض للحديث الذي رواه البخاري عن أبي بكرة: «**لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**».

وأقول: إن الشيخ هنا لم يردّ النص، وإنما أوله بأنه ورد في مناسبة معروفة، وفي سياق خاص، فلا ينبغي أن يعدى به عن موضعه.

ولا يجوز إغفال أسباب ورود الحديث وسياقاتها الخاصة، وتعميم دلالاتها بصفة مطلقة، فهذا قد يؤدي إلى عكس ما قصده الشارع.

وعلماء الأصول قد اختلفوا في قضية: هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب؟ ورجح الجمهور أن العبرة بعموم اللفظ.

ونحن مع الجمهور في ذلك لأدلة لا تحصر، ولكن في بعض الحالات نجد أن رأي الأقلية هو الأرجح لقيام الدليل عليه.

ومن هنا وجه الإمام أبو إسحاق الشاطبي الأنظار إلى الاهتمام بأسباب نزول القرآن، حتى لا يقع المفسر فيما وقع فيه الحرورية قديمًا، حيث أخذوا آيات أنزلت في المشركين، فطبقوها على المسلمين، ولذلك كان ابن عمر يراهم شرار الناس.

وأسباب ورود الحديث أولى بالرعاية من أسباب نزول القرآن؛ لأن الأصل في نصوص القرآن العموم والخلود، بخلاف الأحاديث التي تراعي المناسبات

الخاصة، والظروف الآنية، كما هو معلوم للدارسين.

ولننظر هنا ما قاله الإمام المحقق ابن دقيق العيد، تعليقًا على حديث: «**ليس من البر الصيام في السفر**» ففي كتابه: «الإحكام شرح عمدة الأحكام» وفي «كتاب الصوم» ذكر الحديث الرابع: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ في سفر، فرأى زحامًا ورجلًا قد ظلل عليه. فقال: «**ما هذا؟**». قالوا: صائم. قال: «**ليس من البر الصيام في السفر**».

قال ابن دقيق العيد:

أخذ من هذا: أن كراهة الصوم في السفر لمن هو في مثل هذه الحالة، ممن يجهده الصوم ويشق عليه، أو يؤدي به إلى ترك ما هو أولى من القربات. ويكون قوله: «**ليس من البر الصيام في السفر**» منزلًا على مثل هذه الحالة. والظاهرية المانعون من الصوم في السفر يقولون: إن اللفظ عام، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ويجب أن تتنبه للفرق بين دلالة السياق والقرائن الدالة على تخصيص العام، وعلى مراد المتكلم، وبين مجرد ورود العام على سبب، ولا تجريهما مجرى واحدًا. فإن مجرد ورود العام على السبب لا يقتضي التخصيص به. كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38] بسبب سرقة رداء صفوان. وأنه لا يقتضي التخصيص به بالضرورة والإجماع. أما السياق والقرائن: فإنها الدالة على مراد المتكلم من كلامه. وهي المرشدة إلى بيان المجملات، وتعيين المحتملات. فاضبط هذه القاعدة. فإنها مفيدة في مواضع لا تحصى»[81]. اهـ.

---

(81) «الإحكام» (2/ 21) ط. عالم الكتب الحديث (188) بتحقيق أحمد محمد شاكر.

وقوله: «**عليكم برخصة الله التي رخص لكم**» دليل على أنه يستحب التمسك بالرخصة إذا دعت الحاجة إليها. ولا تترك على وجه التشديد على النفس والتنطع والتعمق.

وفي ضوء هذا الفهم نظر الشيخ إلى حديث أبي بكرة المذكور، قائلًا:

«ونحب أن نلقي نظرة أعمق على الحديث الوارد، ولسنا من عشاق جعل النساء رئيسات للدول أو رئيسات للحكومات! إننا نعشق شيئًا واحدًا، أن يرأس الدولة أو الحكومة أكفأ إنسان في الأمة.

وقد تأملت في الحديث المروي في الموضوع، مع أنه صحيح سندًا ومتنًا، ولكن ما معناه؟

عندما كانت فارس تتهاوى تحت مطارق الفتح الإسلامي كانت تحكمها ملكية مستبدة مشئومة.

الدين وثني! والأسرة المالكة لا تعرف شورى، ولا تحترم رأيًا مخالفًا، والعلاقات بين أفرادها بالغة السوء. قد يقتل الرجل أباه أو إخوته في سبيل مآربه. والشعب خانع منقاد ...

وكان في الإمكان، وقد انهزمت الجيوش الفارسية أمام الرومان الذين أحرزوا نصرًا مبينًا بعد هزيمة كبرى، وأخذت مساحة الدولة تتقلص: أن يتولى الأمر قائد عسكري يقف سيل الهزائم، لكن الوثنية السياسية جعلت الأمة والدولة ميراثًا لفتاة لا تدري شيئًا فكان ذلك إيذانًا بأن الدولة كلها إلى ذهاب ...

في التعليق على هذا كله قال النبي الحكيم كلمته الصادقة، فكانت وصفًا للأوضاع كلها ...

ولو أن الأمر في فارس شورى، وكانت المرأة الحاكمة تشبه «جولدا مائير» اليهودية التي حكمت إسرائيل، واستبقت دفة الشئون العسكرية في أيدي قادتها، لكان هناك تعليق آخر على الأوضاع القائمة.

وما الذي جعل الشيخ يتجه بالحديث هذه الوجهة، ويفهمه هذا الفهم؟ هناك أمران ساقاه إلى ذلك:

أولهما: الحديث لا يناقض القرآن: إن الوحي لا يناقض بعضه بعضًا، والسنة لا يمكن أن تناقض القرآن بحال.

فإن النبي – عليه الصلاة والسلام – قرأ على الناس في مكة سورة النمل، وقص عليهم في هذه السورة قصة ملكة سبأ، التي قادت قومها إلى الإيمان والفلاح بحكمها وذكائها، ويستحيل أن يرسل حكمًا في حديث يناقض ما نزل عليه من وحي!

كانت بلقيس ذات ملك عريض، وصفه الهدهد بقوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: 23].

وقد دعاها سليمان إلى الإسلام، ونهاها عن الاستكبار والعناد، فلما تلقت كتابه، تروت في الرد عليه، واستشارت رجال الدولة الذين سارعوا إلى مساندتها في أي قرار تتخذه، قائلين: ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: 33].

ولم تغتر المرأة الواعية بقوتها ولا بطاعة قومها لها، بل قالت: نختبر سليمان هذا لنتعرف: أهو جبار من طلاب السطوة والثروة أم هو نبي صاحب إيمان ودعوة؟ ولما التقت سليمان بقيت عن ذكائها واستنارة حكمها تدرس أحواله، وما يريد وما

يفعل، فاستبان لها أنه نبي صالح ...

وتذكرت الكتاب الذي أرسله إليها: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ 30 أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: 30، 31]، ثم قررت طرح وثنيتها الأولى والدخول في دين الله قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: 44].

هل خاب قوم ولوا أمرهم امرأة من هذا الصنف النفيس؟ إن هذه المرأة أشرف من الرجل الذي دعته ثمود لقتل الناقة ومراغمة نبيهم صالح ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ 29 فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ 30 إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ 31 وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: 29 – 32].

ومرة أخرى أؤكد أني لست من هواة تولية النساء المناصب الضخمة، فإن الكملة من النساء قلائل، وتكاد المصادفات هي التي تكشفهن، وكل ما أبغي هو تفسير حديث ورد في الكتب، ومنع التناقض بين الكتاب «القرآن» وبعض الآثار الواردة، أو التي تفهم على غير وجهها! ثم منع التناقض بين الحديث والواقع.

الحديث النبوي لا يناقض الواقع:

وثاني الأمرين: أن الحديث النبوي – كما لا يناقض القرآن – لا يمكن أن يناقض التاريخ الصحيح، والواقع المشاهد. يقول الشيخ:

إن إنجلترا بلغت عصرها الذهبي أيام الملكة «فيكتوريا»، وهي الآن بقيادة ملكة ورئيسة وزراء[82]، وتعدّ في قمة الازدهار الاقتصادي والاستقرار السياسي.

---

(82) يقصد بالملكة: إليزابث، وبرئيسة الوزراء: مارجريت ناتشر.

فأين الخيبة المتوقعة لمن اختار هؤلاء النسوة؟

وقد تحدثت في مكان آخر عن الضربات القاصمة التي أصابت المسلمين في القارة الهندية على يدي «أنديرا غاندي» وكيف شطرت الكيان الإسلامي شطرين فحققت لقومها ما يصبون!

على حين عاد المرشال «يحيى خان» يجرر أذيال الخيبة!!

أما مصائب العرب التي لحقت بهم يوم قادت «جولدا مائير» قومها فحدّث ولا حرج، قد نحتاج إلى جيل آخر لمحوها! إن القصة ليست قصة أنوثة وذكورة! إنها قصة أخلاق ومواهب نفيسة.

لقد أجرت «أنديرا» انتخابات لترى: أيختارها قومها للحكم أم لا؟ وسقطت في الانتخابات التي أجرتها بنفسها! ثم عاد قومها فاختاروا من تلقاء أنفسهم دون شائبة إكراه!

أما المسلمون فكأنهم متخصصون في تزوير الانتخابات للفوز بالحكم ومغانمه برغم أنوف الجماهير.

أي الفريقين أولى برعاية الله وتأييده والاستخلاف في أرضه؟ ولماذا لا نذكر قول ابن تيمية: إن الله قد ينصر الدولة الكافرة - بعدلها - على الدولة المسلمة بما يقع فيها من مظالم؟

وما دخل الذكورة والأنوثة هنا؟ امرأة ذات دين خير من ذي لحية كفور!![83].

---

(83) انظر: «السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث» (ص: 56 - 59) ط. دار الشروق، السادسة.

وهذا هو موقف الشيخ الغزالي من النص في هذه القضية، فهل خرج فيها على الإجماع؟

نحن نعلم أن في الإجماع كلامًا طويل الذيول والأكمام: في إمكان وقوعه، وفي إمكان العلم به إذا وقع، وفي حجّيته، وفي دعاوى الإجماع الكثيرة ولا إجماع، حتى روي عن الإمام أحمد: من ادعى الإجماع فقد كذب. ما يدريه: لعل الناس اختلفوا وهو لا يدري! فإن كان ولا بد فليقل: لا أعلم الناس اختلفوا!

ومع هذا نرى كثيرًا مما يقال فيه: لا أعلم فيه خلافًا، يثبت فيه الخلاف.

المهم أن قضية عدم تولي المرأة للوظائف العامة، لم يثبت فيها إجماع، بل ثبت فيها الخلاف. فالحنفية يجيزون للمرأة أن تتولى القضاء في الشئون المدنية والشخصية وغيرها، ما عدا الأمور الجنائية، التي لا تقبل عندهم شهادتها فيها.

والطبري وابن حزم والظاهرية يجيزون لها تولي القضاء بصفة عامة. بل ابن حزم يجيز لها تولي جميع الوظائف فيما عدا منصب الخليفة، أو الإمام الأعظم، أو الرئاسة العليا للدولة.

ويمكننا أن نقول هنا: إن منصب الخلافة أو الإمامة العظمى أكبر من مجرد رياسة دولة إقليمية. فهذا في نظر السياسة الشرعية يُعَدّ واليًا على إقليم، وأين هذا من الخليفة أو الإمام العام لأمة الإسلام؟

مقدار دية المرأة في العقوبات:

ومما أخذ على فقه الغزالي: قوله بأن دية المرأة مثل دية الرجل، وحجته: أن الدية في القرآن واحدة للرجل والمرأة، والزعم بأن دم المرأة أرخص، وأن حقها أهون: زعم كاذب مخالف لظاهر الكتاب العزيز. فإن الرجل يقتل في المرأة، كما تقتل المرأة

في الرجل، فدمهما سواء باتفاق، فما الذي يجعل دية دون دية؟

ويمكن للشيخ أن يستدل أيضًا بحديث: «**في النفس مائة من الإبل**» ولم يفرق بين رجل وامرأة.

والذين ردوا على الشيخ الغزالي انتقدوه بأمرين:

1 - أنه خالف الحديث الذي ذكر أن دية المرأة نصف دية الرجل.

2 - وأنه خالف إجماع الفقهاء.

وهذا النقد ضعيف لأمرين:

الأول: أن الحديث في تنصيف دية المرأة لم يصح عن النبي ﷺ. فقد جاء عن معاذ بن جبل، وقال البيهقي: إسناده لا يثبت مثله ... وجاء عن علي بن أبي طالب، وفيه انقطاع. وليس في «الصحيحين» ولا في أحدهما شيء من ذلك البتة.

الثاني: أن الإجماع لم ينعقد في هذه القضية، فقد خالف فيها الأصم وابن علية، كما ذكر الشوكاني[84].

هذا وقد علل بعض الفقهاء المعاصرين - ومنهم شيخنا الكبير الأستاذ مصطفى الزرقا - بأن الدية تُعَدّ تعويضًا عن مفقود. وفي العوض يلاحظ التكافؤ، فقتل الرجل خسارة للأسرة أفدح من مقتل المرأة.

ولكن هذا يرد عليه بأن الشارع سوَّى في الدية بين الرجل الراشد والطفل الرضيع، رغم أن الخسارة بفقدهما ليست واحدة ولا متساوية، وكذلك سوى بين

---

(84) انظر: «نيل الأوطار» (7/ 224 - 227)، ط. دار الجيل، بيروت.

العالم الكبير والأمي، وبين التقي الصالح والشرير الخبيث؛ لأن نظر الشارع هنا إلى النفس الإنسانية فحسب، وقيمتها كما في القرآن: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: 32].

كل ما يؤخذ على الشيخ هنا قوله: وأهل الحديث يجعلون دية المرأة على النصف من دية الرجل، وهذه سوأة فكرية وخلقية رفضها الفقهاء المحققون!

فالواقع أن معظم الفقهاء يقولون بذلك وليس أهل الحديث وحدهم، وكان ينبغي التعبير بلفظ أخف وألطف من لفظ «السوأة»، فإنما هو اجتهاد ممن قاله: يحتمل الصواب والخطأ، وقائله مأجور عليه، وإن كان أخطأ فيه، كما هو معلوم.

قتل المسلم بالكافر الذمي:

ومن الآراء الفقهية التي تبناها الشيخ الغزالي، وانتقدها خصومه بعنف: اختياره مذهب الأحناف في مشروعية قتل المسلم قصاصًا إذا اعتدى على ذمي معاهد وقتله عمدًا.

وإنما اعترضوا على الشيخ لأنه أعرض عن الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره: «**لا يُقتل مسلم بكافر**».

والشيخ يقول هنا: إننا لا نحرص على تضعيف حديث يمكن تصحيحه، وإنما نحرص على أن يعمل الحديث داخل سياج من دلالات القرآن ... وحديث الآحاد يفقد صحته بالشذوذ والعلة القادحة، وإن صح سنده.

وحديث: «**لا يُقتل مسلم بكافر**» معلوم بمخالفته للنص القرآني: ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة: 45].

يقول الشيخ: وعند التأمل نرى الفقه الحنفي أدنى إلى العدالة، وإلى مواثيق حقوق الإنسان وإلى احترام النفس البشرية، دون نظر إلى البياض والسواد، أو الحرية والعبودية، أو الكفر والإيمان. لو قتل فيلسوف كانس طريق قُتل فيه، فالنفس بالنفس.

وقاعدة التعامل مع مخالفينا في الدين ومشاركينا في المجتمع: أن لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، فكيف يهدر دم قتيلهم؟![85].

وأضيف إلى ما ذكره الشيخ: أن القول المذكور ليس قول أبي حنيفة وأصحابه وحدهم، بل هو قول الشعبي والنخعي أيضًا من أئمة السلف.

كما أضيف أن أبا حنيفة ومن معه تأولوا حديث: «**لا يُقتل مسلم بكافر**» بأن المراد به الكافر الحربي، بدليل ما جاء في حديث آخر: «**لا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد في عهده**» أي بكافر، والمراد به: المحارب، بدليل جعله مقابلًا للمعاهد؛ لأن المعاهد يقتل بمن كان معاهدًا مثله من الذميين إجماعًا، فيلزم أن يقيد الكافر في المعطوف عليه بالحربي، كما قيد في المعطوف؛ لأن الصفة بعد متعدد ترجع إلى الجميع اتفاقًا.

واستدلوا أيضًا بآثار جاءت عن علي وعن عمر الذي قال: إن كانت طيرة في غضب فعلى القاتل آربعة آلاف، وإن كان القاتل لصًّا عاديًا (معتديًا) فيقتل.

وقد تمسك بما روي عن عمر مالك والليث، فقالا: يقتل المسلم بالذمي إذا قتله

---

(85) انظر: «السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث» (ص: 24، 25)، ط. سادسة.

غيلة. قال: والغيلة أن يضجعه فيذبحه![86].

والواقع: أن هذا الرأي هو الذي يليق بزماننا غيره. ولا يخفى على أحد ما يثار اليوم في وجه الدعوة إلى تحكيم الشريعة الإسلامية من شبهات، في مقدمتها موقف الأقليات الدينية في كثير من الأقطار التي تشتمل على غير المسلمين، فهم يقولون: إننا في ظل الشيعة لا نأمن على أنفسنا، فنحن نقتل عمدًا، ولا يقتص من قاتلنا إذا كان مسلمًا، فدمنا أرخص من دم المسلم. ونحن - بترجيح هذا الرأي الذي حكمت به الدولة العباسية والدولية العثمانية قرونًا طويلة - نبطل هذه الأعذار، ونعلي راية الشريعة الغراء.

***

(86) انظر: «نيل الأوطار للشوكاني» (7/ 150 - 157).

مرتكزات فقه الغزالي

ومما ذكرناه من مقتطفات من فقه الغزالي في مختلف شئون الحياة، يتبين لنا: أنه لا ينطلق في فقهه هذا من رأي محض أو هوى متبع، إنما ينطلق من مرتكزات أو أصول يستند إليها، ويعول في الاستنباط عليها.

1 - **الكتاب والسنة معًا:**

أول هذه المرتكزات أو الأصول هو: النص المعصوم، الذي جاء به الوحي الإلهي، ويتمثل هذا النص في القرآن والسنة جميعًا.

فالقرآن هو المصدر الأول، وهو أصل الأصول، المقطوع بثبوته وتواتره اليقيني. والسنة هي البيان النظري، والتطبيق العملي له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44].

والبيان لا يجوز أن يناقض المبين، لهذا يرفض الشيخ كل سنَّة تناقض القرآن، ولا يتكلف أو يتمحل في تأويلها. ويقول: إذا كانت مخالفة الراوي الثقة من هو أوثق منه – وإن كان عدلًا ضابطًا – تجعل الحديث شاذًّا، أي تنقله من دائرة القبول إلى دائرة الرفض، أو من دائرة الصحة والحسن إلى دائرة الضعف، فكيف إذا خالف الحديث القرآن؟

وهو لهذا يرى ما رآه الإمام الشافعي من أن السنة لا تنسخ القرآن. بل هو يرى – أكثر من ذلك – أن القرآن ليس فيه منسوخ. وهو يتفق في هذا مع اتجاه الشيخ محمد عبده في تفسير آية: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: 106] في أن المقصود بالآية: الآية الكونية لا التنزيلية.

وهو ما ذهب إليه العلامة الشيخ محمد الخضري في «تاريخ التشريع»، وما حكاه الفخر الرازي عن أبي مسلم الأصفهاني من المفسرين القدامى، وبدا في كثير من الأحيان كأنه يميل إليه!

وقد ندد الغزالي بما قاله بعض المفسرين من أن «آية السيف» نسخت أكثر من مائة آية في كتاب الله.

وفي بعض كتبه - كتاب «جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج» - وضح الشيخ ببيانه الرائع أن هذه الآيات كلها محكمات، لا شائبة فيها للنسخ، وتكلم عنها آية آية، بما لا يدع مجالًا لأي تقول أو ريبة.

أما السنة فخلاصة قول الشيخ فيها: أن طاعة رسول الله من طاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عمران: 132]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80].

وأن من زعم أن الرسول يجوز عصيانه فيما أمر به ونهى عنه، فهو كافر باتفاق المسلمين ... وقد بُذلتْ جهود لم يبذل مثلها في الوقوف على تراث بشر؛ كي يُعرف ماذا قال الرسول حقًّا ... وانتهت هذه الجهود بجملة حقائق محترمة:

1 - إن في السنة ما هو متواتر لفظًا أو معنى، وهذا النوع من السنن يشبه القرآن الكريم فيما أتى به من أحكام، ولا يمكن رده. وهو كثير في التراث النبوي وعليه تقوم الكثرة الكاثرة من الأحكام المقررة. وليس بصحيح أن المتواتر في السنة ضيق النطاق، ربما كان ذلك فيما تواتر لفظه، أما ما تواتر معناه فهو أساس مقررات فقهية كثيرة. والواقع أن أخبار الآحاد من الناحية العملية لا تشكل مساحة كبيرة من السلوك الإسلامي المهم، فإن ما لا بد منه تكفلت به

نصوص ثابتة بيقين ...

2 - وجمهور الأمة يقبل سنن الآحاد ويعُدها دليلًا على الحكم الشرعي الذي نتعبد الله بإقامته. ومن الناس من عد هذه السنن مفيدة لليقين الذي يفيده التواتر - ما دامت صحيحة - ولكن جمهور العلماء يقبل سنن الآحاد في الأحكام العملية والفروع الفقهية ولا ينقلها إلى ميدان العقيدة الذي يقوم الأمر فيه على القطع. ومعنى ذلك أن سنن الآحاد تفيد الظن العلمي وحسب ...

3 - مع اتفاق الفقهاء على أن سنن الآحاد قرينة مقبولة في إفادة الحكم الشرعي، فإن عددًا من الأئمة يتجاوز هذه السنن إذا كانت هناك قرينة أقوى منها في إفادة حكم الشرع. فـ «مالك» مثلًا يرى عمل أهل المدينة أدل على السنة النبوية من حديث الآحاد مهما كانت صحته. و«الأحناف» يرون أن حديث الآحاد لا ينهض على إثبات الفرضية وحده، ولا ينهض كذلك على إثبات الحرمة ولكنه يثبت أحكامًا أقل رتبة ... وغالى بعضهم فجعل القياس القطعي أرجح من سنن الآحاد، ودراسة السنة علم له رجاله الخبراء، ولا يقبل في هذا الميدان ما يرسله السفهاء من أحكام طائشة تجعل التطويح بالسنة الشريفة أمرًا جائزًا، أو تجعل تكذيب حديث ما هوى مطاعًا.

إنه لا فقه بغير سنّة ولا سنّة بغير فقه، وقوام الإسلام بركنيه كليهما من كتاب وسنة. وفي ذلك يقول الأستاذ الإمام حسن البنا: «القرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقًا لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف، ويرجع في فهم السنة إلى رجال الحديث

الثقات»[87].

2 - اعتبار المصالح ما لم تعارض النص:

ومن مرتكزات فقه الشيخ الغزالي: أنه يأخذ بالمصالح المرسلة، ويجعل لها اعتبارًا، بشروطها المعتبرة شرعًا، وأولها. ألا تعارض نصًّا صحيحًا صريحًا.

وقد كتب الشيخ بحثًا جيدًا تحت عنوان: «بين النص والمصلحة» في كتاب: «دستور الوحدة الثقافية» رد فيه على الذين يأخذون بالمصالح المزعومة وإن عارضت النصوص. ومما قاله هنا:

«جرت على الألسنة عبارة غامضة: أن عمر بن الخطاب ألغى بعض النصوص، أو أوقف العمل بها على نحو ما؛ لأنه رأى المصلحة في ذلك![88]

وهذا كلام خطير، معناه أن النص السماوي قد خالف المصلحة العامة، وأن البشر لهم - والحالة هذه - أن يخرجوا عليه، ويعدموه!

وكلا المعنيين كاذب مرفوض؛ فلا يوجد نص إلهي ضد المصلحة، ولا يوجد بشر يملك إلغاء النص.

ولننظر إلى ما نسب لعمر في هذا الشأن، قالوا: منع سهم الزكاة أن يصرف للمؤلفة قلوبهم بحجة أن الإسلام استغنى عن تألفهم.

وفهم صنيع عمر على أنه تعطيل للنص خطأ بالغ، فعمر حرَم قومًا من الزكاة؛

---

(87) «دستور الوحدة الثقافية» (ص: 33، 34).

(88) انظر: ردنا المفصل على هذه الدعوى في بحثنا المنشور بحولية كلية الشريعة بجامعة قطر، العدد العاشر: «حوار حول العلاقة بين النص والاجتهاد».

لأن النص لا يتناولهم لا لأن النص انتهى أمده.

هب أن اعتمادًا ماليًّا في إحدى الجامعات خصص للطلبة المتفوقين، فتخلف في المضمار بعض من كانوا يصرفون بالأمس مكافآتهم، فهل يعد حرمانهم إلغاء للاعتماد؟ إنه باق يصرف منه من استكملوا شروط الصرف.

وقد رفض عمر إعطاء بعض شيوخ البدو ما كانوا ينالونه من قبل تألفًا لقلوبهم، أو تجنبًا لشرورهم، بعدما استطاع الإسلام أن يهزم الدولتين الكبريين في العام، فهل يظل على قلقه من أولئك البدو النهابين أمثال عباس بن مرداس والأقرع بن حابس؟

أبَعد هزيمة كسرى وقيصر يبقى الإسلام يتألف حفنة من رجال القبائل الطامعين؟ ليذهبوا على الجحيم إن رفضوا الحياة كغيرهم من سائر المسلمين!

إن مصرف «المؤلفة قلوبهم» باق إلى قيام الساعة يأخذ منه من يحتاج الإسلام إلى تألفهم، ويذاد عنه من لا حاجة للإسلام فيه.

وعمر وغيره من الخلفاء والحكام أعجز من أن يعطلوا نصًّا، وأتقى من أن يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ويجب أن تفهم التصرفات بدقة، ولا تساق التهم جزافًا ...

وقالوا: إن عمر عطل حدّ السرقة عام المجاعة ... ونقول: إن الجائع الذي يسرق ليأكل أو ليؤكل أولاده لا قطع عليه عند جميع الفقهاء، فما الذي عطله عمر؟

إن قطع السارق المعتدي الظلوم هو حكم الله إلى آخر الدهر، ولا يقدر عمر ولا غير عمر على وقف حكم الله.

ولإقامة الحد شروط مقررة؛ فمن سرق دون نصاب، أو سرق من غير حرز لم تقطع يده، ولا يقال: عطل الحد، بل يقال: لم يجب الحد.

والذي حدث أيام عمر: أن المدينة وما حولها تعرضت لقحط عام، وفي عصرنا هذا نسمع بمجاعات في آسيا وإفريقيا يهلك فيها الألوف، وليس بمستغرب أن يخرج الناس من بيوتهم يطلبون القوت من أي وجه، وقد يحملهم ذلك على الخطف أو السرقة، فهل تعالج تلك الأحوال بالسيف؟

إن عمر درأ الحد بالشبهة – كما أمرت السنة الشريفة – ولا يعاب إذا توسع في هذا الدرء، وقدر آلام الجياع في تلك المحن المجتاحة ...

ذاك تفسير ما روي عنه: إنا لا نقطع في عام جدب. وقد نقلنا في مكان آخر رفضه لقطع أيدي الغلمان الذين سرقوا ناقة لابن حاطب بن أبي بلتعة. وظاهر أن مسلكه إجراء استثنائي تجاه ظرف استثنائي، وأنه نفذ الحد عندما وجب، ودرأه بالشبهة عندما لم يقم.

إن المصلحة لا بد من رعايتها، ومعنى النص الشرعي أن المصلحة قد ارتبطت به أبدًا، فهو دليلها وضمانها، وأي تعطيل له إنما هو خدش للمصلحة أو تطويح لها.

ونحن نلحظ في العقوبات الشرعية المنصوص عليها: أنها تناولت عددًا معينًا من الجرائم، فالحدود المقررة تعد على الأصابع ... ويستطيع الحاكم في جرائم لا تحصى أن يضمن المصالح بما شاء من عقوبات.

هناك جرائم الربا والغصب والفرار من القتال والغش والخيانة، وأكل مال اليتيم، وكل أنواع العدوان على المال والعرض والدم، التي لا تتناولها الحدود أو ضروب القصاص، وهذه سيئات كثيرة، ودائرة التعزير تسعها، والقضاء يقدر على

إرصاد ما يرى من عقوبات تحفظ مصالح الأمة، وتقر الأمن هنا وهناك.

إن المصلحة لا يمكن أن يحفظها تعطيل نص، فإن إمضاء أمر الله نماء وبركة. وفي الحديث أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لحدٌّ يقام في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا ثلاثين صباحًا**».

وعندما يشكل المجتمع بالوعد والوعيد والرغبة والرهبة وفق أوامر الله سبحانه، فإن الرخاء يعم، والشؤم يستخفي، والمخاوف كلهن أمان ...

والفقه الصحيح أن نتعرف على المصلحة حيث لا نص، وأن نجتهد في تفهمها ثم في تحقيقها، ناشدين إرضاء الله وخير الأمة ...

الإسلام مثلًا لم يضع رسمًا محددًا لأسلوب الحكم، وإنما وضع له أخلاقًا ترعى وقيمًا تصان، فكيف نولي حاكمًا؟ وكيف نعزله؟ أو كيف نحاسبه ونراقبه؟ ما أجهزة الشورى، وكيف نستوثق من التقاء الآراء الناضجة فيها؟ وكيف تمضي في مجراها دون إرهاب أو إغراء؟

للأمم في هذه الميادين أن تجتهد في وضع النظام الذي يحقق مصلحتها دونما قيد.

وأذكر أن أحد الناس سألني – ورئيس الجمهورية يختار لبضع سنين – فقال: أليست هذه بدعة ...؟! قلت: ما البدعة؟ قال: توقيت مدة الرياسة ... فإن الأصل اختيار الحاكم مدى الحياة!

قلت له: التوقيت والإطلاق سواء من الناحية الفقهية، وتتواضع الأمم على ما تراه أكفل لحقوقها، فإذا آثرت أن يكون اختيار الحاكم لأمد معلوم فلها ذلك ... قال: كان اختيار الخليفة الأول مدى الحياة ... قلت: آثر الصحابة أحد الوجوه، ولا تحريم للوجه الآخر ...

قال: ألا يكون سنة؟ قلت: لا ... لا سنة إلا بنص، ولا نص هنا.

إن فعل النبي – عليه الصلاة والسلام – قد يكون دليل إباحة، وقد يكون دليل أفضلية، ولا وجوب أو ندب إلا بدليل، أو بنص.

وفي مجال المصالح المرسلة يستطيع الساسة المسلمون أن يصنعوا الكثير لأمتهم، على ألا يصطدموا بنص قائم، فإن هذه النصوص معاقد المصلحة العامة وإن عميت عن ذلك أنظار»[89].

3 - **احترام المذاهب دون تعصب:**

ويقوم فقه الغزالي على احترام جميع المذاهب الفقهية، المتبوعة منها وغير المتبوعة، دون تعصب لها أو لواحد منها. ويرى أئمة المذاهب قممًا عالية في رسوخ العلم، وفي تقوى الله، وفي الصلابة في الحق، والشجاعة في الرأي.

وهو ينكر على بعض الشباب الأغرار طعنهم الفج في هؤلاء الأئمة واجتهاداتهم، مساوين رءوسهم برءوسهم، قائلين: هم رجال ونحن رجال!

بل أحيانًا يعُدون أنفسهم أعلى من هؤلاء الأئمة كعبًا، وأرفع قدرًا، وأنهم حصلوا من العلم ما لم يحصلوا، وأدكوا من السنة ما لم يدركوا!!

والشيخ يحترم المدرستين الشهيرتين في تراثنا الفقهي: مدرسة الأثر، ومدرسة الرأي، كما يقال في الاصطلاح المأثور.

ويرى أن مدرسة الأثر لا تهمل الرأي ولا إعمال العقل في فهم النص والقياس عليه. كما أن مدرسة الرأي لا تهمل الآثار والسنن والمرويات.

---

(89) انظر: «دستور الوحدة» (ص: 44 – 49).

وهذا صحيح. وقد بيّن العلامة الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه عن «مالك» أنه من أئمة أهل الرأي، وإن كانوا يعدونه عادة من مدرسة الأثر. وكل من درس فقه الإمام مالك يوافق أبا زهرة على ذلك.

وقد يميل الشيخ في كثير من الأحيان إلى مدرسة الرأي في اجتهاداتها، المعتمدة على عمومات القرآن وظواهره، كقولهم بوجوب الزكاة في جميع الزروع والثمار من كل ما أخرجت الأرض، ومنها الفواكه والخضراوات والشاي والقطن وغيرهما مما يؤكل وما لا يؤكل أخذًا بعموم قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 267]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 141].

وهو ما رجحه شيخ المالكية في عصره القاضي أبو بكر ابن العربي، وضعف مذهبه هنا – وهو مذهب مالك – مقويًا مذهب أبي حنيفة الذي جعل الآية السابقة مرآته فأبصر الحق، كما بيّنا ذلك في «فقه الزكاة».

ومع هذا نراه ينتقد المدرسة في أحيان أخر، إذا رآها لم توفق في اجتهادها في قضية من القضايا.

فأهل الرأي قد يتجاوزون أحاديث صحاحًا لا معنى لتركها، ولا سناد من فكر أو مصلحة لذلك. فالأحناف مثلًا يرون الخمر محرمة لذاتها، ما أسكر منها وما لم يسكر، وهي لديهم النيئ من عصير العنب إذا غلا واشتد وقذف بالزبد، أما أنواع العصير الأخرى فإن المحرم منها هو القدر المسكر!! أما القدر الذي لا يسكر فليس

بحرام ... ربما كان مكروهًا فقط!!

وهذا كلام يرفضه العقل والنقل، فإن الخمر ما غطى العقل من أي مادة صلبة أو سائلة، وليست بين رب السماء وعصير العنب خصومة خاصة!

إن كل شراب مسكر، أو كل عقار مغيب للعقل، إنما هو حرام قل أو كثر، والتحليل العلمي للمسكرات والمخدرات يكشف عن تشابه مطلق لفعلها وأثرها في الإنسان، فلم التفريق بين المماثلات؟ والأحاديث الواردة في أن الخمر تتخذ من مواد كثيرة أحاديث قائمة «أي صحيحة وثابتة» ومحاولة تأويلها لا تستساغ[90].

ويمتدح الشيخ مدرسة التجديد الإسلامي الشهيرة التي قامت في القرنين السابع والثامن على يد شيخ الإسلام ابن تيمية وتلامذته، ويسميها الشيخ «مدرسة الموازنة والترجيح». والحق أن ابن تيمية بلغ رتبة الاجتهاد المطلق، وإن بقي حنبليًّا في الأعم الأغلب؛ لأن مذهب ابن مذهب واسع، ولا تخلو مسألة فيه من عدد من الروايات يبلغ أحيانًا خمسًا أو ستًّا أو أكثر. كما نرى ذلك في كتاب «الفروع» في مجلداته الستة الضخام لابن مفلح، أو في كتاب «الإنصاف في الرجح من الخلاف» للمرداوي في مجلداته الاثني عشر. فيستطيع المجتهد أن يختار ويجتهد وهو داخل المذهب.

يقول الغزالي عن مدرسة ابن تيمية: إنها مدرسة استوعبت الأخبار المروية، وأدركت وجوه الحكمة والمصالح التي تتبناها الشريعة، أي أنها أفادت من الرأي والأثر معًا، وإن كان انتصارها للأثر أظهر، ودفاعها عنه أذكى وأقدر.

---

(90) انظر: «دستور الوحدة الثقافية» (ص: 81، 82).

ويرى الغزالي أن آراء ابن تيمية في مسائل الطلاق - مثل: عدم إيقاع الطلاق الثلاث بلفظة واحدة، والطلاق البدعي ونحوه - أحب إليه، وأصح حجة من غيره، وأحفظ لكيان الأسرة في عصرنا. والغريب أن أناسًا من أتباع ابن تيمية كرهوا منه هذا المذهب، واتهمه آخرون بأن الشيعة أثروا على تفكيره!! والرجل أقوى شخصية من أن يتأثر بأحد.

وفي القرن الثالث عشر والرابع عشر نشأت مدارس أخرى.

هناك مدرسة أشبه بأن تكون امتداد لمدرسة الأثر عرضت الفقه الإسلامي من الكتاب والسنة مباشرة، وأفادت من الجهد العقلي لرجال المذاهب التقليدية، وضمت إلى ذلك جهد الفقهاء الظاهرين وانتفعت من مدرسة ابن تيمية، وأحيت أسماء كانت مغمورة في ميدان الأثر والرأي جميعًا، والقاسم المشترك بين رجال هذه المدرسة عرض الفقه من أصوله الأولى.

يمثل هذه المدرسة الصنعاني في «سبل السلام»، والشوكاني في «نيل الأوطار»، والسيد سابق في «فقه السنة»، وصديق خان في مؤلفاته، والألباني في رسائله.

وعندي أن هذا الجهد يقوم على الاختيار الشخصي، والتنسيق أو التلفيق بين وجهات النظر المختلفة، وأصحابه مقدورون فيما صنعوا، ولعلم أحسن تصويرًا للإسلام من مؤلفي «المتون» المذهبية.

وهم أيضًا يخطئون ويصيبون.

وانتماؤهم للسنة لا يجعل التسليم بقولهم واجبًا، بل إن بعضهم قد يخالف بعضًا في كثير من الأحكام.

وهناك مدرسة أخرى أقرب إلى مدرسة الرأي وإن كان عنوانها سلفيًّا هي

مدرسة الشيخ محمد عبده، وتلميذه الشيخ رشيد رضا، ويتبعهم الشيخ محمود شلتوت، ومحمد عبد الله دراز، ومحمد البهي، ومحمد المدني، وقبلهم الشيخ المحقق محمد الخضري، ومنهم الشيخ محمد أبو زهرة[91].

هذه المدرسة لها ملامح بينة؛ فهي – وإن قامت على النقل – إلا أنها تروج للعقل وتقدم دليله، وترى العقل أصلًا للنقل ...

وهي تقدم الكتاب على السنة، وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الآحاد ...

وهي ترفض مبدأ النسخ، وتنكر إنكارًا حاسمًا أن يكون في القرآن نص انتهى أمده.

وترى المذهبية فكرًا إسلاميًّا قد ينتفع به، ولكنه غير ملزم، ومن ثم فهي تنكر التقليد المذهبي، وتحترم علم الأئمة.

وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية، ولا تلقي بالًا إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمة أو الحديثة.

وقد حاولت هذه المدرسة أن تقود الأزهر، وتفرض وجهتها على المسلمين، ولكن التيارات العاصفة كانت أقوى منها فوقفتها أو جرفتها.

وبديه أن يكون في اجتهادات رجالها أخطاء، فتفسير الشيخ محمد عبده للملائكة – كما ذكره تلميذه رشيد رضا – يرفضه الكافة. وتبرم الشيخ أبو زهرة بحكم الرجم كذلك! وفي فتاوى الشيخ محمود شلتوت ما يحتاج إلى مراجعة!!

---

(91) ومنهم المشايخ: أحمد إبراهيم، وعبد الوهاب خلاف، وعلي الحفيف.

ويبقى – بعد هذا الإلماح إلى المدارس الفقهية في تاريخنا العلمي – أن نقول:

إن الإسلام صائغ أولئك الرجال كلهم، وهم لم يصوغوه.

وإن مصادر الإسلام معصومة لأنها من عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم؛ لأنه من عند الناس.

وإن الانتفاع بكل فقيه مخلص ذكي يدعم مسيرتنا العلمية، ولا يضيرها أبدًا، ويجب أن تنتفي الحساسية والكراهية للأشخاص.

وإن وجود هنات في رأي هذا أو سيرة ذاك لا تهدم عبقريته أو تخدش تفوقه إن كان صاحب عبقرية وتفوق(92).

4 - الفقه في خدمة الدعوة:

ومن منطلقات الشيخ الغزالي في الجانب الفقهي: أن الفقه ينبغي أن يكون في خدمة الدعوة إلى الإسلام، وألا تستخدم الفتاوى الجزئية المبتسرة للتنفير من قبول الإسلام من غير المسلمين، أو من التوبة والهداية للعصاة والشاردين من المسلمين.

ومن هنا يرفض الشيخ ما رفض شيخه الإمام حسن البنا من التقليد الأعمى والمطلق للأئمة السابقين، لا سيما من أهل العلم، بل عليهم أن يستكملوا نقصهم العلمي، وأدواتهم الثقافية، حتى يبلغوا الدرجة التي يتمكنون فيها من النظر والترجيح بين الأقوال، وأن يجتهدوا لزمنهم وبيئتهم كما اجتهد الأولون لأزمانهم وبيئاتهم.

ولا بد للفقيه المعاصر من أن ينظر في الميراث العلمي للعلماء المتقدمين في

---

(92) انظر: «دستور الوحدة الثقافية» (ص: 74 – 87).

أعصار الإسلام المختلفة، نظرة جديدة، في ضوء مقررات الكتاب والسنة، ومقاصد الإسلام، وكلياته القطعية، ويأخذ من أقوال الشراح ويدع، فالنصوص معصومة، ولكن أفهام الشراح وأقوالهم في تفسيرها غير معصومة.

وقد سمعته مرة يقول: إنه يريد أن يكتب بحثًا عنوانه: قال الشارع، وقال الشارح: يكشف فيه النقاب عن كثير من الأقوال التي ارتضاها الشراح، وهي مخالفة لجوهر الهدي الإلهي، والهدي النبوي، وهو ما جاء به الشارع.

ولا أدري: هل كتب هذا البحث أو لا؟ ولكني أذكر نموذجين لهذا النوع ذكرهما في بعض كتبه:

النموذج الأول يقول فيه الشيخ:

1 - كنت إذا درَّست لطالبات الجامعة بدأت محاضرتي بإلقاء السلام، ومكثت على ذلك ما شاء الله حتى قالت لي طالبة ذات يوم: إن الأستاذ الذي يعلِّمنا السنة أفهمنا أن إلقاء السلام على النساء حرام! فقلت مسرعًا: هذا خطأ، فإني قرأت في السنن أن النبي ﷺ كان يلقي السلام على النساء، وقد ذكر البخاري في صحيحه بابًا لسلام الرجال على النساء، والنساء على الرجال يفيد إباحة ذلك، وعلى أي حال فسألقى زميلي وأتثبتُ منه، فلعلي أنا مخطئ!

والتقيت بالزميل، وهو رجل غيور صالح دارس لعلوم الحديث، وقصصت عليه ما حدث ...

فقال: نعم، ذكرت للطالبات أن السلام عليهن لا يجوز! وما تسوقه أنت في باب الجواز من أحاديث تبيح ذلك إنما هو خصوصية للنبي عليه الصلاة والسلام! أو عند أمن الفتنة! أو إذا كان النسوة عجائز، أما إلقاء السلام على الفتيات الجميلات

فلا ...

قلت: دعوى الخصوصية مرفوضة، والسياق عند البخاري وغيره يبيح لنا إلقاء السلام دون تصفح للوجوه: هل هي جميلة أم لا؟! ولا أدري من أي أتى الشارح بهذا التقسيم؟

قال: لا بد من احترام قول الشارح!!

والنموذج الثاني يقول فيه:

2 - في حديث خروج النساء إلى مصلى العيد أكد الرسول ﷺ هذا الخروج بقوله: «**من لا جلباب لها تستعير جلبابًا من جارتها وتخرج**»، ونص على أن الخارجات هن العوائق وذوات الخدور أي الشابات المكنونات. وجاء عن ابن عباس أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يخرج نساءه وبناته في العيدين ...

ومع ذلك فإن شارح البخاري نبّه إلى أن الخارجات المأذون لهن هن العجائز! وأن النساء الخارجات إذا خرجن بإذن أزواجهن فبملابس الخدمة، أي ملابس الطبخ والكنس!

لِمَ هذا كله؟ ومن نتبع: الشارع أم الشارح؟ لقد انتهى رأي الشراح بمنع خروجهن نهائيًا، وغلبت تقاليد العرب تعاليم الإسلام ...

والذي نلفت إليه الأنظار أن هناك علماء دين ورجال دعوة يعرفون قول الشارح وحده، فإذا انهزم هؤلاء وأولئك في ميادين الحياة، فهل الذي انهزم السنة النبوية أو الذين أساءوا فهمها؟

إن حظ الإسلام تعيس بهذا التفكير المعوج ...

بل إن الحملة على السنة كلها - وهي حملة نقاومها بقوة - تعود إلى قصور كثير من المشتغلين بالسنة، وإلى عجزهم المنكور في الارتباط بالقرآن الكريم والانسياق مع توجيهاته المرنة[93].

ولا يخفى على منصف أن وجهة نظر الشيخ أصح وأرجح من وجهة مخالفيه، والحق أنهم متكلفون في مخالفة ظاهر السنة.

تضخيم الخلافيات مرفوض:

ينكر شيخنا محاولة من يريدون رفع الخلاف، وجمع الناس على رأي واحد - هو بالطبع رأيهم - مع وجود الخلاف وأسبابه منذ عصر الصحابة، بل منذ عصر النبوة! فإن هذه المحاولة تزيد الخلاف حدة! ولا تنقصه!

كما ينكر بشدة تضخيم الخلافيات، وشغل الناس بها، والتشنيع على المخالفين فيها. يقول حفظه الله:

«إن العقائد والعبادات الرئيسية والسنن العملية جاءت هي كلها عن طريق التواتر القاطع، وإن أصول الدين وأركان الطاعات وقواعد السلوك لا يرتقي إليها لبس أو تفاوت. وإنما يحدث الخلاف في أمور ثانوية لا يضخمها إلا أصحاب الفكر المختل.

ما قيمة أن يشرب امرؤ قائمًا أو قاعدًا؟ لقد جاءت مرويات شتى في ذلك ... صح عن الخمسة[94] - ما عدا أبا داود - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سقيت رسول

---

(93) انظر: «مستقبل الإسلام خارج أرضه» (ص: 84، 85).

(94) المراد بالخمسة عند البعض: الشيخان وأصحاب السنن ما عدا ابن ماجه.

الله ﷺ من ماء زمزم فشرب وهو قائم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نأكل على عهد رسول الله ﷺ ونحن نمشي، ونشرب ونحن قيام. أخرجه الترمذي وصححه.

وعن مالك أنه بلغه: أن عمر وعثمان وعليًّا كانوا يشربون قيامًا.

وظاهر من هذه المرويات جواز الشرب عن قيام. ومع ذلك فقد روى مسلم عن أنس بن مالك، قال: نهى رسول الله عن الشرب قائمًا. بل روي عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «**لا يشرب أحدكم قائمًا! فمن نسي فلْيَستقِئْ**»!!

ويرى الفقهاء أن الشرب عن قيام مباح، وأنه عن قعود أفضل، ولا حرمة فيما لو شرب قائمًا.

ويخيل إليَّ أن الأحوال التي تكتنف المرء هي التي تحدد طريقة شربه، فلا عزيمة في القعود، ولا جريمة في القيام، وإن كان بعض الفارغين يريد أن يجعل من الحبة قبة، وأن يكثر حولها اللغو!!

والأمر عندي أهون من أن تثور حوله معركة ... لكن الذي رفضته أن يتصدى أحد أولئك المبطلين لعلم الأحياء، ويهاجم مقرراته ليقول: إن الكلب الأسود شيطان، وليس كلبًا كبقية بني جنسه!! قلت: حديث رفض العمل به جمهور الفقهاء، ولم يروه البخاري وهو يعالج الموضوع، ندخل به معركة ضد العلم باسم الإسلام والمسلمين!!

إن التعصب المستغرب لوجهة نظر فرعية لا يبلغ هذا الشطط، ولكنه للأسف مسلك ملحوظ على عدد ممن يشتغلون بأحاديث الآحاد.

روى أحدهم حديث: «ما أسفلَ من الكعبين من الإزار فهو في النار»، ثم حكم على الألوف المؤلفة من عباد الله أنهم من أهل جنهم! قلت له: إن إسبال الإزار كبرًا رذيلة وقد كان في الجاهلية الأولى شارة الرياسة والملك، وقصة الأمير جبلة بن الأيهم معروفة. أما طول الإزار حتى الكعبين أو دونهما قليلًا، لستر الجسم وتجميله دون اغترار ولا استكبار، فهو لا يدخل النار! فأبى المتحدث أن يستمع إلى شرحي، وعدَّني من علماء السوء، الخارجين عن السنة»![95].

وهكذا نرى الشيخ دخل الفقه من باب الدعوة. فهو يتبنى من قضاياه ما يخدم رسالة الإسلام، ويحببها إلى الناس، ويظهر وجهها مشرقًا جذابًا. ويرفض من القضايا ما لا يتفق وعظمة الإسلام، وروعة مبادئه، وعدالة أحكامه، وجلالة أهدافه. وهذه الفكرة عن الإسلام إنما كونها من محكمات القرآن وصحاح السنن، فأصبحت هي الأصل الذي يرجع إليه، ويعول عليه.

وهذا سر سخونة المعركة بينه وبين آخرين عزلوا ما بين الفقه والدعوة، فلا يبالون ما تتركه آراؤهم الفقهية من أثر في أنفس المدعويين، ولا سيما خارج ديار الإسلام.

إن الشيخ يتبنى مذهب ابن حزم في إباحة الغناء والموسيقى – ما لم تقترن بمحرم – لعلمه بأن مئات الملايين – وربما آلاف الملايين – في العالم تعشق هذا اللون من الفنون، وتتشبث به، ولا تفرط فيه، فلا داعي لأن يحال بين الإسلام وهذه الشعوب من أجل أمر مختلف فيه.

---

(95) «هموم داعية» (ص: 45 – 50).

ومثل ذلك موقفه من الجهاد وتبنيه أنـه لم يشرع في الإسـلام إلا للـدفاع عـن الدعوة والدولة، وهو في الواقع رأي الجمهور علماء العصر الكبـار: رشـيد رضـا، ومحمود شلتوت، ومحمد عبد الله دراز، ومحمد أبو زهرة، وعبد الوهـاب خـلاف، وغيرهم ...

إنه ينظر إلى الفقهيات بعين الداعية، ولذا نـراه ينكـر بشـدة تضـخيم الأمـور الخلافية، وتجسيم الأشياء الهامشية في الدين، على نحو يصد الناس عن سـبيل الله، ويرى وجوب التركيز على الأساسيات في الإسلام.

***

الفصل التاسع

الغزالي ... مصلحًا ومجددًا

***

الغزالي ... مصلحًا ومجددًا

الغزالي المجدد:

روى أبو داود في سننه والحاكم في «مستدركه» عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنَة مَن يجدد لها دينها**»[96].

وهذا الحديث يحمل بشرى للأمة – على امتداد أمصارها وأعصارها – بأن دينها سيظل حيًّا ولن يدركه البلى، بل يتجدد باستمرار بمن يبعثه الله ليقوم بمهمة التجديد.

ولا يعني التجديد للدين تغيير جوهره، فإن التجديد للشيء إعادته أقرب ما يكون إلى يوم نشأته وظهوره. فتجديد الدين إنما يعني تجديد الفهم له والإيمان به، والالتزام بتعاليمه، والدعوة إليه.

وكلمة «مَنْ» في الحديث تصدق على الجمع، كما تصدق على المفرد.

فقد يكون المجدد فردًا، كالخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، أو الإمام الشافعي، أو الإمام الغزالي، وهو ما اتجه إليه الأكثرون في فهم الحديث.

وقد يكون المجدد جماعة متعددة، في قطر واحد، أو جملة أقطار، في مجال واحد، أو عدة مجالات، من كل من يقوم على ثُغرة من ثُغَر الإسلام، وهو ما مال إليه ابن الأثير والذهبي وغيرهما.

---

(96) انظر: كلامنا عن هذا الحديث وتخرجيه وشرحه بتفصيل في كتابنا: «من أجل صحوة راشدة» فصل: «تجديد الدين في ضوء السنة».

وقد يكون المجدد جماعة أو مدرسة أو حركة فكرية أو دعوية أو تربوية أو جهادية، تقوم بدورها في حركة الإيقاظ والإحياء والتجديد، وهو ما أرجحه وأميل إليه.

وهنا لا يكون دور المسلم أن يقول: متى يظهر المجدد؟ بل يكون قوله: ما دوري في حركة التجديد؟

ولا يرتاب راصد لحركة الإسلام ومسار أمته، على رأس القرن الرابع عشر الهجري: أن الشيخ الغزالي أحد أعمدة التجديد الإسلامي الرئيسة في هذا العصر، سواء نظرنا إليه من خلال جهوده الذاتية في الفكر والدعوة، والتوعية والتربية، أم من خلال عمله في الحركة التجديدية الكبرى: حركة الإخوان المسلمين، التي يعد هو أحد أركانها الراسخة، وألسنتها الصادقة.

ولكأنما كان والده الرجل الصالح الشيخ «أحمد السقا» ينظر بنور الله حين ألهم أن يسمي ابنه «محمد الغزالي» تيمنًا باسم حجة الإسلام أبي حامد الغزالي صاحب «الإحياء». فقد كان الرجل رَحِمَهُ اللهُ – كما حكى لنا الشيخ – ذا نزعة صوفية، وكان أمله منذ رزق بطفله أن يكون وارثًا للغزالي، فسمَّاه هذا الاسم المركب «محمد الغزالي». فالغزالي جزء من اسم الشيخ وليس لقبًا لعائلته، كما يتوهم بعض الناس.

ولم تخيب الأقدار ظن الوالد الطيب، فإذا «غزالي القرن الرابع عشر» يحمل روح «غزالي القرن الخامس» في إحياء الدين وتجديده، وبعث الحياة في جسد الأمة الهامد، على أساس من تعاليمه، وإن كان في كل من «الغزاليَّيْن» ما ليس في الآخر، وقد يوجد في المفضول ما لا يوجد في الفاضل، والله يهب من فضله ما يشاء لمن يشاء ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: 105].

مصلح على مستوى الأمة:

الشيخ الغزالي، وإن كان رجل دعوة في المقام الأول، هو كذلك رجل من رجالات التجديد والإصلاح الذين شغلوا بهموم المجتمع من حولهم، وما تعانيه أمتهم من اختلال في الأوضاع والأنظمة، ومن فساد في الأفكار والأخلاق، ومن عوج شمل الماديات والمعنويات، والأفراد والجماعات، فلم يسلم منه الدين ولا السياسة، ولا الثقافة ولا الاقتصاد، ولا أي جانب من جوانب المجتمع.

ولم يكن الغزالي مصلحًا مصريًّا، وإن كانت مصر تأخذ الحظ الأول في تفكيره واهتمامه، ولا مصلحًا عربيًّا وإن كانت العروبة وعاء الإسلام، والعربية لسانه، والعرب جملة دعوته، ولكنه مصلح على مستوى الأمة الإسلامية كلها، من المحيط إلى المحيط، فهو يتحدث عن مأساة المسلمين في الحبشة، كما يتحدث عن نكبتهم في البوسنة، وعن أوضاعهم في إندونيسيا كأوضاعهم في المغرب.

عناصر الإصلاح عند الغزالي:

والإصلاح الذي يؤمن به الغزالي ويدعو إليه في كتبه ومقالاته وفي خطبه ومحاضراته، يقوم على جملة عناصر:

1 - تزكية الأنفس:

العنصر الأول في الإصلاح هو: الدعوة إلى تجديد الإيمان بالله ورسالاته، وتعميق اليقين بالدار الآخرة، وتزكية الأنفس وإصلاحها في ضوء هداية الوحي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا 9 وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 9، 10].

وقانون القرآن أن التغيير يبدأ بما في الأنفس أولًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

وهذا العنصر مقدم على كل عناصر الإصلاح.

2 - **العدل الاجتماعي:**

الدعوة إلى العدل الاجتماعي، والانتصار للطبقات المسحوقة التي تعرق في الزرع وينعم غيرها بالحصاد، والوقوف في وجه التوزيع الظالم للثروة، وتمكين الأغنياء من امتصاص دماء الفقراء، وتسليط الأقوياء على أكل حقوق الضعفاء.

وقد تجلى ذلك - منذ زمن مبكر - في كتبه الأولى: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية»، و«الإسلام والمناهج الاشتراكية»، و«الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين».

3 - **مقاومة الاستبداد السياسي:**

مقاومة الاستبداد والتسلط السياسي، وحكم الفراعنة والهوَامين، الذين علوا في الأرض، وجعلوا أهلًا شيعًا، وتألهوا في الأرض فعلًا، وإن لم يعلنوها قولًا، فاتخذوا من عباد الله عبيدًا لهم، فهو ينتصر لحرية الجماهير، وترسيخ الشورى، وعَدِّها فريضة لا مجرد فضيلة، وملزمة لا مجرد معلمة، والاقتباس من النظم الحديثة - كالديمقراطية - ما يدعم هذا المبدأ، ويجعله قابلًا للتطبيق العلمي في حياتنا المعاصرة.

لهذا كان من أوائل كتبه: «الإسلام والاستبداد السياسي» وهو - كما ذكرت من قبل - محاضرات ألقاها في معتقل الطور على المعتقلين.

وكان تنديده بمن يقول: إن الشورى للإعلام لا للإلزام.

4 - **تحرير المرأة من التقاليد الموروثة الدخيلة:**

تحرير المرأة من نير التقاليد الشرقية الموروثة، التي فرضتها أفهام سقيمة، أو أوضاع مختلة، في فترات الهُويِّ والتراجع من تاريخنا، والتي يحسبها كثيرون من الدين وما هي منه في قليل ولا كثير. وتحريرها كذلك من رق التقاليد الوافدة، التي غزتنا مع الاستعمار المستكبر، فسلخت المرأة المسلمة من دينها وشرع ربها، وغيرت من فكرها وخلقها وسلوكها، فأصبحت امرأة أخرى، ولا يكاد يبقى لها من الإسلام إلا الاسم والشهادتان.

لقد ظلم المسلمون المرأة في الأعصر الأخيرة حتى حرموا عليها الذهاب إلى المسجد.

وقد تجلى هذا العنصر الإصلاحي في كثير جدًّا مما كتبه الشيخ، ابتداءً من كتابه: «من هنا نعلم» إلى كتاب: «السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث»، ثم كتاب: «المرأة بين التعاليم والتقاليد».

5 - **محاربة التدين المغلوط:**

محاربة التدين المغلوط، والتطرف الممقوت في فهم الدين، والرجوع به إلى اليسر والاعتدال، بعيدًا عن غلو الغالين، وتفريط المفرطين. وهو توجه بدأه من قديم، ولكنه ركز عليه في المرحلة الأخيرة، منذ اصطدم بالغلاة والحرْفيين، والمتزمتين - وقد سميتهم «الظاهرية الجدد» - في أثناء عمله الدعوي في مصر، وفي خارج مصر، في المملكة العربية السعودية، وفي دولة قطر، وفي جمهورية الجزائر.

نجد ذلك واضحًا في كتبه: «دستور الوحدة الثقافية للمسلمين»، و«مشكلات في طريق الحياة الإسلامية»، و«الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر»،

و«هموم داعية»، و«علل وأدوية»، و«الطريق من هنا»، و«مستقبل الإسلام خارج أرضه»، و«الغزو الثقافي يمتد في فراغنا»، و«الحق المر»، و«السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث» وغيرها ...

وربما أخذ بعض الغيورين على الشيخ حدة نبرته في نقده لهؤلاء، وتنديده بسوء فهمهم للإسلام، وسوء عرضهم له. وربما كان هذا صحيحًا، والشيخ يعترف به. ولكن هذا راجع إلى تطاول كثير من هؤلاء على الشيخ وعلى غيره ممن خالفهم، ودعاويهم العريضة ضد دعاة الإسلام، ممن لا يوافق مشربهم.

ويدخل في هذا العنصر: النظرة الشمولية التكاملية والتوازنية للإسلام، في مقابل النظرات التجزيئية، والتي تضخم جانبًا على حساب جانب، ويمكن أن يكون هذا عنصرًا مستقلًّا.

6 - تحرير الأمة وتوحيدها:

تحرير الأمة الإسلامية من كل سلطان أجنبي فرض عليها في غفلة من الزمن، وتتابع من المحن، سواء كان عسكريًّا، أم سياسيًّا، أم اقتصاديًّا، أم تشريعيًّا، أم ثقافيًّا، أم اجتماعيًّا، والعمل على توحيد الأمة، وإزالة العوائق التي تفرق بين أبنائها.

7 - الدعوة إلى التقدم ومقاومة التخلف:

الدعوة إلى التقدم، ومحاربة التخلف، واللحاق بموكب العالم المتطور عن طريق التفوق في علوم الكون والرياضيات، واستخدام التكنولوجيا، وحسن الإدارة والتنظيم، والانتفاع بأقصى ما عند الغربيين في هذه الجوانب، واجتناب النواحي السلبية في أخلاقياتهم وسلوكياتهم، كإعراضهم عن الله واليوم الآخر، والتحلل

الجنسي، وتجنيد طاقات الأمة تحت راية الإيمان للعمل والإنتاج من أجل التقدم، واعتبار ذلك لونًا من العباة لله تعالى، وضربًا من الجهاد في سبيله.

شاعت هذه الدعوة على لسان الشيخ، وسال بها قلمه في كتب ومقالات، لا يكاد كتاب يخلو منها، ثم أفردها بالبحث والمناقشة في كتابه: «سر تأخر العرب والمسلمين».

8 - تنقية الثقافة الإسلامية:

تنقية الثقافة الإسلامية مما علق بها من أوشاب وزوائد خلال العصور، ومطاردة الأباطيل والأوهام التي أدخلت على العالم الإسلامي، وهي دخلية عليه غريبة عنه، ومقاومة «الشائعات» التي تلصق بالعلم وليست منه. وللشيخ هنا كلام طويل عن التعليم الأصلي، وعن الأزهر والجامعات الإسلامية، وعن الأغذية المسمومة التي يزود بها الدعاة والمعلمون الدينيون. ومن كتبه المستقلة في هذا: «تراثنا بين الشرع والعقل».

9 - ترشيد الصحوة:

ترشيد الصحوة الإسلامية المعاصرة، والعمل الدءوب على تسديد مسارها، وتجنيبها الزلل والعثار، وتجميع صفوفها على الأهداف الإسلامية الكبرى، وترك معارك الخلاف على الفروع والجزئيات التي يستحيل أن يتفق الناس عليها.

وهذا العنصر في الإصلاح: امتداد لعنصر مقاومة التدين المغلوط، وتعميق وتطبيق له.

10 - العناية باللغة العربية:

العناية باللغة العربية، والأدب العربي، ومحاربة النزعات التخريبية التي تريد

تقويض اللغة والأدب والشعر باسم الحداثة.

ولا بأس بأن نتحدث عن هذه العناصر بشيء من التفصيل.

وأود قبل أن أفصل الحديث عن جوانب الإصلاح عند الشيخ، أن ألمح إلى شيء من طريقته في تشخيص الأدواء، ووصف الأدوية لها، كما أشار إليها في مقدمة كتاب: «علل وأدوية». يقول سدد الله خطاه:

«إنني عندما أكتب أقسِّم مشاعري وأفكاري قسمين: قسمًا يتعرف الواقع الإسلامي بدقة، أعني أحوال أمتنا ما ظهر منها وما بطن ... وآخر يتلمس من توجيهات الإسلام ما يشفي السقام ويدعم الكيان ...

وفي تعرُّفي على أحوال أمتنا أميز الأمراض الموروثة عن الوافدة حتى لا أضل العلاج، ولا أسمح للأعراض المتشابهة أن تخدعني عن جراثيمها المختلفة!

وفي تلمُّسي للأدوية أفرق بين الإسلام من مصادره المعصومة وبين تاريخه المتفاوت بين مد وجزر، سواء كان هذا التاريخ سياسيًّا أو ثقافيًّا»(97).

❃ ❃ ❃

---

(97) من مقدمة كتاب: «علل وأدوية».

1 - تجديد الإيمان وتزكية الأنفس

أما عنصر الإصلاح الأول، وهو الدعوة إلى الإيمان وتزكية الأنفس، فهو شائع في كل كتب الشيخ وخطبه ومحاضراته، وهو واع كل الوعي أنه الهدف الأساسي للدين كله من ناحية، وأنه شرط ضروري لنجاح أي إصلاح حقيقي.

وفي مقدمة كتابه: «علل وأدوية» ذكر الآية الكريمة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 223]، لما تتضمنه من معنى شريف، يصحح للإنسان هدفه، ويضبط خطاه ويقيه الزيغ والعثار.

يقول الشيخ:

«نحن ننشد إقامة الشرائع التي تقينا السيئات، وترهب المجرمين، ولكنها - قبل ذلك - تقيم العقائد التي تربط الناس بالله ﷻ، وتجعل تعاملهم معه، وخوفهم منه، وأملهم فيه.

إن كثرة الحديث عن الآخرة والجنة والنار لم يكن من قبيل اللغو. وكثرة الحديث عن التقوى وما تورثه في القلب من استقرار، وما تلقيه في الطريق من نور، ليس من قبيل الخيال.

لقد استيقنت أنه لا يقتل الغرور والشره، وحب النفس وحب الظهور، والمكاثرة بالمال والجاه ... إلا الإيمان الحي والتعلق الشديد بما عند الله تبارك وتعالى.

لقد رأيت من طغى عندما حكم، ومن غش عندما تعامل، ومن استكبر عندما استغنى، ومن أفسد أسرته وأمته عندما تمهد له الطريق.

وتأملت الدوافع إلى هذا كله، فلم أر إلا قلوبًا خالية من الله ﷻ، بعيدة عن

الشعور بعظمته ورقابته! وإن همهمت بكلمات محفوظة عن الدين والوحي!

وأؤكد أنه عند فساد الفطرة لا يوجد دين، وعند اختلال العقل أو نقصانه لا يفهم وحي! وأن الأوامر الجزئية المتناثرة المنفصلة عن روح جامع لا تكون سلوكًا، كما أن اللبنات المركومة وأسياخ الحديد الملقاة لا تنشئ بيتًا ...

إن تعليمات المرور لا تفيد من أصيب بانفصال في الشبكية، أو من أصيب في صمامات القلب.

وقد قام نبينا ﷺ حضارة حققت الغاية من الوجود الإنساني، وكانت عدته في ذلك ما تلقى من وحي، وما ألهم من هدي.

وكان أقدر المستقدمين والمستأخرين على تصحيح المسار الإنساني عن طريق ضبط الأجهزة الرئيسية في الكيان الإنساني.

ونحن في هذا النهج نسير، وبمواريث النبوة نستهدي»[98].

يريد الشيخ للمسلمين أن يحسنوا فهم الدين، ويحسنوا فهم الحياة أيضًا، فلا قيام لدين بغير دنيا تسنده وتقويه.

وهو ينكر سرد الأحاديث والآثار الواردة في الترهيب من الدنيا، والترغيب في الفقر وقلة ذات اليد، وفضل الفقراء والمساكين ... إلخ ... سردًا يجعل المسلمين يطلِّقون الدنيا، في حين يتزوجها غيرهم.

وهو يقول هنا: «أنا رجل مسلم أعلم أن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم

---

(98) من مقدمة كتاب: «علل وأدوية»، نشر إدارة إحياء التراث الإسلامي في قطر.

وأموالهم، وأعلم أن تداعي الأمم علينا سببه: حب الدنيا وكراهية الموت.

إنني أريد أن أفهم المؤمنين أن الحياة في سبيل الله، كالموت في سبيل الله - جهاد مبرور، وأن الفشل في كسب الدنيا يستتبع الفشل في نصرة الدين! وأن الواجد الذي ينزل عما عنده خير من المفلس الذي لا ينزل عن شيء؛ لأنه لا يملك أي شيء!

إن السلبية لا تخلق بطولة؛ لأن البطولة عطاء واسع، ومعاناة أشد»(99).

الحاجة إلى تصوف نقي:

وشعور مفكرنا الكبير بحاجة الأنفس إلى تزكية وإصلاح، هو الذي جعله في أكثر من كتاب له، يدعو إلى الاستفادة من التصوف، في كشف عيوب النفس، ومداخل الشيطان إليها، ووصل القلوب بحب الله ﷻ، وترطيب الألسنة بذكره.

والتراث الصوفي يفيد هنا ما لا يفيد غيره، إذا غربل ونقى من الخرافة في الفكر، والابتداع في العبادة، والسلبية في التربية والسلوك.

وقد كان الشيخ شديدًا على التصوف والمتصوفة في كتاباته الأولى. ثم بعد التجربة والنصح وجد أنه ضروري لإنشاء الضمير الحي، والقلب المؤمن بالله، المتوكل عليه، الخائف من عذابه، الراجي لرحمته، وخصوصًا بعد أن أتاحت له فرصة الاعتقال في الطور قراءة «مدارج السالكين» لابن القيم دراسة منتظمة مع بعض إخوانه.

يقول الشيخ تحت عنوان: «التصوف الذي نريد»:

«مع قيام الإسلام على العقل، وترحابه بالفكر الجيد، والبحث الأصيل، وحضه

---

(99) «علل وأدوية» (ص: 230).

على الارتباط المادي والمعنوي بالكون عملًا وتأملًا، مع ذلك كله فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجياشة، ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والبر إلى جانب أنه نظر يتسم بالسداد والصواب ...

والإسلام المكتمل ليس «نظرية» علمية، أو اقتصادية، وليس فكرة مجردة عن اللَّه، مهما كانت هذه الفكرة صحيحة من حيث التصور والاستدلال. إنه قلب انفتحت أقفاله، وانفسحت أرجاؤه، وأشرق معنى الحب في جوانبه، فهو متعلق بربه، متتبع لآثاره في كونه، عاشق للخير، مبغض للشر، يمتد مع كل شيء حسن، وينكمش مع كل شيء قبيح.

وقد خاطب اللَّه المؤمنين من أصحاب محمد فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ 7 فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحجرات: 7، 8].

ومن المتعذر الفصل بين الاستنارة الفكرية والهداية النفسية.

نعم يوجد ناس لهم عقول ذكية، وسير هابطة، ولا نشك في أن هؤلاء مرضى، والأدواء التي أصيبوا بها متفاوتة الشناعة والسوء.

والمفروض أن من يعرف خصائص النار يتحاشى ملامستها، غير أننا نلحظ أن بعض الناس قد يعرف شيئًا ما معرفة حسنة، ثم يجيء تصرفه وكأنه جاهل كل الجهل.

وهذا التناقض ضرب من الجنون الذي يُرى في كل مكان، ولا يودَع أصحابه مستشفيات المجانين! ...

إن الأمراض التي تعتري الشخصية الإنسانية كثيرة جدًّا.

وهذا الجنون الجزئي هو ما أشار إليه القرآن الكريم في تقريعه للأشرار من العلماء: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: 44].

نعم، فالمفروض أن صحة التفكير تستتبع صحة التصرف!

لكن هذه البديهية عندما تنتقل إلى عالم التطبيق يعترضها من العوائق، ما يعترض التيار الكهربائي عندما ينقطع السلك الحامل له، أو عندما توجد مواد عازلة تمنعه من الانطلاق إلى مداه.

والدين الحق شفاء من هذه العلل جمعاء، فهو عقل مستقيم، وضمير حي.

أما الثروة الطائلة من النظريات، والفقر المدقع في المشاعر النبيلة، والاتجاهات الكريمة، فليس تدينًا مقبولًا ...

والسؤال الذي نريد الإجابة عنه: كيف نحقق هذا التدين؟

وكيف نربي في القلوب الإحساس بجلال الله والخشوع لعظمته؟

كيف نجعل اليقين ينزل من السطح ليشتبك بالأعماق؟

كيف نحول معرفة الله إلى مذاق حلو، يطبع النفوس على الرقة، ويصفي السرائر من كدرها؟

كيف نجعل المرء مشتاقًا إلى ربه، فهو ببواعث من أشواقه، يطيعه ويسارع إلى مرضاته ... وكيف نجعله هيابًا لذاته، فهو بدوافع القلق ينفر من معصيته ويفزع من مساخطه ...

كيف يشهد المرء ربه في مجالي السماوات والأرض، ويشهد أسماءه الحسنى فيما

يقع من حركة وسكون على امتداد الزمان والمكان؟

إنه لا يتم إيمان، ولا يثمر دين، إلا إذا أحسنا الإجابة عن هذا التساؤل.

ونحن نعرف أن العلوم الشرعية تعاونت على شرح رسالة الإسلام وتوقيف الناس على حدوده وحقائقه، فأي العلوم اكترث بهذه الأسئلة، وطال نفَسه في الحديث عنها؟

إنني لست متصوفًا، وما أحب أن أنتسب إلى فرقة من فرق المسلمين.

بيد أن الإنصاف يدفعني إلى القول بأن هذا الجانب المهم من الثقافة الإسلامية اللازمة لم يلق العناية المستحقة لدى جمهرة الفقهاء والمتكلمين، وأن المتصوفة - برغم شطحاتهم وغلطاتهم - هم الذين أفاضوا في هذا الحديث.

إن فقهاءنا الذين كتبوا المجلدات في غسل الأطراف ما كان يعيبهم أن يتناولوا هذا الجانب، وأن يضبطوه بأدلتهم الفقهية.

وإن المتكلمين الذين عقدوا الفصول الخطيرة في الشئون الإلهية المغيبة ما كان يعيبهم أن يحببوا الناس في الله، ويرفعوهم إلى حضرته، بأسلوب علمي محكم.

لقد كان ذلك - والله - أجدى على الإسلام وأهله، من بحوثهم العقيمة في الذات والصفات.

إن العناوين لا تهمني، وإنما يهمني الموضوع، يهمني أن أرسم الطريق لبناء النفوس على التقوى، وإيناسها في هذه الدنيا بذكر الله، وإلهامها كيف تستعد

للقيادة ببصيرة مجلوة، ورغبة عميقة، وثغر باسم»[100].

* * *

(100) «ركائز الإيمان بين العقل والقلب» (ص: 131 – 134).

2 - العدل الاجتماعي

كان «الظلم الاجتماعي» أول ما استلفت نظر الشيخ الغزالي، وشغل قلبه وفكره. فقد نشأ في بيئة رأى فيها آثار هذا الظلم صارخة، حيث الإقطاعيات، وتفاتيش الخاصة الملكية، تتحكم في الفلاحين الكادحين، تحكم السادة في العبيد. وشاهد الكروش المنتفخة، وهي تسمن وتسمن على لحوم المهزولين المتعبين.

لاحظ الشيخ الأولاد الصغار تستخدمهم الدوائر الزراعية في تنقية الزروع - وبخاصة القطن - من أسراب الدود المهاجم لها، وفي جنيها أيضًا. فتستوردهم من القرى الفقيرة - عمال التراحيل - وتشتري عرقهم وجهدهم وغربتهم بأبخس الأثمان! ومع هذا لا تصل هذه الأجور إلى مستحقيها كاملة، فإن السماسرة يفرضون عليها ضرائبهم، ويسرقون منها ما يمكن الاستيلاء عليه، وهذا حرام لا شك فيه.

يقول الشيخ: «فهل تدري مكاتب العمل الحكومية شيئًا عن هذه الأحوال؟ إن هؤلاء الأولاد يقضون أيام عملهم ولياليها، يطعمون شر مطعم، ويبيتون شر مبيت، ثم يعودون إلى قراهم المتلهفة لمقدمهم، وقد نال منهم الإعياء، وأصبحوا فريسة سهلة للأمراض المتوطنة، أو للعلل الوافدة. ولولا إلحاح الحاجة، وعض الفقر، ما فرط الآباء في فلذات أكبادهم بهذا الهوان!

وإلى جانب هؤلاء الأطفال المطالبين بالتكسب منذ نعومة أظفارهم - وما أرى أظفارهم إلا خشنة من ساعة الميلاد! - يوجد صنف آخر من الفلاحين، هم سكان العزب والقرى التي سقطت بما فيها ومن فيها، بين مخالب أصحاب الإقطاعيات الشاسعة، كما تسقط البلاد المهزومة في أيدي الجيوش الغازية! وهؤلاء يجدون

معايشهم المحدودة منتظمة بنوع انتظام ما داموا قادرين على خدمة الأرض وسادتها ... والويل لهم إن أصابهم مرض. لقد اضطرب مستقبلهم، وخيبت آمالهم. فهم في بيوت لا يملكونها، وفي زراعة لا يملكونها، ووراء حيوانات لا يملكونها. ومعنى عجزهم عن العمل أن يخرجوا هم وأولادهم ونساؤهم، ويتركوا خلفهم هذا كله لرب الأرض المحظوظ!! وما من ذي نعمة من هؤلاء الملاك البطرين إلا والفلاح التعس رب نعمته، ومصدر ثروته، ومتكأ وجاهته، غير أن الفلاح محروم من هذا الذي صنعت يداه، وهو منه قريب، كما تحرم الإبل في الصحراء من الماء محمولًا على ظهورها، وهي تكاد تهلك عطشًا!

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول!

وثم صنف آخر من الفلاحين هم مستأجور الأرض من ملاكها الصغار أو الكبار. والظاهرة الفذة: أن هذه الإيجارات قلما تنتهي بخير إلى جانب الرجل المرهق فيها. فإما عاش المستأجر من غلتها كفافًا لا له ولا عليه. وإما استدان للوفاء بحقوقها المربوطة بعنقه، وربما باع فيها بعض أملاكه الشخصية، بعد مآس تشهدها المحاكم ومحاضر الحجز، ويتوسط فيها أهل الخير الشر»[101].

لقد رأى الشيخ من النقائض التي تقع في مصر وأشباهها من البلاد المنكوبة بالمظالم الاجتماعية والسياسية: أن هناك أقوامًا يعملون كثيرًا ولا يملكون شيئًا قط، وأقوامًا يملكون كثيرًا ولا يعملون شيئًا قط! وربما وجدت الرجل يقضي العمر الطويل يحول الطين ورودًا ورياحين، ويشقى هو وأولاده أجمعون، ليخرجوا

---

(101) انظر: «الإسلام والمناهج الاشتراكية» (ص: 159 – 162)، ط. ثانية، دار الكتاب العربي بمصر.

المخبوء من تربة هذه الأرض، فيمزجون دمهم ببقلها وفومها وعدسها وبصلها، ويحرمون منه! والعلة في هذه النقائض: أن هذا ورث، وهذا لم يرث! وقد علمت كيف بدأت هذه الموروثات وكيف آلت إلى أصحابها[102].

كان الغزالي بقلبه ومشاعره وعقله مع الطبقات الكادحة. إنها أحب الطبقات إلى الله، وأحقها بالحياة الكريمة، وأجدرها بالمستقبل الباسم ... احتفى بها الإسلام وعمل على توسيع دائرتها، حتى تشمل الناس قاطبة. فلا يبقى فيهم عاطل. وعَدّ الأنبياء عمالًا يأكلون من كسب أيديهم، وجعل شرار الناس أولئك القاعدين من غير عمل، والطاعمين من غير جهد، الناعمين من غير حق، المشتغلين بالثرثرة لتضييع الفراغ.

لا عجب أن كان أول ما خط قلم الغزالي عن «الإسلام والأوضاع الاقتصادية»، و«الإسلام والمناهج الاشتراكية»، و«الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين».

ريادة الشيخ في الكتابة الاقتصادية في الإسلام:

كان الشيخ في العقد الثالث من عمره عندما بدأ الكتابة في هذا الجانب البكر، وكان فيه رائدًا بحق. ولهذا نجد كتاباته أشبه بصيحات توقظ النيام، ومشاعل تضيء الطريق للسائرين أو السارين في الظلام. فإن كان ينقصها المنهجية أو العلمية «الأكاديمية» فلم ينقصها النظر السليم، والفكر القويم، والفقه المستقيم: الفقه لدين الله ودنيا الناس معًا.

---

(102) سنعرض من رأي الغزالي فيما حدث للملكية في مصر في فصل «الغزالي والفقه».

وقد عبر الشيخ عن ذلك في بعض كتبه، معلنًا عن عذره في هذا اللون من الكتابة. وذلك في كتابه: «قذائف الحق». يقول حَفِظَهُ اللَّهُ:

«في مواجهة التيارات الفكرية الهاجمة علينا أصدرت عدة مؤلفات تتحدث عن النظام الاقتصادي الإسلامي، كما تصورته من كتاب اللَّه وسنة رسوله وتطبيقات الخلافة الراشدة، وكان يغلب عليّ - وأنا أقدم هذا التصور - أمران:

1 - اطلاع المثقفين المعاصرين من خريجي المعاهد المدنية على الجوانب المضيئة من تراثنا، والمغنية عما سواها، حتى يكون تعلقهم بدينهم لا بغيره.

2 - ثم الإزراء على الأوضاع المعوجة السائدة، ورفض السناد الديني الذي تنتحله لنفسها.

وأعترف بأني تجوزت في التعبير أحيانًا، وقبلت بعض العناوين الشائعة «كالديمقراطية» في ميدان الحكم، و«الاشتراكية» في ميدان الاقتصاد، لا لإعجابي بهذه العناوين، ولكن لأجعل منها جسرًا يعبر عليه الكثيرون إلى الإسلام نفسه، أي أني أريد نقل «الديمقراطيين» و«الاشتراكيين» إلى الإسلام بعدما أوضحته وأبرزت معالمه، لا أني أريد صبغ الإسلام بصبغة أجنبية، أو نقله إلى مذاهب مستوردة ...

وقد جاء من بعدي الأستاذان «سيد قطب» و«مصطفى السباعي» - عليهما رحمة اللَّه - فألَّف الأول: «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، وألَّف الأخير: «اشتراكية الإسلام»، وهما يقصدان ما قصدت إليه من رد المفتونين بالمبادئ الجديدة إلى مواريث أسمى وأغنى ...

وربما كان ما كتباه أفضل مما كتبته أنا وأكثر تنظيمًا.

وعذري أنني كنت رائدًا تدمي أظافري في الاكتشاف والتدوين، فإذا جاء من

بعدي ووجد حقائق ممهدة كان على تنسيقها أقدر وعلى صوغها أدق!!»[103].

ويحسن بنا أن ننقل هنا بعض هذه النظرات المبكرة للشيخ، الدالة على مبلغ وعيه بهذه القضية الكبيرة، وكيف ينبغي أن تعالج من صيدلية الإسلام. وقد ذكرنا شيئًا من ذلك في الفصل الماضي «الغزالي والفقه»:

حق الناس في المال:

تحت عنوان «حق الإنسان في المال» كتب الشيخ يقول:

«لا يجوز أن يبقى رجل من غير دخل - قليل أو كثير - يكفل له المستوى الواجب لمعيشته، وعلى المجتمع الديِّن أن ينظم أموره تنظيمًا يؤدي إلى هذه النتيجة المحتومة، وإلا كان مجتمعًا لا دين له، وفي ذلك يقول الرسول: «**أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعًا فقد برئت منهم ذمة الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى». وقد أفتى ابن حزم وغيره من العلماء، بأنه إذا مات رجل جوعًا في بلد عُدّ أهله قتلة، وأخذت منهم دية القتيل! وقد عَدّ القرآن أنه من التكذيب بالدين أن تدع اليتيم، وألا تحض على طعام المسكين، فكيف يكون رأي القرآن في بلاد لا تحض على طعام المسكين فقد بل هي تصنع الفقر والمسكنة، وتخرج إلى المجتمع الإنساني ألوف الفقراء والمساكين، فكأن أنظمتها الاقتصادية آلات جبارة تصوغ البؤس في قوالب من أبناء آدم. ثم ترمي بهم على أفاريز الطرق وفي خرائب الأبنية أو بين جدران السجون والملاجئ والمستشفيات!

هل نسمي هذا إلا أنه كفر بالدين، وإنكار لنصوصه وقواعده ومبادئه؟ بلى،

---

(103) «قذائف الحق» (ص: 157)، الطبعة الرابعة.

وأصحاب هذه النظم هم أصحاب الميسرة[104] في الدار الآخرة: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ 25 وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ 26 يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ 27 مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ 28 هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ 29 خُذُوهُ فَغُلُّوهُ 30 ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ 31 ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ 32 إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ 33 وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: 25 – 34].

والمال الذي يكفي لإذهاب العيْلة واستئصال الحرمان وإشاعة فضل الله على عباده يجب إخراجه – مهما عظم – من ثروات الأغنياء ولو تجاوز تجاوزا بعيدًا مقادير الزكاة المفروضة فمقادير الزكان ليست إلا الحد الأدنى لما يجب إنفاقه، وقد ورد عن النبي: «**إن في المال حقًّا غير الزكاة**».

ولنا كلام يأتي بعد في أنصبة الزكاة التي فرضها الشارع. غير أننا نلفت النظر إلى أن الزكاة في صدر الإسلام، لم تكن المصدر الوحيد، الذي رصد لمحاربة الفقر واستئصال شأفته. فقد كانت أموال الفيء والغنائم والخراج مصادر أخرى غزيرة النفع، تعمل عملها الواسع في تفريج الضوائق وسد حاجات اليتامى والمساكين والمعوزين. فإذا جفت بعض المنابع كان على المنابع الباقية أن تحمل العبء كاملًا، وعلى الدولة أن تستنبط من موارد المال، ما توازن به شئون المجتمع وتقيم به مصالح الناس. والدين لها في كل ذلك ظهير.

وإذا كانت الغاية التي شرعت من أجلها الزكاة هي تحرير الفقراء من قيود الفاقة وإطلاق إنسانيتهم من إسارها الحالك، فلنحقق هذه الغاية كاملة ولنحمل ما تفرضه علينا من تكاليف قليلة أو كثيرة! لكن إبقاء كثير من الناس صرعى للفقر

---

(104) أحزاب الميسرة الآن هم المعروفون بالميول الاشتراكية «اليساريون».

والمسكنة كان - والحق يقال - هدف أكثر الحكومات المتتابعة في العصور السابقة واللاحقة. إذ إن تجويع الجماهير بعض الدعائم التي تقوم عليها سياسة الظلم والظلام، ومن هنا انتشر الفقر انتشارًا ذريعًا في الشرق الإسلامي، وسخر الدين ورجاله لحمل الناس على قبوله، واستساغته، وفسرت نصوص الدين المتصلة بهذا المعنى تفسيرًا سقيمًا نسي الناس معه حقوقهم، وحياتهم وجهلوا دنياهم وأخراهم، وحسبوا الفقر في الدنيا سبيلًا إلى الغنى في الآخرة كما أسلفنا القول. ونحن لا ننكر أن هناك آثارًا دينية تحمد الفقر وتنوه بشأنه، ولكن ما دلالة هذا وما معناه؟ هل إذا قال شاعر:

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوي من صديقي

قلنا: إن الشدائد خير ... وألفنا مصلحة أو وزارة نسميها وزارة الشدائد، لتذيق الناس لباس الجوع والخوف!! وإذا قال القرآن الكريم في وصف حديث الإفك الذي طعن به شرف السيدة عائشة - صانها الله وكرمها - : ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: 11] قلنا: إن الإفك خير وألفنا جماعة لترويج الزور ورمي الناس به، وتصبير الناس عليه!! وإذا وقعنا على حديث النبي ﷺ يمدح الفقر على النحو الذي عزيت به السيدة المتهمة بالإفك؛ وجدنا من المتدينين من يؤلف طوائف من المتسكعين والمتبطلين ليعيشوا في الدنيا فقراء بائسين!!»[105].

منهج الدين:

وتحت عنوان «منهج الدين»، يعني الإسلام، كتب الغزالي يقول:

---

(105) «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» (ص: 89 - 91)، الطبعة الثانية (1950م)، دار الكتاب العربي بمصر.

«الإسلام – كدين – له تعبيرات وتوجيهات خاصة، تمتاز بطابعها الذي يقرن التجارة بالخلق، والأعمال بالعقيدة، والعقوبات الزاجرة في الدنيا بالأجزية المعدة في الآخرة. ولا يستغرب منه أن يلجأ إلى وسائل التربية النفسية أولًا، ثم إلى الأحكام التشريعية ثانيًا، ليصل إلى أغراضه الواضحة. فإن كان في أحكامه إجمال، فعلى الحاكم أن يضع لها من التفاصيل ما يصل بها إلى الأغراض المرسومة المعلومة. ومنهج الدين في محاربة الربا والاحتكار والاستغلال بيّن. فإذا لجأ إلى مكافحة هذه الآفات بالوعيد واللعن فليست هذه وسائله الأولى والأخيرة.

إن الإسلام يبغي أن ينقي المجتمع من هذه الشوائب، وقد ظهر أن الإملاق إلى جانب الترف يولدان الربا، وأن موارد الإنتاج المهملة إلى جانب الطبقات المستهلكة المضيعة تلد حتمًا شركات الاحتكار المستغلة، وضنك المعايش المذلة.

ومن رعى غنمًا في أرض مسبعة   ونام عنها تولى رعيها الأسد!

وهذه وتلك لا تعيش إلا في ظلال الاقتصاد الرأسمالي، والتقسيم الإقطاعي، والاستعمار الداخلي والخارجي. وهل تنشب الحروب في العالم إلا لهذه الأسباب وما ينشأ عنها من أطماع؟ وهل يشيع الاضطراب والاحتراب إلا من تقاتل الرأسماليين على استغلال الضعفاء وانتهاب ما بأيديهم من خيرات؟ أفتبفى الدوافع إلى الحروب بهذه الشدة لو وقر في الأذهان أن كل إنسان على ظهر الأرض يجب أن تكفل حقوقه المادية والمعنوية، ثم ينتهي من تاريخ البشرية إلى غير رجعة طور الربا والاحتكار والاستغلال؟

إن الإسلام من هذه الناحية قد قال كلمته، وأعلن دعوته، وأنصف الناس من

أنفسهم، ومن البرامج التي توضع لهم، وذكر تاريخ الأولين لما ارتكبوا هذه المظـالم لتكون منه عظة للآخرين»(106)، ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا 160 وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: 160، 161].

***

(106) «الإسلام والمناهج الاشتراكية»، الطبعة الثانية (1951م)، دار الكتاب العربي بمصر.

3 - الحرية ومقاومة الاستبداد السياسي

الغزالي والحرية:

الشيخ الغزالي من عشاق الحرية ودعاتها، وهي من العناصر الأساسية في برنامجه الإصلاحي. وهو عدو الاستبداد، أيًّا كانت صورته، ولا يقبله بحال، ولو تسربل باسم الدين. بل يرى أن الاستبداد باسم الدين أشد خطرًا من غيره.

من أجل ذلك قسا على بعض مراحل التاريخ الإسلامي، حين رأى الشورى معطلة، والخلافة تنتقل بحكم الوراثة إلى سفيه أو صبي لم يبلغ الحلم.

وحين قرأ في كتاب: «العواصم من القواصم» للإمام أبي بكر بن العربي، أن البيعة تنعقد باثنين أو بواحد، لم يطق صبرًا على هذا الكلام الذي عَدّه فارغًا لا وزن له، ولا دليل عليه.

وهو ما جعل العلامة محب الدين الخطيب يعقب عليه في مجلة «الإخوان المسلمين» تحت عنوان «هل الحكم الشرعي كلام فارغ؟».

والمقالان يمثلان نموذجًا يحتذى في حوار العلماء، الذين يقدر بعضهم بعضًا، وإن كان الخطيب يمثل هدوء الشيوخ، والغزالي يمثل ثورة الشباب.

وأعظم ما يضيق به الشيخ أن يسمع أو يقرأ من بعض علماء الدين من يقول في عصرنا: إن الشورى مندوبة وليست واجبة، وهي معلمة وليست ملزمة!

وحديثه في مقاومة الاستبداد والتسلط على الشعوب بالقهر والجبروت، حديث طويل دافق جاد.

وقد عرفنا من أوائل كتبه «الإسلام والاستبداد السياسي» وهو مجموعة

محاضرات ألقاها في معتقل الطور سنة (1949م).

ولكنه تناول الموضوع في كتب عدة، وبأساليب شتى؛ لأنه يمثل دعامة أساسية في فكره الإصلاحي والدعوي، وفي فقهه السياسي.

حرب على الفساد السياسي:

تحدث الشيخ عن الفساد السياسي في كتابه: «هموم داعية» فقال: «الفساد السياسي مرض قديم في تاريخنا. هناك حكام حفروا خنادق بينهم وبين جماهير الأمة ... لأن أهواءهم طافحة، وشهواتهم جامحة ... لا يؤتمنون على دين الله ... ولا دنيا الناس ... ومع ذلك فقد عاشوا آمادًا طويلة.

وقد عاصرت حكامًا تدعو عليهم الشعوب، ولا تراهم إلا حجارة على صدرها توشك أن تهشمه. انتفع بهم الاستعمار الشرقي والغربي على سواء في منع الجماهير من الأخذ بالإسلام والاحتكام إلى شرائعه. بل انتفع بهم في إفساد البيئة حتى لا تنبت فيها كرامة فردية، ولا حرية اجتماعية، أيًّا كان لونها.

ومع هذا البلاء، فقد رأيت منتسين إلى الدعوة الإسلامية يصورون الحكم الإسلامي المنشود تصويرًا يثير الاشمئزاز كله ... قالوا: إن للحاكم أن يأخذ برأي الكثرة أو رأي القلة، أو يجنح إلى رأي عنده وحده ...![107].

أهذه هي الشورى التي قررها الإسلام؟ فما الاستبداد إذن؟!

ووضع بعضهم دستورًا إسلاميًّا أعطى فيه رأس الدولة سلطات خرافية لا

---

(107) رددنا على هذا في فتوانا عن «الإسلام والديمقراطية» في الجزء الثاني من كتابنا: «فتاوى معاصرة». وفي كتابنا «من فقه الدولة في الإسلام» طبعة دار الشروق بالقاهرة.

يعرفها شرق ولا غرب[108] ... وعندما تدبرت هذا الكلام وجدت أن معايب ثلاثة تلتقي فيه:

الأول: سوء فهم لمعنى الشورى، وغباء مطلق في إنشاء أجهزتها المشرفة على شئون الحكم.

الثاني: عمى عن الأحداث التي أصابت المسلمين في أثناء القرون الطوال، والتي نشأت عن استبداد الفرد، وغياب مجالس الشورى.

الثالث: جهل بالأصول الإنسانية التي نهضت عليها الحضارة الحديثة، والرقابة الصارمة التي وضعت على تصرفات الحاكمين.

فإذا استقبل المسلمون القرن الخامس عشر، وفهم عدد منهم لوظيفة الحكم لا يتجاوز هذا النطاق العقيم، فكيف تسير الأمة، وأين تتجه؟!

إن الفقه الدستوري في أمتنا يجب أن تنحسر عنه ظلال الحجاج، وعبيد الله بن زياد، وبعض ملوك بني العباس، وبعض سلاطين آل عثمان.

ويجب أن يمنع عن الخوض فيه شيوخ يقولون: إن الرسول ﷺ افتات على الصحابة في عمرة الحديبية. فمن حق غيره أن يفتات على الناس ويتجاوز آراءهم.

إن ذلك الضلال في تصوير الإسلام يفقد الإسلام حق الحياة.

والمعروف أن الرسول ﷺ احترم الشورى، ونزل على حكمها فيما لا وحي فيه، وأن قصة الحديبية تصرف فيها الرسول ﷺ على النحو المروي لما حبس ناقته

---

(108) يشير إلى الدستور الذي وضعه «حزب التحرير الإسلامي» وأصدره الشيخ تقي الدين النبهاني مؤسس الحزب في كتابه «نظام الإسلام».

حابس الفيل، وأحس أن الله تعالى يلزمه بمسلك يجنب الحرم ويلات حرب سيئة.

فكيف يجيء من يعطي الرؤساء حق الحرب والسلام، بعيدًا عن الشورى؛ لأن الرسول ﷺ فعل ذلك يومًا ما في مكة التي يعلل القرآن منع الحرب فيها بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا 24 هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 24، 25].

وظاهر أن الرسول ﷺ اتجه مع توجيه السماء له.

وظاهر كذلك أن الشورى تكون حيث لا نص فيه يوجه، وأن الأمة هي مصدر السلطة حيث لا نص بداهة.

ويؤسفني أن الكلام عن تكوين الدولة عندنا تعرض له أقوام على حظ كبير من الطفولة العقلية، أو على حظ من الزلفى يكسبون به الدنيا ويفقدون به الإيمان.

وإصلاح أداة الحكم وأصله الأول يحتاج إلى فقهاء أتقياء أذكياء»(109). اهـ.

وفي كتاب آخر، رد على الذين اعترضوا على اتخاذ أساليب الديمقراطية وضماناتها لكبح جماح الحكام المتسلطين، والذين قالوا: إن ذلك من معالم الديمقراطية «الغربية»، ونحن نرفض استيراد مبادئ أجنبية لتحكم أمتنا، حسبنا ما لدينا.

---

(109) «هموم داعية» (ص: 250 – 253).

قال الشيخ: «هذا كلام جميل، وإنه ليسرني أن نحسن اتباع ما هدانا الله به، غير أنه من الإنصاف أن نعرف وجهة النظر الكاملة عند من طبقوا النظام الديمقراطي في الغرب، وعند من حاولوا الاقتباس منه هنا، حتى لا يعترض الدعاة بجهالة ما لا يدركون.

إن الدساتير هناك تتضمن مبادئ أو نصوصًا ثابتة ليست موضع جدل، ولا تؤخذ عليها آراء، وتتضمن شئونًا أخرى توضح ما يناقش، ويقع فيه التأييد والتفنيد.

والأقطار الإسلامية التي حاولت التقليد عندما تجعل الإسلام دين الدولة، والفقه الإسلامي مصدر التشريع، فإن النقاش سيكون بعد ذلك في الشئون الدنيوية، وفي المصالح المرسلة وفي تقويم أفعال الرجال تزكية أو بخسًا، وتلك كلها لا حرج في تناولها، وكما قيل: لا اجتهاد مع النص، وبعيدًا عن دوائر النصوص تتفاوت الأنظار وتتعدد الآراء.

سيقال: إذا سلمنا بهذا الذي قلته كله، فنحن زهاد في جلب عناوين أجنبية لنظمنا الإسلامية.

وهذا والله جميل، يبقى أن نكشف للناس ما لدينا، ونقول لهم: هذا عوض عن ذاك. إننا نرفض ذاك الدخيل، ونقدم بدله هذا الأصيل: الشورى الإسلامية بدل الديمقراطية الغربية.

وعلى العلماء والدعاة أن يكشفوا أسباب التفضيل، وجوانب الترجيح ...

وقلت أداعب أحد أولئك المحافظين أولي الغيرة: هل الشورى ملزمة للحاكم؟ فأجاب: لا!!

قلت: كيف تتم الشورى؟ قال: مع أهل الحل والعقد.

قلت: كيف يتكون مجلسهم؟

فسكت غير قليل ثم أجاب: يكونه الحاكم!

قلت: مستشارون يختارهم الحاكم برغبته، وله حق ألا يلتزم برأيهم، تلك هي الديمقراطية الدينية؟!!

يا صديقي إن الديمقراطية الغربية – وأنا أكره الاستيراد – امتدت في الفراغ الذي صنعتموه أنتم، ووجدت لها عشاقًا؛ لأن تصوركم للحقائق الدينية والمدنية بالغ التشويه، وملاحظتكم لطبائع البشر وتاريخ الأمم وهي تنشد الرحمة والعدالة تكاد تكون معدومة.

إنكم تحسنون الإماتة ولا تحسنون الإحياء، تقولون باسم الله: هذا حرام، ولا تجيئون بالحلال الذي يشبع النهمة، ويسد طريق المعصية!

ماذا لو فكرتم في طريقة معقولة يتكون بها أهل الحل والعقد؟ وفي مواضع كثيرة تكون الشورى فيها ملزمة، وماذا لو استفدنا من تجارب الآخرين؟». اهـ.

لا تؤخذ الديمقراطية على إطلاقها:

وأحب أن أؤكد هنا حقيقة مهمة، وهي أن دعوة الشيخ إلى الاستفادة من الديمقراطية، ولا تعني أخذها على إطلاقها، فهو يفرق بين الوسائل والأهداف، وبين الضمانات والمبادئ.

ولهذا يعيب على الديمقراطية أنها تبيح المنكرات، ولا تقف عند حدود الله.

يقول الشيخ:

«إنني أومن بالشورى، وأزدري الاستبداد السياسي من أعماق قلبي، وأرد عليه أغلب هزائم أمتنا خلال تاريخها ...

وأرمق الديمقراطية الغربية فأحسد أصحابها على مناقشة الآراء بحرية، وعلى استكانة الحكام للحق، وعلى اعتزاز الأفراد بكراماتهم. وكنت أهمس إلى نفسي: أما يجيء يوم يظفر فيه المسلمون بمثل هذه النعمة؟!

بَيْدَ أنني مسلم، لا يتقدم شيء أبدًا على ولائي لله، وقد تابعت مناقشات مجلس العموم البريطاني في مسألة إلغاء عقوبة الإعدام، ورأيت كيف حاولت رئيسة الوزراء الاقتصاص من القتلة، وكيف خذلها أغلب أعضاء المجلس، وأصروا على إلغاء عقوبة الإعدام.

قلت: هذا هو الفرق بين الشورى عندنا وبين الشورى عندهم. نحن نرى أنه لا اجتهاد مع النص، ولا شورى مع كلام الله ورسوله، وهؤلاء ساء ظنهم بالدين كله، وقرروا البحث بعقولهم عن مصالحهم، وكفر المغربيين بالدين يرجع إلى أسباب نابعة من البيئة لديهم. لا نشرحها هنا»[110].

ضياع الحرية من وراء التخلف:

ومن حفاوة الشيخ بالحرية، ومعرفته بقيمتها في الحياة إذا وجدت، وبأثرها إذا ضاعت، جعل ضياعها، وغلبة الاستبداد عليها هو السر وراء تخلفنا. استمع إليه يقول:

«بدأت صناعة الطيران في مصر والهند في سنة واحدة، كما بدأت بحوث الذرة

---

(110) «الغزو الثقافي يمتد في فراغنا» (ص: 62، 63).

تقريبًا في السنة نفسها، وأكب علماء البلدين على القيام بأعمالهم، والاستفادة من التقدم الأوروبي في هذا المجال.

وبعد ربع قرن نجح الهنود في إنتاج طائرة هندية، كما نجحوا في صنع قنبلة ذرية!

أما عندنا فقد توقف مصنع الطيران بعد سنوات معدودة، وتجمد العمل في وكالة الطاقة الذرية، وإلى الآن لم نخط إلى الأمام خطوة مقدورة!

ما سبب هذا الفشل؟ هل العقل الهندي أذكى من العقل المصري؟ لم يقل ذلك أحد من المعاصرين أو الغابرين!

السبب أن استقرار الحريات في الهند أتاح لكل ذي كفاية أن يعمل وأن ينجح ... وأن النظام الديمقراطي السائد أقام سباقًا لا حواجز فيه بين أصحاب المواهب، فانطلقوا بين عوامل التقرير والتشجيع يخدمون أمتهم، ويتبارون في إعلاء شأنها.

والنظام الديمقراطي في الهند «المتخلفة» جعل الحكومة المستولية على السلطة تجري الانتخابات، فتسقط فيها، وتأتي بالسيدة المعارضة «أنديرا غاندي» لتحكم، وكذلك يتكرر الأمر مع السيدة نفسها فتضع مقاليد الحكم في أيد أخرى؛ لأن الأمة رأت ذلك.

إن امرأة تحكم - ومعها جهاز شورى دقيق - أقرب إلى الله، وأحنى على الناس، من مستبد يقف الغراب على شواربه، ويزعم أنه أحاط بكل شيء علمًا، وهو لا يدري شيئًا!»[111].

(111) «علل وأدوية» (ص: 191).

* * *

4 - تحرير المرأة والأسرة

المرأة نصف الوجود البشري، إن لم تكن أكثر. وهي - بالنسبة للرجل - أمه وابنته وأخته وزوجه وعمته وخالته. ولا قيام للحياة البشرية إلا بالجنسين. فلا بد أن ينهضا بعبئها معًا، وفقًا لفطرة الله التي فطر عليها الناس، وهداية السماء التي أوحى بها الله.

وقد ظلمت الجاهليات المختلفة المرأة، وحرمتها حقوقها الفطرية، ونظرت إليها نظرة فيها كثير من الإهانة أو الاتهام أو الريبة. حتى جاء الإسلام فانتشلها من ظلم الجاهلية وظلامها، ورد إليها اعتبارها، فكرمها إنسانًا، وكرمها أنثى، وكرمها ابنة، وكرمها زوجة، وكرمها أمًّا، وكرمها عضوًا في المجتمع.

فهي مكلفة مثل الرجل، مجزية في الدنيا والآخرة مثل ما يجزى، يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]. ويقول سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195].

فالمرأة من الرجل والرجل من المرأة، أي كلاهما مكمل لصاحبه وليس خصمًا له.

ويقول ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: 71].

فالمرأة مطالبة كالرجل بالوظائف الاجتماعية والدعوية، وفي مقدمتها: الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، فليست هذه وظائف رجالية.

والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يقول: «**إنما النساء شقائق الرجال**»[112].

ومع وضوح التعاليم القرآنية والنبوية في شأن المرأة، فإن المسلمين في أعصار التخلف والانهزام الحضاري ظلموا المرأة، وأضاعوا كثيرًا من حقوقها وجعلوها سجينة بيتها، جاهلة بدينها ودنياها.

ظلمها كثير من الآباء، فزوجوها بغير رضاها وإذنها، ولم يعطوها حقها في الميراث، وهو فريضة من الله. وظلمها كثير من الأزواج، فحرموها الذهاب إلى المسجد، بل منعوها حتى من زيارة الأبوين.

وجار عليها المجتمع، وعَدّها مجرد آلة لمتعة الرجل، وقال بعض الناس: إن مهمتها أن تلد الرجال!

هذا الوضع المزري للمرأة المسلمة هو الذي غاظ الشيخ الغزالي، وعمل على مقاومته، وإصلاح ما أفسده الزمن من حال المرأة المسلمة، وتحريرها من عسف الرجال وتحكمهم بغير حق. ولم أر من المفكرين الإسلاميين من اهتم بأمر المرأة وإنصافها مثل الشيخ الغزالي.

وهو يريد أن يحرر المرأة من نوعين من التقاليد الدخيلة على الإسلام:

1 - التقاليد الموروثة من عهود الانحطاط في الحضارة الإسلامية، حيث اختفت التعاليم الصحيحة، التي جاءت بها النبوة الهادية، لتحل محلها تقاليد صنعتها

---

(112) رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن عائشة، والبزار عن أنس، كما في «صحيح الجامع الصغير».

أوهام البشر وأهواؤهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: 50].

2 – التقاليد الوافدة مع الغزو الفكري، والاستعمار الثقافي، وهي تقاليد مناقضة لتلك التقاليد البالية. تلك تريد أن تسجنها، وهذه تريد أن تعريها. وكلتاهما ضد الفطرة والوحي.

انتصار للمرأة باسم الإسلام:

انتصر الغزالي للمرأة ودافع عنها باسم الإسلام وشريعته، وشهر سيفه – وسيفه قلمه – في وجوه الذين حرموها حقوقها التي فرضها لها الإسلام.

وإذا نظرنا إلى الغزالي الداعية، أو الغزالي المصلح، أو الغزالي المفسر، أو الغزالي الفقيه، فسنجد أنه في كل مجال من هذه المجالات منصف للمرأة، محام بحرارة عنها.

آداب اللقاء بين الجنسين:

يرفض الغزالي حبس المرأة بين جدران بيتها الأربعة، فلا ترى رجلًا ولا يراها رجل. ويرى أن هذه شائعة مكذوبة في مجال العلم الشرعي. يقول حَفِظَهُ ٱللَّهُ:

«الفتوى الشائعة بين بعض المسلمين والمتناقَلة بين خصوم الإسلام: أن الإسلام يقيم أسوارًا عالية بين الجنسين حتى لا يرى أحدهما الآخر، فالرؤية المجردة محرمة!

وقد رجعت إلى القرآن الكريم والسنن المتواترة والصحيحة، فوجدت أن هذه الشائعة مكذوبة، وأن الرؤية العادية لا شيء فيها، وإنما المرفوض هو الرؤية الجريئة والوضيعة التي تبحث عن الإثم! ومن ثم أمر الدين بغض البصر، أمر بذلك الرجال والنساء على السواء، فإذا حدث أن وقع البصر على شيء يثير، وجب على

المسلم ألا يعاود النظر، وأن يحصن ضميره من الريبة وشتى الوساوس.

فالمسجد والشارع وأرجاء المجتمع يوجد فيها الجنسان تحكمهما هذه الآداب: عدم التبرج والإثارة، غض البصر والتزام العفة، انشغال كل مسلم ومسلمة بالأغراض المشروعة التي خرج من أجلها ...

وقد تواتر ذلك في حياة السلف الأول، فرئيت المرأة في المسجد، بل تبعت الجيوش المقاتلة، يحيط بها سياج من آداب الإسلام المقررة.

وأعرف أن هناك آثارًا واهية، نبذها أصحاب الدقة العلمية في تمحيص المرويات، ولم يذكرها عالم يروي الصحاح، ولا احترمها فقيه ينقل حقائق الإسلام، مثل ما روي عن فاطمة: أن المرأة لا ترى رجلًا ولا يراها رجل، ومثل حديث منع الرسول بعض نسائه أن يرين عبد الله بن أم مكتوم! وتلك كلها أخبار لا تساوي الحبر الذي كتبت به، وهي ظاهرة التناقض مع مقررات الكتاب والسنة المقطوع بثبوتها ودلالتها.

ولكن هذه المرويات المنكرة من الناحية العلمية هي التي صنعت الفكر الإسلامي في العصور الأخيرة، وفرضت الأمية والتخلف لا على المرأة وحدها، بل على نظام الأسرة وكيان المجتمع وطبيعة التشريع.

ووجد من خطباء المساجد من يقول: المرأة لا تخرج من بيتها إلا إلى الزواج أو إلى القبر!

ومن أيام جاءتني امرأة ثاكلة تقول: إن فؤادها يحترق من الحزن، وإنها تريد أن تزور قبر ابنها ... قلت لها: ولماذا لم تزوريه؟ قالت: إن إمام المسجد ذكر أن اللعنة تنزل على من يفعل ذلك! قلت لها: زوري قبر ابنك وأنت محتسبة صابرة، ثم عودي

إلى بيتك وأنت مسلِّمة بقضاء الله، ولك الأجر إن شاء الله. إن النبي – عليه الصلاة والسلام – فيما روي البخاري – لم ينه عن هذه الزيارة، ولا لام صاحبتها.

إن هناك عقولًا معتلة، تتعشق الآثار المعتلة، وتبني عليها ما تهوى من أحكام، والإسلام النقي بريء من هذه الانحرافات.

إننا في عصر شاركت فيه المرأة الرجل غزو الفضاء، فلا يجوز أن نترك القاصرين يثيرون على ديننا التهم، وينقلون إلى الناس ما في نفوسهم من علل»(113).

المرأة وصلاة الجماعة في المسجد:

يرى الشيخ أن المسلمين في عصور التخلف جاروا على المرأة، حتى إنهم حرموها من الذهاب إلى المساجد، مع ما للجماعة من أثر عميق في سلوك الإنسان، فضلًا عما يكون في المسجد من دورس وعظات.

وهذا أمر بدأ مبكرًا منذ عهد الصحابة، حتى إن عبد الله بن عمر ذكر الحديث الشريف: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»(114)، فقال له أحد أبنائه: «والله لنمنعهن، إنهن يتخذونه دخلًا». يريد أنهن يجعلن الصلاة حيلة للخروج والريبة! فقال له أبوه: أقول: قال رسول الله ... وتقول: والله لنمنعهن!! والله، لا كلمتك أبدًا ... وهجره حتى مات رضي الله عنه.

ويرى الشيخ الغزالي أن المسلمين تركوا رواية الأب الصحابي الفقيه، واتبعوا رأي الابن العاق الجاهل!

---

(113) «الحق المر» (2/ 118، 119)، ط. دار الشروق.

(114) الحديث متفق عليه عن ابن عمر، كما في «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان»، برقم (254).

يقول الشيخ:

«صح في السنة: أن المرأة راعية في بيتها وهي مسئولة عن رعيتها! ولا ريب في أن شئون الأولاد، خصوصًا الرضع، وإعداد البيت لاستقبال الرجل العائد من عمله، كل ذلك يحول دون انتظام المرأة في الجماعات الخمس.

ولذلك نرى أن حضور الجماعات مطلوب منها بعد أن تفرغ من وظائف بيتها، فإذا قامت بما عليها فلا يجوز لرجلها أن يمنعها من الذهاب إلى المسجد، وقد جاء في الحديث: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**».

ونحن موقنون بأن النبي - عليه الصلاة والسلام - جعل أحد أبواب المسجد خاصًّا بالنساء، وأنه أقامهن في الصفوف المؤخرة من المسجد - وذلك أصون لهن في الركوع والسجود - وأنه زجر الرجال الذين يقتربون من صفوفهن، كما زجر النساء اللائي يتقدمن قريبًا من صفوف الرجال ...

وقد بقيت صفوف النساء في المسجد طيلة العهد النبوي وأيام الخلافة الراشدة، لم يشغب عليها شاغب، تبدأ مع الفجر وتنتهي عند العشاء ...

وربما قامت للنساء جماعات حاشدة لصلاة التراويح في رمضان، ومعروف أن اشتراكهن في صلاة العيد وسماع الخطبة من شعائر الإسلام.

بيد أن الازدهار الذي أحدثه الإسلام في عالم المرأة أخذ يتعرض للذبول والتلاشي، فوضع حديث يمنع تعليم النساء الكتابة، كي يبقين على أميتهن الأولى!!

لحساب من تعود هذه الجاهلية؟

وعندما يفرض على نصف الأم الجهل والعمى، فكيف تنشأ الأجيال المقبلة؟

ثم شاع حديث آخر يأبى على النساء حضور الجماعات كلها، بل طلب من المرأة إذا أرادت الصلاة في بيتها أن تختار المكان الموحش المهزول، فصلاتها في سرداب أفضل من صلاتها في الغرفة، وصلاتها في الظلمة أفضل من صلاتها في الضوء!!

وراوي هذا الحديث يطوّح وراء ظهره بالسنن العملية المتواترة عن صاحب الرسالة، وينظر إلى المرأة المصلية وكأنها أذى يجب حصره في أضيق نطاق وأبعده.

ولنقرأ هذا الحديث الغريب كما ذكره ابن خزيمة وغيره:

عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي أنها جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني أحب الصلاة معك. قال: «**قد علمت أنك تحبين الصلاة معي! وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي**». قال الراوي: فأمرت فبني لها مسجد في أقصى شيء من بيتها وأظلمه، وكانت تصلي فيه حتى لقيت الله ﷻ!!

والبيت في الحديث هو غرفة النوم، والحجرة غرفة الجلوس، والصلاة في الأولى أفضل من الصلاة في الأخرى!

والصلاة في غرفة الجلوس أفضل من الصلاة في عرصة الدار، وهي في عرصة الدار أفضل من الصلاة في مسجد الحي ...

وكلما ضاق المكان وبعد واستوحش كانت الصلاة فيه أفضل!

ويجعل ابن خزيمة عنوان الباب الذي ذكر فيه هذه القضايا: «صلاة المرأة في

بيتها أفضل من صلاتها في مسجد رسول اللَّه». وما قول النبي – عليه الصلاة والسلام – : «**صلاة في مسجد هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد**» إنما أراد به صلاة الرجال دون صلاة النساء!!

والسؤال السريع: إن كان هذا الكلام صحيحًا، فلماذا ترك النبي النساء يشهدن الجماعات معه طوال عشر سنين من الفجر إلى العشاء؟ ولماذا خص أحد أبواب المسجد بدخولهن؟ ولماذا لم ينصحهن بالبقاء في البيوت بدل هذه المعاناة الباطلة؟

ولماذا قصر صلاة الفجر على سورتين صغيرتين عندما سمع بكاء رضيع مع أمه حتى لا ينشغل قلبها؟

ولماذا قال: «**لا تمنعوا إماء اللَّه مساجد اللَّه**»؟ ولماذا استبقت الخلافة الراشدة صفوف النساء في المساجد بعد وفاة الرسول الكريم؟

إن ابن حزم أراح نفسه وأراح غيره عندما كذب أحاديث منع النساء من الصلاة في المساجد، وعدها من الباطل!

وعلماء المصطلح يقولون: يُعَدّ الحديث شاذًّا إذا كان الثقة قد خالف به الأوثق.

فإذا كان المخالف ليس ثقة بل ضعيفًا، فحديثه متروك أو منكر!

ولم يجئ في أحد «الصحيحين» ما يفيد منع النساء من الصلاة في المساجد ... فهذه الأحاديث مردودة كلها ... فكيف إذا خالف الضعيف السنة العملية المتواترة والمشهورة؟ إن حديثه يستبعد ابتداء ...

وقد أتت على المسلمين عصور ماتت فيها السنة الصحيحة، ولا تزال هذه المأساة باقية تتعصب لها بيئات لا تعرف إلا المرويات المتروكة والمنكرة ...

وقد يُقبَل زجر المرأة عن حضور الجماعات إذا كانت متبرجة، فـإن الـذهاب إلى المساجد ليس استعراضًا للزينات، وبعثرة للفتن! إنه سـعي لمرضـاة اللَّه، وغـرس للتقوى ...

وحجز النساء عن هذا الشر هو بتنفيذ وصاة رسول اللَّه: « ... **يخـرجن تفـلات**» أي في ملابس عادية وهيئة طبيعية، لا تعطر ولا تبختر ...

أما إصدار حكم عام بتحريم المسـاجد عـلى النسـاء فهـو مسـلك لا صـلة لـه بالإسلام ...»[115].

صوت المرأة ليس عورة:

كما يكذب الشيخ الغزالي بقوة الشائعة الأخرى التـي تقـول: إن صـوت المـرأة عورة! كتب يقول:

«كان شاب قريبًا منى يكاد يتميز من الغيظ، ونحـن نسـتمع إلى بحـث تلقيـه إحدى السيدات. قلت له: ما بك؟ هل في الكلام خطأ؟ فرد لى عجل: أتقر هـذا؟! أليس صوت المرأة عورة؟ فأجبت في برود: هذا كذب، لا أصل له في دين اللَّه.

اسمع حكم الإسلام من كتاب اللَّه؛ يقول اللَّه لأمهات المؤمنين إذا حدثن أحدًا: ﴿ . . . فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: 32]. فهـل يصمتن فلا ينبسن ببنت شفة لأن الصوت عورة؟ كلا: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، أي ليكن الكلام طبيعيًّا ليست به نغمة مريبة ولا لحن مثير!

وعندما جاءت المؤمنات مهاجرات من مكة بعد عهد الحديبية عقد لهن امتحان

---

(115) «السنة النبوية» (ص: 61 – 64).

شفوي لتعرف أحوالهن، هل هن فارات بدينهن حقًّا؟ أم لهن مآرب أخرى، فإذا تبين من النقاش إيمانهن قبلن في المجتمع الإسلامي: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: 10]. ولم يدر بخلد أحد أن صوت المرأة عورة؟

وعندما جاءت المجادلة تشرح لرسول الله ﷺ قضيتها، وتراجعه في الحكم، لم يقل لها: اسكتي إن صوتك عورة ...

وعندما جاءت بنت شعيب - التي صارت زوجة لموسى فيما بعد - تقول له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ [القصص: 25] لم يقل لها موسى: كيف تتحدثين معي هكذا وصوت المرأة عورة؟!

وعندما دخلت ملكة سبأ قصر سليمان، وأراها العرش الذي استحضره من اليمن إلى القدس وسألها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل: 42]. قال المفسرون: عرف من إجابتها ذكاءها؛ لأنها مع إحساسها بأنه عرشها استبعدت أن يطير آلاف الأميال لتلقاه هنا! ولم يقل عالم ولا جاهل: إن صوتها عورة.

وعندما خرجت زينب بنت رسول الله على المسلمين في المسجد، وأعلنت أنها أجارت زوجها الذي أسره المسلمون في بدر، استمع الناس إلى الصوت الراجي المحزون، وقال الرسول الكريم في رقة: «**لم نتفق على هذا، وإن شئتم رددتم إليها زوجها**». ولم يقل أحد: إن صوتها عورة ...

إنني أكره من أعماق فؤادي علاقة المرأة بالرجل في الحضارة المادية التي أقامها الغرب - الصليبي والشيوعي - بيد أن هذه الحضارة سوف تبقى بأرجاسها وأدرانها ما بقي المتحدثون عن الإسلام يقدمونه بهذا الجهل والعمي!

إن صوت المرأة ليس عورة. العورة هي في هذا التفكير الذي لا سناد له، والذي

يصرخ به شباب جهول، باسم الإسلام المظلوم»(116).

المرأة والوظائف العامة في المجتمع:

موقف الغزالي هنا هو الموقف الذي يتفق مع الفطرة السليمة، ومع تعاليم الدين الصحيح. فقد كتب يقول حَفِظَهُ اللَّهُ:

«أكره البيوت الخالية من رباتها! إن ربة البيت روح ينفث الهناءة والمودة في جنباته ويعين على تكوين إنسان سوي طيب ... وكل ما يشغل المرأة عن هذه الوظيفة يحتاج إلى دراسة ومراجعة.

وإلى جانب هذه الحقيقة، فإني أكره وأد البنت طفلة، ووأدها وهي ناضجة المواهب مرجوة الخير لأمتها وأهلها!! فكيف نوفق بين الأمرين؟

لنتفق أولًا على أن احتقار الأنوثة جريمة، وكذلك دفعها إلى الطرق لإجابة الحيوان الرابض في دماء بعض الناس.

يمكن أن تعمل المرأة داخل البيت وخارجه، بيد أن الضمانات مطلوبة لحفظ مستقبل الأسرة. ومطلوب أيضًا توفير جو من التقى والعفاف تؤدي فيه المرأة ما قد تكلف به من عمل.

إذا كان هناك مائة ألف طبيب، أو مائة ألف مدرس، فلا بأس أن يكون نصف هذا العدد من النساء. والمهم في المجتمع المسلم قيام الآداب التي أوصت بها الشريعة، وصانت بها حدود الله، فلا تبرج ولا خلاعة، ولا مكان لاختلاط ماجن هابط، ولا مكان لخلوة بأجنبي: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ

---

(116) «الحق المرّ» (2/ 128، 129).

ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 229].

على أن الأساس الذي ينبغي أن نرتبط به أو نظل قريبين منه هـو البيـت، إننـي أشعر بقلق من ترك الأولاد للخدم، أو حتى لدور الحضانة.

إن أنفاس الأم عميقة الآثار في إنضاج الفضائل وحماية النشء.

ويجب أن نبحث عن ألف وسيلة لتقريـب المـرأة مـن وظيفتهـا الأولى، وهـذا ميسور لو فهمنا الدين على وجهه الصحيح، وتركنا الانحراف والغلو ...

أعرف أمهات فاضلات مديرات لمدارس ناجحة، وأعـرف طبيبـات مـاهرات شرفن أسرهن ووظائفهن، وكان التدين الصحيح من وراء هذا كله ...

وقد لاحظت أن المرأة اليهودية شاركت في الهزيمـة المحزنـة التـي نزلـت بنـا، وأقامت دولة إسرائيل على أشلائنا، إنها أدت خدمات اجتماعية وعسكرية لدينها.

كما أن امرأة يهودية هي التي قادت قومها، وأذلت نفرًا من الساسة العـرب لهـم لحى وشوارب في حرب الأيام الستة وفي حروب تالية!

وقد لاحظـت في الشـمال الإفريقـي وأقطـار أخـرى أن الراهبـات وسـيدات متزوجات وغير متزوجات يخدمن التنصير بحماسة واستبسال!

ولعلنا لا ننسى الطبيبة التي بقيت في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين وهي تهدم على رءوس أصحابها، وتحملت أكل الموتى من الحيوانات والجثـث، ثـم خرجـت ببعض الأطفال العرب آخر الحصار لتستكمل معالجة عللهم في إنجلترا!

إن هناك نشاطًا نسائيًّا عالميًّا في ساحات شريفة رحبة، لا يجوز أن ننساه، لما يقـع في ساحات أخرى من تبذل وإسفاف.

وقد ذكرني الجهاد الديني والاجتماعي الذي تقوم بـه النسـاء غـير المسـلمات في أرضنا أو وراء حدودنا، بالجهاد الكبير الذي قامت به نساء السلف الأول في نصرة الإسلام.

لقد تحملن غربة الـدين بشـجاعة، وهـاجرن وآويـن عنـدما فرضـت الهجـرة والإيواء، وأقمن الصلوات رائحات غاديـات إلى المسـجد النبـوي سـنين عـددًا، وعندما احتاج الأمر إلى القتال قاتلن.

وقبل ذلك أسدين خدمات طبية – أعنّ في المهام التي يحتاج إليها الجيش.

وقد ساء وضع المرأة في القرون الأخـيرة، وفرضـت عليهـا الأميـة والتخلـف الإنساني العام ...

بل إنني أشعر بأن أحكامًـا قرآنيـة ثابتـة أهملـت كـل الإهمـال؛ لأنهـا تتصـل بمصلحة المرأة، منها أنه قلما نالت امرأة ميراثها، وقلما استشيرت في زواجها!

وبين كل مائة ألف طلاق يمكـن أن يقـع تمتيـع مطلقـة ... أمـا قولـه تعـالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 241] فهو كلام للتلاوة ...

والتطويح بالزوجة لنزوة طارئة أمر عادي، أما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النسا: 35] فحبر على ورق ...

المرأة أنزل رتبة وأقل قيمة من أن ينعقد لأجلهـا مجلـس صـلح! إن الرغبـة في طردها لا يجوز تقاوم ...!!

وقد نددت في مكان آخر بأن خطيئة الرجل تغتفر، أما خطأ المرأة فـدمها ثمـن له!!

وقد استغل الاستعمار العالمي في غارته الأخيرة علينا هذا الاعوجاج المنكور، وشن على تعاليم الإسلام حربًا ضارية، كأن الإسلام المظلوم هو المسئول عن الفوضى الضاربة بين أتباعه ...

والذي يثير الدهشة أن مدافعين عن الإسلام أو متحدثين باسمه وقفوا محامين عن هذه الفوضى الموروثة؛ لأنهم - بغباوة رائعة - ظنوا أن الإسلام هو هذه الفوضى! والجنون فنون والجهالة فنون!!»(117).

❋ ❋ ❋

---

(117) «السنة النبوية» (ص: 52 - 55). وانظر تفصيل رأي الغزالي في تولي المرأة للمناصب العامة في حديثنا عن «الغزالي والفقه»، الفصل الثامن.

5 - تصحيح التدين المغلوط

عنى مفكرنا الغزالي بتصحيح الفكر الديني، والقصور الديني لدى المسلمين خاصتهم وعامتهم. وكان هذا بارزًا بيّنًا في كتبه الأولى: «الإسلام والأوضاع»، «الإسلام والمناهج»، «الإسلام المفترى عليه»، «الإسلام والاستبداد»، «تأملات في الدين والحياة»، «ليس من الإسلام»، «كيف نفهم الإسلام» ... وغيرها.

ثم ازداد ذلك بروزًا وتأكدًا في كتب المرحلة الأخيرة: «دستور الوحدة الثقافية»، وما بعده.

تصحيح المفاهيم المغلوطة:

وكان من أهم مظاهر الإصلاح والتجديد التي وجه إليها الغزالي فكره وقلمه وبيانه: تصحيح المفاهيم الإسلامية التي غلط الناس في تصورها، وأساءوا في تصويرها.

ومن ذلك: مفهوم «العبادة». وقد وضح ذلك في عدد من كتبه.

ولعل من أبلغ ما كتبه في ذلك ما جاء في كتابه: «مشكلات في طريق الحياة الإسلامية»، إذ يقول:

«عندما ننظر إلى العبادات السماوية نجد أداءها في اليوم والليلة لا يستغرق نصف ساعة، ونجد تعاليمها تستغرق صفحة أو صفحتين، ويبقى الزمان بعد ذلك واسعًا، والمجال رحبًا لفهم الحياة واكتشاف طاقاتها وتسخيرها كلًّا وجزءًا لخدمة الدين.

وكل جهد يبذل في ذلك يسمى شرعًا: عملًا صالحًا، وجهادًا مبرورًا، وضميمة

إلى الإيمان تؤهل المرء لرضوان الله ...

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: 94].

ومن المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالًا بالدنيا، عجزة في الحياة. والصالحات المطلوبة تصنعها فأس الفلاح، وإبرة الخياط، وقلم الكاتب، ومشرط الطبيب، وقارورة الصيدلي. ويصنعها الغواص في بحره، والطيار في جوه، والباحث في معمله، والمحاسب في دفتره. يصنعها المسلم صاحب الرسالة وهو يباشر كل شيء، ويجعل منه أداة لنصرة ربه، وإعلاء كلمته.

وإنه لفشل دفعنا ثمنه باهظًا عندما خبنا في ميادين الحياة، وحسبنا أن مثوبة الله في كلمات تقال ومظاهر تقام!

ومن قديم، رأى نفر من العابدين أن يحصروا عبادتهم في الصلوات والأذكار، يبدئون ويعيدون، ويظنون أن الأمم تقام بالهمهمة والبطالة. فمن ينصر الله ورسله، إذا كان أولئك جهالًا بالحديد وأفرانه ومصانعه؟ والله يقول في كتابه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الحديد: 25].

إن هناك سبعين صناعة مدنية وعسكرية تتعلق بالنفط واستخراجه والانتفاع بمشتقاته، لا نعرف منها شيئًا، فهل تخدم عقيدة التوحيد وما ينبني عليها بهذا العجز المهين ... ؟

إنه لو قيل لكل شيء في البلاد الإسلامية: عد من حيث جئت، لخشيت أن يمشي الناس حفاة عراة، لا يجدون - من صنع أيديهم - ما يكتسون، ولا ما

يتعلمون، ولا ما يركبون، ولا ما يضيء لهم البيوت ... بل لخشيت أن يجوعوا؛ لأن بلادهم لا تستطيع الاكتفاء الذاتي من الحبوب!!

وقد رأيت صيدليًا مشغولًا ببحث قضية «صلاة تحية المسجد» في أثناء خطبة الجمعة، ومهتمًا بترجيح مذهب على مذهب، فقلت له: لماذا لا تنصر الإسلام في ميدانك، وتدع هذا الموضوع لأهله؟

إن الإسلام في ميدان الدواء مهزوم! ولو أراد أعدء الإسلام أن يسمموا أمته في هذا الميدان لفعلوا، ولعجزتم عن مقاومتهم!

أفما كان الأولى بك وبإخوانك أن تصنعوا شيئًا لدينكم في ميدان خلا منه، بدل الدخول في موازنة بين الشافعي ومالك؟

وسألني طالب بأحد أقسام الكيمياء عن موضوع شائك في علم الكلام! فقلت في نفسي: إن جائزة «نوبل» لهذا العام قسمت بين نفر من علماء الكيمياء ليس فيهم عربي واحد، وحاجة المسلمين إلى الاستبحار في علوم الكيمياء ماسة. وقد أوردت في بعض كتبي كيف أباد الروس قرية أفغانية عندما شنوا عليها حربًا كيماوية، وذهب الضحايا في صمت، وتسامع جمهور المسلمين بالنبأ، وهو لا يدري شيئًا عما كان أو يكون.

قلت للطالب السائل:

إن ما تسأل عنه درسناه قديمًا، وحكايته كيت وكيت، وخير لك أن تنصرف عن هذا الأمر، وأن تقبل بقوة على ما تخصصت فيه. إننا فقراء إلى النابغين في المادة التي تتعلمها، وأغنياء عن المشتغلين بالفلسفات الكلامية». اهـ.

الدين في خدمة الشعوب:

كان الشيخ الغزالي يرى أن الإسلام مصدر قوة للشعوب، وليس قيدًا في رجلها ولا غُلًّا في عنقها، بل هو العامل الأول على تحريرها من الطواغيت، الذين يغزونها من الخارج، أو يستبدون بها من الداخل. وقد غاظه أن يساء فهم الإسلام، حتى يحسب مع الأديان المحرفة والمخرفة، التي تثبط الشعوب عن المطالبة بحقوقها، والجهاد في سبيلها، طلبًا لإحدى الحسنيين.

ومن ثم ألف مع بعض إخوانه من العلماء والأحرار المستنيرين لجنة تكتب وتنشر تحت عنوان اختارته شعارًا لها، وهو: الدين في خدمة الشعوب!

وربما أخذ على هذا العنوان أنه جعل الدين وسيلة وهو غاية، وأنه وضعه موضع «الشرطة في خدمة الشعب»! ولكن الشيخ أراد أن يرد على الماركسيين الذين جعلوا من أبرز شعاراتهم: الدين أفيون الشعوب.

والشيخ يقف بقوة ضد هذا الفهم المغلوط للإسلام، الذي لم يكن يومًا - بحسب تعاليمه الأصيلة - أداة للحكام ضد الشعوب، ولا للأقوياء ضد الضعفاء، ولا للأغنياء ضد الفقراء، ولا للملاك وأرباب المال ضد المستأجرين والعاملين ... إن الإسلام دائمًا مع المستضعفين في الأرض في مواجهة المتألهين والمستكبرين.

ولعل من أقوى الفقرات التي كتبها في ذلك: ما قدم به كتابه: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» في طبعته الثانية، حين قال:

«لم تستذل - في هذا العصر - شعوب كما استذلت شعوب الشرق، ولم يستغل شيء - في هضم حقوقها - كما استغل الدين.

لقد أنطقوه حيث يجب عليه أن يسكت، وأخرسوه حيث يجب أن يرسل

الصراخ العالي، كما يصرخ الحارس اليقظ إذا رأى جرأة اللصوص الوقحين!! وبذلك أصبحت الأمة مضيعة بين استذلال عنيد واستغلال منافق، وأصبح الدين مسخرًا في ميادين شتى لتسويغ الحيف، والتقليل من خطره. فكان حقًّا علينا – كمؤمنين – أن ننصف الدين من الأوضاع التي شانت حقيقته، وكان لزامًا علينا – كمواطنين – أن ننصف الوطن من الأنظمة التي ظلمت أهله، وأكلت ثروته، وكان من أجدر الحقائق بالإفصاح والإيضاح أن يعلم الناس علم اليقين أن الدين في خدمة الشعوب لا في خدمة فرد أو أفراد!!».

ويستمر الشيخ في بيان وظيفة الدين الحق، بعد أن يفضح مواقف رجال الدين قِبَل الإسلام، الذين كتبوا آيات الدين في ألواح مذهبة، تعلق في قصور الملوك الظلمة، أو صاغوها في ألحان عذبة ترسلها الأصوت الحنون تراتيل ومزامير! ثم يقول الشيخ في بيان ثائر هادر:

«إن الدين أنزل من عند الله لخدمة الشعوب وحدها، وليست آياته زينة تعلق على جدران القصور الظالمة، بل هي زلازل تدك بنيانها وتغل طغيانها، وما كان الوحي يومًا ما غناء مطربين، ولا تراتيل دجالين، وإنما هو نذير العدل يصرخ في آفاق الحياة باستنكار البغي والعدوان، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 108].

وليست وظيفة رجال الدين أن يمشوا في ركاب العظماء! فهل هذه إلا وظيفة المتملقين من رجال الدنيا؟! إن رؤساء الأديان المبعوثين من لدن الله كانوا ينشدون المساواة الحقة بين البشر، فإذا لم يستطيعوا أن يهبطوا بمنازل السادة فلن يعجزوا عن الارتفاع بمستوى العبيد، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ 5 وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: 5، 6].

وليس عمل الدين بين الناس أن يصبر المظلوم على ما نزل به، فهذه جريمة.

بل يقول الإسلام للرجل المغصوب في ماله، أو المنكوب في عرضه: «**من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد**» ... لا تستسلم أبدًا ... إن الدين في خدمتك: يضع السلاح في يمينك، ويضع الأمل في قلبك، ويضع الإصرار في إرادتك، ويكلفك أن تستميت دون حقك. إن الله لم يبعث أنبياءه ليستريح باسمهم نفر قلائل من حثالة الناس، أو من قادتهم العظام، إنما بعثوا ليستريح البشر كافة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

وهكذا سبقت مشيئة الله أن يكون الدين لخدمة الشعوب لا لسلب الشعوب واستغلال بنيها واستذلال أحرارها.

لشيء ما غلبت أمم على أمرها وذاقت ضراوة الوحوش من مستعمريها، أو ... من حكامها، وطالما تلفتت إلى الأرض وإلى السماء تلتمس النجدة!!! لقد كفرت بالدنيا لما ظلمت فيها، ثم كفرت بالدين لما ترقبت معونته فلم يسعفها بها.

أما هنا في الشرق فلن تتكرر المأساة الدامية! لن ندع الناس يكفرون لا بالدين ولا بالدنيا، سنقدم لها التأمين الاجتماعي مشربًا بروح الإيمان الحر ... أو الإيمان الله مفرغًا في نظام من الحرية والإخاء والمساواة. ذلك هو الدين كما أنزل من عند الله، ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ [فصلت: 53]. وما كان الدين مخدرًا للشعوب كما يقول فيه الساخرون، ولا كان مخدرًا للشعوب كما يصنع منه المسحرون. ولا مكان معه لشيوعية ولا رأسمالية ... خطتنا الفذة أبدًا هي: مع المظلوم حتى ينتصر، وعلى الظلم حتى ينكسر، وإلى جانب الشعوب حتى تتخلص من آسريها، وتثأر لنفسها من قاهريها ...!».

ويختم مقدمة الكتاب بهذا النداء الثوري:

«يا ضحايا الكبت والفاقة والحرمان، لقد نزل الدين إلى الميدان بجانبكم فضعوا أيديكم في يده. إن الشفاه التي تأمر بإذلالكم يجب أن تقص، والأوضاع التي تغتال حقوقكم يجب أن تقصى! والفراغ الذي خامر أفئدتكم تحت وطأة الاستعباد يجب أن تزاح غمته إلى الأبد».

النظرة الشمولية المتوازنة للإسلام:

لقد ضاق الشيخ الإمام بالتصوير الجزئي للإسلام، الذي بخل بـ «النسب» التي أقامها الشرع بين أحكامه وتعاليمه بعضها وبعض، فلم يجعلها كلها في درجة واحدة، لا في المأمورات، وفي المنهيات، وهو ما أسمينا العلم به «فقه الأولويات» أو «فقه مراتب الأعمال».

فالإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، كما صح في الحديث، ولكن الشيخ يتساءل:

«هل هذه الشعب مركوم بعضها فوق البعض كيفما اتفق؟ هل هي كسلع اشتراها شخص من السوق ثم وضعها في حقيبته كيفما تيسر؟ لا ... إنها شعب متفاوتة الخطر والقيمة ولكل منها وضع عتيد في الصورة الجامعة لا يعدوه.

والشبكة التي تكون شعب الإيمان كلها تشبه الخارطة الموضوعة للجهاز العامل في إحدى الوزارات أو إحدى المؤسسات. هناك مديرون، وهناك مساعدون، وهناك فعلة، وهناك مراقبون، وبين هذه وتلك علاقات مرسومة، ونظم إرسال واستقبال، وتنفيذ وإنتاج ...

إن شعب الإيمان التي تعد بالعشرات تشبه السيارة المنطلقة لها هيكل وإطارات

وقيادة ووقود وكوابح ومصابيح وكراسي وغير ذلك، وكل منها له وظيفته وقيمته.

ومنذ بدأت الثقافة الإسلامية والإيمان أركان ونوافل، وأصول وفروع، وأعمال قلبية وأعمال جسمية.

والذي يحدث عند بعض الناس أن جزءًا ما من الإسلام يمتد على حساب بقية الأجزاء، كما تمتد الأورام الخبيثة على حساب بقية الخلايا فيهلك الجسم كله!

وقد كان الخوارج أول من أصيب بهذا القصور العقلي أو بهذا الخلل الفقهي. قاتلوا عليًّا أو يتبرأ من التحكيم! وقاتلوا عمر بن عبد العزيز أو يلعن آباءه ملوك أمية!

وسيطرة فكرة معينة على الإنسان بحيث تملأ فراغه النفسي كله، ولا تدع مكانًا لمعانٍ أخرى شيء لا يستساغ!

لقيني رجل من المعروفين بالطيبة وسألني: هل تؤمن بكرامات الشيخ فلان؟ قلت: لم أقرأ سيرة هذا الشيخ. قال: إليك كتابًا يشرح سيرته ... ثم لقيني بعد فترة وسألني: ما رأيك؟ قلت: نسيت أن أقرأ الكتاب. قال: كيف؟ - بانفعال - قلت: الأمر غير مهم ... إذا مت وأنا لا أعرف صاحبك، فإن الله غير سائلي عنه، وعن كراماته. فانطلق يشيع عني أني مارق لا أومن بالكرامات ...

وقابلني آخر يقول: ما رأيك في الموسيقى؟ فأجبت: إن كانت عسكرية تثير الحماسة والتضحية فلا بأس، وإن كانت عاطفية تثير النشاط أو الرقة فلا بأس ... وإن كانت تثير العبث والمجون فلا ... فانطلق يشيع عني أني متحلل أسمع الحرام!!

كلا الشخصين آمن بشيء حسبه الدين كله، فهو يحاكم الأشخاص والأوضاع إليه وحده.

وهذا التورم الذي يصيب جانبًا دينيًّا معينًا هو السر وراء فقهاء لهم فكر ثاقب وليست لهم قلوب العابدين، ومتصوفين لهم مشاعر ملتاعة وليست لهم عقول الفقهاء.

وهو السر وراء محدِّثين يحفظون النصوص، ولا يضعونها مواضعها، ولا يجيدون الاستنباط منها.

وأصحاب رأي يلمحون المصلحة، ولا يحسنون مساندتها بالنص المحفوظ.

وهو السر وراء حكام يعملون - حسب المواصفات المقررة - رعاة للجماهير، وباعهم في تقوى الله قصير، وعامة يعكفون على العبادات الفردية، فإذا بلغ الأمر النصح والزجر والأمر والنهي والتعرض لغضب الحكام لاذوا بالصمت الطويل!

وهو السر وراء أناس يتقنون مراسم العبادة ولا يفرِّطون ذرة في صور الطاعات الواردة، ومع ذلك لا يعون من حكمتها شيئًا، ولا يستفيدون منها خلُقًا.

الصلاة تورث النظام والنظافة، وهم فوضى شعثون.

والحج رحلة العمر التي تعمر القلب والجوارح بالسكينة والرحمة، وهم في أثناء المناسك وبعدها قساة سيئون.

إن الدعوة الإسلامية تحصد الشوك من أناس قليلي الفقه كثيري النشاط، ينطلقون بعقولهم الكليلة فيسيئون ولا يحسنون.

ماذا يفيده الإسلام من شبان يغشَون المجتمعات الأوروبية والأمريكية يلبسون

جلاليب بيضاء، ويجلسون على الأرض ليتناولوا الطعام بأيديهم، ثم يلعقون أطراف أصابعهم، وهذا في نظرهم هَدْي الرسول في الأكل، والسنة التي يبدءون - من عندها - عرض الإسلام على الغربيين؟!

هل هذه آداب الإسلام في الطعام؟

وعندما يرى الأوروبيون رجلًا يبغي الشرب فيتناول الكأس، ثم يقعد وكان واقفًا، ليتبع السنة في الشرب، فهل هذا المنظر الغربي هو الذي يغري بدخول الإسلام؟!

لماذا تجسَّم التوافه على نحو يصد عن سبيل اللَّه، ويبرز الإسلام به، وكأنه دين دميم الوجه؟!

ثم إن الدعوة إلى الإسلام لا يقبل فيها عرض القضايا الخلافية مهما كانت مهمة عند أصحابها. والأكل على الأرض أو بالأيدي مسألة عادية وليست عبادية، ومن السماحة: عرض الإسلام من خلالها. ووضع النقاب على وجه المرأة أمر تناوله الأخذ والرد، ولا يسوغ بحال تقديمه عند عرض دين اللَّه على عباد اللَّه»[118].

* * *

(118) «الدعوة الإسلامية» (ص: 68 - 70).

6 - تحرير الأمة وتوحيدها

ومن جوانب الإصلاح المهمة عند الشيخ الغـزالي: تحريـر الأمـة الإسـلامية في مشارق الأرض ومغاربها من كل سلطان أجنبي يشل إرادتها أو فكرها أو يدها:

ولهذا قاوم الشيخ الاستعمار غربيه وشرقيه، قديمه وجديده، كما قـاوم عمـلاءه وفروخه في ديار الإسلام، الذين ينفِّقون فكره، ويتبنَّون خطه، ويسيرون في دربـه، من بني جلدتنا، وممن يتكلمون بألسنتنا.

قاوم الشيخ الاستعمار سواء تمثل في احتلال عسكري أم في تسلط سياسي، أم في تحكم اقتصادي، أم في غزو فكري أو تعليمي أو إعلامي أو اجتماعي.

الاستعمار أحقاد وأطماع:

وبين الشيخ أن الاستعمار لا تدفعه «الأطماع» وحدها في خيرات بلاد الإسـلام، بل هناك دوافع أخرى كامنة هي «الأحقاد» الموروثة من الحروب الصليبية، بل منذ اصطدم الإسلام بالنصرانية وانتصر عليها في آسيا وإفريقيا، وأخذ منها بلادًا كثيرة غدت جزءًا مهمًّا من «دار الإسلام».

وقدم الأدلة على هذه الروح التي ورثت هذا الحقد الأسود من وقائع التـاريخ، ومن أحداث الواقع.

يقول الشيخ: «كنا نفكر أن سيطرة الغربيين على بلادنا كانت مجرد غلب القوي على الضعيف، حتى صحونا من منامنا، أو استفقنا من بلاهتنا، فوجدنا الأوروبين الغزاة يطوون أفئدتهم على جميع المشاعر التي حركت أسـلافهم الأقـدمين، حـين حاربوا باسم «الصليب» زهاء قرنين من الزمان.

إنهم هم هم، بغضاؤهم للإسلام لم تنقص، بل ظلت في نماء، وسخطهم على أهله لا تزيده الليالي إلا ضرامًا.

كل ما أفادوه من تقدم علمي في إبان غفوتنا الأخيرة، أنهم غيروا الوسائل، وأضافوا إليها مقدارًا أكبر من الختل والخبث، وطوروا السلاح، ليجعلوه أشد فتكًا، وأوسع هلكًا، حشدوا كل ما لديهم ليجهزوا على الكتاب والسنة، أي على رسالة محمد عدوهم الألد ... ثم ليمزقوا أمته شر ممزق، فيسلطوا عليها من صنوف البلاء ما يجعلها تتعثر في طلب النجاة دون جدوى»[119].

الاستعمار الشيوعي:

كما بيّن الشيخ أن الاستعمار ليس هو فقط الاستعمار الغربي الذي احتل أوطان المسلمين من إندونيسيا إلى المغرب الأقصى: بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وهولندا وإيطاليا وغيرها، بل يشمل الاستعمار الشرقي الذي هو أحدّ أنيابًا وأقوى أظافر، وأشد شراسة من الاستعمار الغربي، أعني الاستعمار الشيوعي: الذي احتل عددًا من الجمهوريات الإسلامية في آسيا: أوزبكستان، وطاجيكستان، وكازاخستان، وأذربيجان ... إلخ، وهي أقطار إسلامية عريقة في إسلامها، ضمها الاتحاد السوفيتي إليه بالحديد والنار، فغدت جزءًا من امبراطوريته خلف الستار الحديدي.

وأبرز ما ظهر فيه موقف الشيخ من الاستعمار الأحمر: كتابه: «الإسلام في وجه الزحف الأحمر» الذي نشر طبعته الأولى في سنة (1966م)، أي في أوج عهد عبد الناصر. وقد كان الشيوعيون في ذلك الوقت لهم سطوة وسلطان، وكانوا ممكنين

---

(119) «كفاح دين» (ص: 111).

من جميع أجهزة الثقافة والإعلام، وكانت صلة مصر بالسوفيت وثيقة متينة. لا غرو أن قال الشيخ في مقدمة كتابه هذه العبارات:

«لذلك رأيت أن أكتب هذه الصحائف الحافلة بالحقائق العلمية والتاريخية، وأودعها صرخات قلب غيور على دينه، شفيق على أمته.

وأعرف أنني بكتابتها سأتعرض لعداوات مميتة، ولكن بئست الحياة أن نبقى، ويفنى الإسلام! إن الضربات تنهال من كل ناحية على هذا الدين الجلد! وعلى بُعد ما بين الخصوم الضاربين من منازع وغايات، فقد جمعهم حب الإجهاز على الإسلام، واقتسام تركته!

وقد فرض الله على العلماء أن يقولوا الحق ولو كان مرًّا، وألا يخشوا في الله لومة لائم. وعشاق الحق لا بد أن يحيوا معه، وإلا فبطن الأرض خير لهم من ظهرها.

والأمة التي أعنيها ليست عشيرتي الأقربين، ولا العرب أجمعين ... كلا. إنني أعني الأمة الإسلامية حيث انتشرت في الأرض، ولمس ترابها جبهات الساجدين، وكل منهم يهمس في خشوع: «سبحان ربي الأعلى».

هذه الأمة التي أحاط بها الطامعون والحاقدون هي الأمة التي أحذر عليها، وأعمل لها»[120].

لم ينس الشيخ في كتاباته ومحاضراته وخطبه الأمة الإسلامية، ولم يغفل يومًا عن قضاياها، بل كان هو المحامي الدائم عن قضاياها، والمدافع العنيد عن مظالمها، والمحرض المستمر لها لمواجهة أعدائها، وإبطال مكايدهم.

---

(120) من مقدمة كتاب: «الإسلام في وجه الزحف الأحمر».

وكتبه شاهدة على ذلك: «الاستعمار أحقاد وأطماع»، «الإسلام في وجه الزحف الأحمر»، «ظلام من الغرب» ... وغيرها.

قضية فلسطين:

وفي مقدمة القضايا الإسلامية التي تبناها الشيخ واحتلت بؤرة شعوره، وصميم قلبه وفكره، وعد نفسه حارسًا لها بقلمه ولسانه ووجدانه: قضية فلسطين، أرض الإسراء والمعراج، والمسجد الأقصى، وأولى القبلتين.

واهتمامه بقضية فلسطين يأخذ وجهتين:

الأولى: تحريك الأمة الإسلامية، لتنهض بواجبها في الدفاع عن أرض المقدسات، ونسيان ما بينها من خلاف لتقف صفًّا واحدًا، ضد العدوان اليهودي المغتصب.

الثانية: المقارنة بما تصنعه إسرائيل ويهود العالم: من تخطيط وتنظيم وبذل وتعاون، وكيف استخدموا علوم العصر، وتكنولوجياته المتطورة، في خدمة دولتهم، لتكون هذه المقارنة ذريعة لنا عسى أن نغير ما بأنفسنا، ملتمسين العبرة من عدونا.

وقف الشيخ بقلمه ولسانه مع قضايا المسلمين في العالم، مع الإسلام في كل مكان: الإسلام الجريح في الحبشة[121]، الإسلام المقاتل في كشمير والفلبين[122]، الإسلام المقاوَم في فلسطين ... وفي البوسنة والهرسك ... الإسلام الصامد في

(121) انظر: حديثه عن «مأساة المسلمين في الحبشة» في كتابه: «كفاح دين»، فصل: «حكومات مسيحية لشعوب مسلمة» فصل: «ذئاب الحبشة تنهش الإسلام».
(122) انظر: أحوال المسلمين في الفلبين، في كتاب «علل وأدوية» (ص: 209 - 211).

إندونيسيا، وفي بـنجلاديش في آسـيا، وفي نيجيريـا والصـومال في إفريقيـا؛ أمـام موجات التنصير والعلمانية، الإسلام الذي يقاوم التغريب والعلمنـة في تركيـا وفي البلاد العربية ...

وقف الشيخ مع اللاجئين المشردين من أبناء الإسلام في أنحاء العالم: أبناء بورما وتشاد والصومال وإريتريا وغيرهم ...

لقد وقف الشيخ مع كل قضايا المسلمين، بحيث تستطيع أن تقول: إنه «محامي الأمة الإسلامية» حيثما كان لها قضية.

توحيد الأمة بعد تحريرها:

ولا يقف الشيخ عند قضية التحرير، بل لا بد من العمل على «توحيد الأمة» كما أمر اللَّه سبحانه، فهي «أمة واحدة» وليست أممًا، وعندها من عوامـل التوحيـد مـا يقرب بينها. العقبة الكأداء في سبيل وحدتها هو ما صـنعه الاسـتعمار مـن أنظمـة وثقافات ومناهج وأفكار، باعدت بين شعوب الأمـة، وخصوصًـا بـين حكامهـا وقادتها ...

ويرى الشيخ أن إعادة الخلافة الإسلامية فرض عين عـلى الأمـة، وهـي لازمـة شرعًا وواقعًا لتبليغ الدعوة إلى العـالم وحمايتهـا، والـدفاع عـن المستضـعفين مـن المسلمين، وعن قضايا الإسلام في أنحاء الأرض.

يقول الشيخ في ألم وأسى: «إن قلبي يتفطر عندما أرى الدم الإسلامي أرخـص دم عـلى الأرض ... لقـد اسـتباحه المجـوس واليهـود والنصـارى والوثنيـون والملحدون ... وحكام مسلمون!!

ولا ريب في أن المدافعين عن الإسلام تكتنفهم ظروف صعبة معقدة، غـير أنـه

بين الحين والحين ينبجس من روح الله ندى يواسي الجراح، ويهون الكفاح، ويبشر بالصباح ...

ومهما كانت الأوضاع محرجة فلا بد من بقاء الدعوة الإسلامية مرفوعة الراية، واضحة الهداية، تعلن الحق وتبسط براهينه، وتلقف الشبه وتوهي إسنادها ...

إن محمدًا ليس وقفًا على عصر أو جنس، إن رسالته للقارات الخمس ما بقي الزمان، وعلينا أن ننهض بهذا العبء ...

وحتى تعود «الخلافة الإسلامية» – وإعادتها فرض عين – لتتولى هذه المهام يجدر بنا أن نتبع ما يأتي ...»[123]. ويذكر الشيخ هنا جملة من المقترحات النافعة.

مسئولية الخلافة عن الدعوة في العالم:

وفي موضع آخر تحدث الشيخ عن «الدعوة الإسلامية والحكام الخونة»، وقال في مقدمة هذا الفصل:

«المسلمون مكلفون بنشر دينهم في القارات الخمس. ويجب أن تكون لديهم أجهزة متخصصة تعرِّف العالم كله: من محمد؟ وما رسالته؟ ما الذي ينشده للناس كي يسعدوا في معاشهم ومعادهم؟

يجب أن تكون تعاليم الإسلام تحت أبصار الناس قاطبة، فمن شاء قبلها، ومن شاء ردها، المهم أن يعرفها على حقيقتها، وأن يزول الجهل بها، وألا يكون الدخان الذي أطلقه أعداؤها حائلًا دون هذا الإدراك الواعي السليم.

وقد كانت «الخلافة» الكبرى مسئولة عن ذلك، إذ كانت رمزًا للإسلام،

---

(123) «قذائف الحق» (ص: 148).

وشاخصًا عالميًّا يلفت الأنظار إليه، ويذود الأعداء عنه.

ومع أن «الخلافة» عندما تولاها الجنس التركي قد أصبحت شبحًا عليلًا، ومع أن الخلفاء الأتراك كانوا أقرب إلى السلاطين الجبابرة منهم إلى أمراء المؤمنين وحراس اليقين ودعاة الحق وهداة الخلق!! مع ذلك كله، فإن وجود الخلافة فيهم كان له أثره في وحدة المسلمين، وتقليل الخسائر النازلة بهم من هنا وهناك.

وحسبنا أن نشير إلى موقف السلطان «عبد الحميد» من فلسطين، فقد ساق إليه اليهود قناطير الذهب ليسمح بوجود يهودي فيها، فأبى الرجل إباء قطع كل محاولات الإغراء، وأحبط جميع المؤامرات لشطر العالم الإسلامي بهذا العنصر الغريب.

ولما كان لوجود «الخلافة» من آثار مادية وأدبية بعيدة المدى، فقد كان همُّ العالم الصليبي أن يجهز عليها. وقد استطاع أن يبلغ غرضه بعد الحرب العالمية الأولى مستغلًّا أطماع القائد التركي «مصطفى كمال» الذي باع الإسلام والمسلمين من أجل البقاء رئيسًا للدولة التركية الجديدة!!

إن الشروط الأربعة التي عرضها «الحلفاء» المنتصرون عليه هي أن يقطع صلة تركيا بالعالم الإسلامي وبالعرب خاصة، وأن يلغي نظام الخلافة، وأن يحكم الشعب بدستور تقدمي مبتوت الصلة بالدين»[124].

تذويب الفِرَق المنشقة عن الأمة:

وللشيخ الغزالي رأي له أهميته في وجوب تذويب الفِرَق المنشقة عن الجماعة

(124) المصدر السابق (ص: 135).

والأمة الإسلامية، نسجله هنا. يقول شيخنا:

«في الأمة الإسلامية الآن فرق تذكرنا بمذاهب الباطنية وفلسفاتها الدخيلة التي نجحت قبل ألف عام. هناك النصيرية، والدروز، والإسماعيلية – الأغاخانية – وأمثال أولئك جميعًا ممن ينتمون إلى الإسلام انتماء غامضًا.

وقد يزعمون أنهم مسلمون شعية! بيد أن جماهير الشيعة ترفضهم وتتنكر لهم ...

إنهم سلالات باطنية تلبس الإسلام على خليط من الأفكار التي لا سناد لها، وهم في نظري ضحايا الإهمال الغريب من الدولة والأمة معًا ...

لماذا تمر القرون الطوال وهؤلاء الناس معزولون داخل دار الإسلام على هذا النحو المتوارث؟

أكثر من ألف عام والحكم الإسلامي غير مكترث بالتجميد الأدبي لألوف مؤلفة من الناس تعيش في صميمه، لا هم منه ولا هم من عدوه ...!!

إن هذا الخطأ لا بد أن يوضع له حد، ولا بد من التعفية على آثاره!

ولدت الباطنية ونمت في الفراغ الحقيقي الذي كان موجودًا بين الحكام والشعوب. أغلب الحكام كان جائرًا جاهلًا وإن لبس برد الخلافة أو لاذ بمن يلبس هذا البرد ...

وتعلقت القلوب بمنقذ من آل البيت، ينسخ الجور ويؤنس المستوحشين.

وحول هذا الأمل الحبيب تكونت في الظلام عصابات، لم تجد لها في وضح النهار مكانًا.

وحول قليل من الحق تكونت مذاهب مستوردة من الهندوكية والمجوسية واليونانية وغيرها، فكان التفكير الباطني، وكانت شعبه العديدة.

نصوص من القرآن يتم تفريغها من محتواها الصحيح، لتحل محله أوهام المستغلين، وخيالات ما أنزل الله بها من سلطان!

واتسعت دائرة المخدوعين المستغلين خصوصًا في القرنين الثالث والرابع، وبلغ من سطوة الباطنية أن إحدى فرقهم انتزعت الحجر الأسود من مكانه في الكعبة المشرفة، فلم يعد إلا بعد نيف وعشرين سنة بشفاعة فرقة أخرى![125].

وإذا كان ذلك عجيبًا، فإن رد الفعل أعجب لدى الحاكمين والمحكومين على سواء.

ولقد استيقنت - وأنا أقرأ هذه الصحائف السود - أن نظام الحكم من قديم كان القشرة العفنة في كياننا كله.

ولقد نهض عدد كبير من العلماء بدحض الفكر الباطني وفضح خرافاته، حتى انصرف عنه جمهور العقلاء، وانكسرت حدته السياسية انكسارًا تامًّا.

لكن حكام المسلمين - في غيبوبتهم الفكرية - لم يكملوا ما بدأه العلماء المجاهدون، بل لقد خيل إلي أنهم جمَّدوا - عن عمد - بقايا الباطنية، مع أن قضاياها أمست بلا موضوع.

وجمهور المنتسبين إلى هذه الفرق انقطع عن المنابع التي كانت تمده في القديم، وبقيت نسبته إلى الإسلام أبرز في وعيه من النسبة إلى أفكار أخرى.

---

(125) يقصد الفاطميين في مصر.

والخطوة التالية والواجبة أن يستلحق الكيان الإسلامي الكبير هـذه الطوائـف التي اقتطعت منه لظروف مؤسفة، يستطيع بالتعليم الموصول والإعلام الـدائم أن يجعل راية الكتاب والسنة ترفرف عليها وعلى جميع المسلمين.

نعم، فليس لهذه الطوائف دين تنتسب إليه إلا الإسلام - كما يقولون - وليست لها فلسفات عقلية أو اجتماعية تمثل مذهبًا مستقلًّا في الحياة، وربما كانـت الـروابط التي تمسك أبناءها روابط قبلية، أو عصبيات جنسية. وخطأ الجماعة الإسـلامية في الحفاظ على كيانها الكبير لا يجوز أن يستمر بعد اليوم.

لقد دخل الصليبيون الأندلس، فلم يبقوا فيه إلا مذهبًا واحدًا هو «الكثلكة».

وسيطر الإسلام على ما يسمى الآن «الشرق الأوسط» وبقي فيـه أربعـة عشر- قرنًا، ومع ذلك فإن الطوائف الكثيرة لا تزال تكون فيه عصبة أمم!!

ربما كان ذلك شاهدًا على ما انفرد به الإسلام من سـماحة مسـتغربة في التـاريخ البشري الحافل بفنون التعصب. لكن هذه السماحة لا يسوغ أن تتحـول إلى فتـوق تأتي عليه من القواعد، وتأذن للخيانات والمخادعات أن تنال منه.

وعلى الجماعة الإسلامية أن تدفع عن وجودها بالوسائل العادية التي فاتتها مـن قديم، أي أن عليها تذويب هذه الفرق كلها في الكيان العام»(126).

مبادئ للتصالح بين السنة والشيعة:

كما يرى شيخنا الإمام أن أوضاع المسلمين الراهنة، والأخطـار المحدقـة بهـم، وتداعي الأمم عليهم من كل أفق، كما تتداعى الأكلـة عـلى قصـعتها، كـل ذلـك

---

(126) «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» (ص: 144 - 146).

يوجب الدعوة من عقلاء أهل السنة والشيعة إلى التصالح والتضامن بين الفريقين لمواجهة التحديات. وفي ذلك يقول:

«من الخلافات الموروثة: ما بين الشيعة وأهل السنة من فجوات ملأتها الدماء في بعض الأعصار، وزادها البهت والافتراء بين الحين والحين!

وما أنكر أن أسبابًا علمية وعاطفية تخفى أو تظهر وراء هذا الخلاف، بيد أن للسياسة ومطالب الحكم أسبابًا أخرى وأنمى.

وقد تحدثت في كتب أخرى عن حقيقة ما بين الفريقين من الناحية العلمية، ولا مجال هنا لتفصيل أو زيادة. وأعترف بأن لي أصدقاء من الشيعة أعزهم وأحبهم.

ومن أجل ذلك أعرض هذه المبادئ لدفع الأمور إلى طريق التصالح والإخاء:

1 - يتفق الفريقان في مؤتمر جامع على أن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام المصون الخالد، والمصدر الأول للتشريع، وأن الله حفظه من الزيادة والنقص وكل أنواع التحريف، وأن ما يتلى الآن هو ما كان يتلوه النبي ﷺ على أصحابه، وأنه ليس هناك في تاريخ الإسلام كله غير هذا المصحف الشريف.

2 - السُّنَّة هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم، والرسول أسوة حسنة لأتباعه إلى قيام الساعة، والاختلاف في ثبوت سنة ما أو عدم ثبوتها مسألة فرعية.

3 - ما وقع من خلاف بين القرن الأول يدرس في إطار البحث العلمي والعبرة التاريخية، ولا يسمح بامتداده إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم، بل يجمَّد من الناحية العلمية تجميدًا تامًّا، ويترك حسابه إلى الله وفق الآية الكريمة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 141].

4 - يواجه المسلمون جميعًا مستقبلهم على أساس من دعم الأصول المشتركة - وهي كثيرة جدًّا - وعلى مرونة وتسامح في شتى الفروع الفقهية ووجهات النظر المذهبية الأخرى.

إنني لا أستطيع خلال سطور، أن أحل مشكلة تراخت عليها العصور، لكنني ألفت النظر إلى أن أوهامًا وأهواء تملأ الجو بين الشيعة وجماعة المسلمين لا يسيغ العقلاء بقاءها.

ولو وضع كل شيء في حجمه الطبيعي، وأغلقت الأفواه التي تستمرئ الوقيعة والإفك لتلاشت أنواع من الفرقة لا مساغ لوجودها.

وإني إذ أرسل هذه الكلمات إلى إخواني في كل قطر، أستشعر الخطر الذي يكتنف المسلمين هنا وهناك، وكثافة القوى التي تتجمع في هذه الأيام للإجهاز عليهم، واستئصال شأفتهم.

لقد اتفقت أحزاب أهل الكتاب وأحزاب الوثنية، وأحزاب الماديين، جميعًا على استئصال شأفتنا، فإلى متى نتفرق؟!

لماذا يتباعد أتباع المذاهب الفرعية؟

لماذا تُجترُّ خلافات بين السلف، وتُمنح القدرة على الحياة والأذى؟»[127].

***

---

(127) المصدر السابق (ص: 147، 148).

7 - الدعوة إلى التقدم والخروج من التخلف

ومما أخذ من عناية الشيخ الغزالي جانبًا غير قليل: دعوته الدائبة إلى استخراج الأمة من دائرة التخلف، والعمل على إلحاقها بركب التقدم البشري الصاعد أبدًا إلى الأمام.

إن التأخر ليس من طبيعة هذه الأمة ولا من لوازم تدينها، فقد كانت هذه الأمة هي الأمة الأولى في العالم كله، قرابة ألف عام، وكانت حضارتها هي الحضارة الغالبة والسائدة، وكان علماؤها في كل فرع من العلوم هم قادة العلم والفكر في الدنيا القديمة.

ومن ذا الذي يجحد ما قدمه أمثال ابن حيان في الكيمياء، وابن الهيثم في الفيزياء، والخوارزمي في الجبر، والبيروني في الرياضيات، والرازي وابن سينا والزهراوي وابن النفيس في الطب، وابن رشد في الطب والفلسفة؟

ومن ينكر ما قدمه المسلمون للعالم بإقرار المنهج الاستقرائي التجريبي، إقراره عمليًّا في شتى العلوم الطبيعية والكونية، والدفاع عنه نظريًّا بنقد المنهج الصوري القياسي، الذي قام على أساس المنطق الأرسطي؟[128].

ومن هنا اقتبست أوروبا من الحضارة الإسلامية المنهج التجريبي؛ وأسست عليها نهضتها، كما شهد بذلك شهود منصفون من أهلها، أمثال بريفولت وغوستاف لوبون، وجورج سارطون.

---

(128) نقد الإمام ابن تيمية منطق أرسطو نقدًا علميًّا، وانظر: كتاب: «مناهج البحث عند مفكري الإسلام ونشأة المنهج العلمي في العالم الإسلامي»، للدكتور علي سامي النشار.

فالتخلف - إذن - طارئ على الأمة، وعلة عارضة لها، وليست من طبيعتها ولا طبيعة دينها الذي جعل منها من قبل خير أمة أخرجت للناس، وبوأها مكان الأستاذية للبشرية كلها.

وحرام على الأمة المسلمة أن تظل في مؤخرة الأمم في مجال العلم والعمران والتكنولوجيا، ومكانها الطبيعي أن تقود هي القافلة!

وهذا ما شغل فكر الشيخ الغزالي، وكوى قلبه بنار الأسى على مصير الأمة القائدة: أن تنتهي إلى هذا الوضع الذي صارت إليه اليوم: تستورد ولا تنشئ، تستهلك ولا تكاد تنتج إلا التوافه. حتى قوتها اليومي لا تنتج منه ما يكفيها، برغم خصوبة أراضيها، وحتى سلاحها الذي تذود به عن بيضتها لا تصنعه، بل تشتريه من غيرها بشروطه طبعًا!

عجز الأمة عن توفير غذائها:

لأسباب شتى أخذت أمتنا تتراجع أمام خصومها، وتترنح تحت ضربات موجعة. وظهر عجزها عن تبليغ رسالتها، بعد عجزها عن العمل بها بداهة، وعجزها عن حماية نفسها؛ لأنها لم تعد تصنع السلاح الذي يحميها.

وتبع ذلك عجز أنكى وأخزى، هو عجزها عن صنع رغيفها الذي تأكله.

يقول شيخنا: «وقد قرأت أنباء «ندوة الغذاء العربي» التي انعقدت في دمشق، واستوقف بصري عنوان كبير: (77٪) من قمح رغيف الخبز من الأقطار العربية مستورد! سنة (2000م) يستورد العرب غذاء قيمته (120) مليار دولار» ...

يقول المحرر: لندخل في التفاصيل. لقد وصلت تكلفة المستوردات العربية للمنتجات الغذائية سنة (1981م) إلى (22.5) مليار، أي أنها تضاعفت أكثر من

اثنتي عشرة مرة خلال اثني عشر عامًا.

أما الصادرات في العام نفسه فلم تتجاوز (3.5) مليار دولار، أي أن العجز في الميدان الغذائي وحده بلغ (19) مليار دولار ...

ثم قال المحرر: إننا ننحدر عامًا بعد عام! فإن النسبة الاكتفاء الذاتي من الحبوب في أوائل السبعينات كانت (84٪)، ثم هبطت في نهاية هذا العقد إلى (60٪)، وكانت نسبة الاكتفاء الذاتي في السكر (40٪)، وفي المنتجات الحيوانية انخفضت النسبة من (81٪) إلى (65٪)، حتى القطن الذي كان لدينا من أهم المحصولات الزراعية انخفضت نسبة الاكتفاء الذاتي فيه من (240٪) إلى (190٪)».

ثم قال: « ... والوطن العربي يستورد (17٪) من صادرات القمح العالمية، و(15٪) من صادرات الأرز العالمية، و(40٪) من صادرات الأغنام في العالم، و(53٪) من الصادرات العالمية لزيت بذرة القطن، و(12٪) من زيت عباد الشمس، و(13٪) من الألبان المجففة ...».

لم هذا الاستيراد كله؟ ولماذا لا ينتج العرب ما يستهلكون؟ وما نتيجة اعتمادهم على غيرهم فيما يأكلون؟

النتيجة نفهمها من قول وزير الزراعة الأمريكي سنة (1975م) لمجلة «دير شبيجل» الألمانية: «السلطة في العالم تتركز في موردين لا ثالث لهما، هما النفط والغذاء، وسلطة الغذاء أشد قوة! ولهذا يصبح الغذاء أخطر مكانة وأعظم أثرًا في تعاملنا مع ثلثي سكان الأرض ... ».

ونضيف نحن أن الذين يملكون موارد الغذاء هم الذين يحمون موارد النفط لضمان مصالحهم. وقد أكد أكثر من مسئول أمريكي أن الولايات المتحدة حريصة

عند تقديم مساعداتها للدول النامية على أن تكون مصحوبة بشرط تحقق المصالح الأمريكية الثقافية والسياسية ...

نقول: وكذلك المصالح الصهيونية والصليبية، فإن خصوم «إسرائيل» لا يجوز أن يحصلوا على دولار واحد! وكذلك خصوم التبشير الاستعماري والغزو الفكري، ليس من حق صاحب اليد السفلى أن يعترض على السادة في قليل أو كثير، إلا أن يكون الاعتراض من باب التمثيل أو من قبيل الاستهلاك المحلي.

إن المتخلفين صناعيًّا وحضاريًّا ليس لهم أن يغالوا بعقائدهم وشرائعهم، ليس لهم أن يحتفظوا بمعالم شخصيتهم. يجب أن يفتحوا أبوابهم لكل ما هو أجنبي، وأن يتواروا خجلًا بكل ما هو قومي ووطني»(129).

أسباب تخلف الأمة:

صنف الشيخ الغزالي كتابًا في «سر تأخر العرب والمسلمين» لا أجده أمامي الآن، ولكني وجدت الشيخ في كتاب آخر تحدث بإسهاب عن «أسباب انهيار الحضارة الإسلامية»، وأحسب أنها تصلح أسبابًا لتأخر الأمة أيضًا وتخلفها.

حصر شيخنا الإمام هذه الأسباب في تسعة أساسية، نتحدث عنها إجمالًا فيما يلي:

1 - سوء الفهم للإسلام، وتقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم، وشيوع خرافات باسم الدين مثل قراءة البخاري عند الأزمات، لا اتخاذ الأسباب وفق السنن، كما حدث في استقدام بعض المشايخ لقراءة البخاري في سفن الأسطول التركي للبركة، فعلق بعض الظرفاء فقال: إن السفن تسير

(129) انظر: «الغزو الثقافي يمتد في فراغنا» (ص: 148 - 150).

بالبخار لا بالبخاري! وقبل معركة التل الكبير أقام أحمد عرابي باشا حفل ذكر، كي ينصره الله على الإنجليز وكانت النتيجة أن انهزم بعد معركة استغرقت ثلث الساعة!

2 – وقوع الخلل الكبير في الثقافة الإسلامية، التي هي الغذاء الفكري والروحي للأمة، والتي تصنع عقولها وأذواقها وإراداتها.

وهذا سنعرض له بتفصيل في المبحث القادم.

3 – جهل المسلمين بالدنيا: وهذا ناشئ عن اختلال الثقافة. يقول الشيخ: قد استطاع ناس كثيرون أن يعرفوا من دراسات الأرض والسماء ما جعل أيديهم باطشة، وأسلحتهم فاتكة، فأين منزلة المسلمين من هؤلاء؟ يقول الشيخ: عندما كنت أقرأ الهجوم الفرنسي على مصر في القرن الثالث عشر للهجرة، كنت أحس طنينًا في دماغي لكثرة ما سفك من دمائنا دون جدوى. كان الفرسان الشجعان يذوبون أمام المدافع الحديثة، والذخائر الخبيثة. وكانت خبرة الفرنسيين بالحياة وعلومها وكشوفها تساعدهم على التوغل بقدرة، وترغم الأحرار على الفرار أو الموت الرخيص! لماذا جهلنا الحياة وبحوثها على هذا النحو؟ إن العلم الواسع بالدنيا، والقدرة التامة عليها، كانت أمورًا بديهية عند أسلافنا.

4 – انتشار الجبرية في العالم الإسلامي: فالإنسان مسير لا مخير، والمرء لا حول له ولا طول، ولا قدرة ولا إرادة. ومن أين له والقدر يحركه ذات اليمين وذات الشمال برغمه؟

كريشة في مهب الريح حائرة   لا تستقر على حال من القلق

فالغنى والفقر، والسعادة والشقاء، والنجاح والفشل: حظوظ مقسومة، وأنصبة مكتوبة، والمكتوب ما منه هروب! وبذلك اهتزت الشخصية المسلمة، وسيطر عليها لون من التسليم والسلبية.

وسبب ذلك فيما يرى الشيخ: علم الكلام، وعلم التصوف، وبعض مفسري القرآن، وشراح السنن. وانضم إلى ذلك ضعف الصلة بين الأسباب والمسببات، وانتشار فكرة الكرامات وخوارق العادات، حتى كادت تبطل السنن الإلهية التي أقام الله عليها هذا الكون.

5 - تقاليد الرياء في المجتمعات الإسلامية: فقد كان السلف أسلم الناس فطرة، وأصفاهم طبيعة. جعلوا الله ورضوانه غايتهم، والرسول أسوتهم، فيما يفعلون ويتركون.

أما مسلمو العصور الأخيرة، فقد استحدثوا في حياتهم تقاليد كثيرة، تقوم على التكلف والتزويق والتظاهر الزائف، وتبتعد عن فطرة الإسلام السمحة السهلة. لما تأيمت حفصة بنت عمر لم ير الأب غضاضة في أن يفاتح صديقه أبا بكر في الزواج منها، وكذلك عثمان، بحكم عاطفة الأبوة.

واليوم وقبل اليوم يجيء الخُطّاب للبنات فيرفضهم الآباء، لا لشيء إلا تحكيم تقاليد بالية، يرفض فيها من يرضى دينه وخلقه. وتغلق البيوت على عوانس كثيرات بائسات يائسات! إن الربا شرك. وهذا الشرك سيطر على أعراف وعادات جعلت المسلمين يرقب بعضهم بعضًا ويتقي بعضًا. وجعلت الرجل - باسم كرامته أو كرامة الأسرة التي ينحدر منها - يعيش طول عمره وفق أوضاع وقيود من صنع الاستعلاء والتزمت.

إن الأمة المسلمة في القرون الأخيرة جمعت الكثير من الجاهليات في مسالكها الخاصة والعامة: في نفقاتها، في صداقاتها، في أحزانها وأفراحها، في علاقاتها بحكامها، ولم تكن تفسيرًا عمليًّا لأحكام الإسلام وحدوده، وفطرته وسماحته.

6 - وضع المرأة في عصور الضعف: منعت المرأة من التعلم بناء على حديث مكذوب: «**لا تعلموهن الكتاب**» وآخر واهٍ جدًّا: «**ألا ترى رجلًا ولا يراها رجل**».

وحرمت من الذهاب إلى المسجد بناءً على مرويات أخر، تخالف المتواتر والصحيح من السنن، فأقفرت منهن بيوت الله، وانقطعت من التوجيه الديني، فلا قرآن ولا حديث ولا فقه ... وبذلك أصبحت المرأة المسلمة دون غيرها من نساء العالم أقل ارتباطًا بالدين، واتصالًا بالمجتمع. فاضطرب حبل التربية في العالم الإسلامي اضطرابًا شديدًا.

7 - ذبول الأدب العربي: فعندما ضعف المسلمون أصاب ملكاتهم الأدبية ضمور شائن، فانحط الشعر والنثر. وقل الأدباء المصورون، كما قل المؤلفون والمفكرون.

ونظرة إلى الأدب ورجاله منذ القرن السادس تجعلنا نشعر بهذه الحقيقة ... وانكمش الأدب شعرًا ونثرًا انكماشًا يثير الاشمئزاز.

8 - سياسة المال في المجتمع: فقد اضطربت سياسة المال، وساء تداولها في المجتمع الإسلامي، ونشأ عن ذلك فقر مدقع، وترف مفسد. ورغم أن الإسلام هو أول من سير الجيوش لأخذ حقوق الفقراء من الأغنياء الباخلين، فإن أغلب الحكام لم يهتم بهذا الجانب، وتعرضت جماهير الفقراء لضيم كبير. كما انتشرت

الرشوة – وخصوصًا بين الكبار – برغم لعن النبي ﷺ للراشي والمرتشي-. وانتشرت البطالة الصريحة والمقنعة، وامتلأ العالم الإسلامي بالطاعمين الكاسين من فضول أموال، لا يدرى كيف نبتت أصولها. وقد تحدثنا عن هذا الموضوع في مبحث خاص.

9 – الفساد السياسي: ففي الحديث: «**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»[130]، وما وسد الأمر إلى أهله، وما حاول الذين وسد إليهم الأمر أن يرتفعوا إلى مستواه، ولا قعنوا ماديًّا وأدبيًّا بالعيش في نطاقه المحدود.

أهملت الشورى في الحكم، مع أن الإسلام قرر أن المجتمع يقوم على التناصح، والتواصي بالحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتعاون على الخير، ورفض الإعجاب بالرأي، والافتيات على الجماعة. كما بدا العجز الإداري للدولة عجزًا فاضحًا. وفقدت الأجهزة المسئولة عن الدعوة في الداخل والخارج، فلم يحدث أن انعقد مؤتمر يبحث عن أسباب سقوط القدس، أو بغداد أو الأندلس، ويأخذ العبرة منها للمستقبل. ومع الغفلة عاشت – داخل الكيان الإسلامي – فرق دينية أبطنت الخيانة والمروق، وظلت تنتظر الفرصة لضرب الإسلام وطعن أمته في ظهرها ... وقد تحركت هذه في زحف الاستعمار وكانت له عونًا على الأمة الغافلة[131].

---

(130) الحديث رواه البخاري في «العلم» (59) عن أبي هريرة، وفي «الرقاق» (6496) عن أبي هريرة أيضًا.

(131) انظر: «الدعوة الإسلامية» (ص: 65 – 92).

طريق الأمة للخروج من التخلف:

يرى شيخنا أن طرد المسلمين من أماكن القيادة العالمية لم يكن ظلمًا نـزل بهـم، بل كان العدل الإلهي مع قوم نسوا رسالتهم، وحطوا مكانتها، وشابوا معدنها بركام هائل من الأهواء والأوهام في مجالي العلم والعمل على سواء: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ 51 كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنفال: 51، 52].

ولم يكن أعداء الإسلام نيامًا! لقد انتهزوا الفرصة، وبلغوا ما بلغوا!! وأحب أن أحدد الأوضاع السليمة لعلاقتنا بديننا، كما أحب أن أحدد الأوضاع السليمة لعلاقتنا بدنيا الناس ...

إن أولي الألباب يرفضون أن تكون العودة إلى الإسلام عودة إلى الأيام العجاف من تاريخه، ويرفضون أن تكون هذه العودة امتدادًا لتعصب في فقه الفروع، ينصر مذهبًا على مذهب أو قولًا على قول، مع تجاهل الآثار الاجتماعية لهذا التجميد.

إن الإسلام دين مضبوط الأصول محكم الشرائع، ولا نقبل أن يعبث به المعلولون ووعاظ السلاطين، هواة الاستبداد السياسي.

أما صلتنا بالدنيا فيجب أن تتسع دائرتها إلى أبعد الحدود، وأن نهجر أخطاءنا إلى صواب غيرنا، وألا نستحي من التعلم والاقتباس، وأن نحث الخطى إلى الأحسن حيث كان في شرق أو غرب ...

وفي ميدان الوسائل المرنة للأهداف الثابتة أرى أن خدمة مبدأ الشورى بالوسائل الغربية أفضل من خدمته بالوسائل العربية ...

أما في ميادين الزراعة والصناعة فإن تخلفنا البادي يفرض علينا أن نكون

تلامذة، وأن نطلب هذه العلوم من الغرب أو الشرق على سواء ...

ومحمد علي باشا - رأس الأسرة المالكة السابقة - لم يخطئ حين أرسل البعوث إلى أوروبا لنقل تفوقها الصناعي والعلمي، وإنما أخطأ أفحش الخطأ حين جعل ذلك لخدمة أطماعه في إقامة دولة علوية، يملك فيها مصر هو وأسرته من بعده. كما أخطأ حين تجاهل الإسلام، ورنا ببصره إلى فرنسا ينقل منها التشريع والتقاليد ...

وخطيئة محمد علي باشا تبعه فيها زعماء معاصرون يدعون التقدمية، وأدباء صحافيون من أمثال طه حسين، ورؤساء ثورات عسكرية ظاهرها التحرر، وباطنها التبعية الكافرة للغرب الصليبي أو الشرق الشيوعي ...

من قال: إن تصحيح أخطائنا المدنية يتطلب ترك الإسلام؟ إن هذا منطق العاملين لمصلحة إحدى الجبهتين الكبيرتين، وليس منطق العاملين لأمتهم بأي حال ...

نحن نرفض استيراد الإلحاد والتحلل باسم استيراد العلم والمدنية! ما علاقة هذا بذلك؟

جهدنا يتوزع على جبهتين متوازيتين: إحداهما تقوم على تصحيح الوعي الديني. والأخرى تنعشنا من الإغماءة الطويلة التي غبنا فيها عن الدنيا، فبقينا في موضعنا وغزا غيرنا الكواكب ...

وأعرف أن الغزو الثقافي سوف يحاول مخادعتنا عن عقائدنا وشرائعنا، وربما ظن أنه يبيعنا تقدمه الصناعي باستلاب تراثنا كله، وتحويل المسلمين إلى شعوب باحثة عن الطعام والجنس، زاهدة في الوحي الذي شرفها الله به ودون هذا الموت!

وقد وضع الأستاذ خلدون حمادة أربعة شروط للاستفادة من الحضارة الغربية،

ختم بها محاضرته التي أشرنا إليها، ونرى إثباتها هنا:

1 - يجب أن يتم الاقتباس بشكل إرادي واعٍ، وعن طريق الانتقاء لـما يلائمنا، فنأخذ ما نراه أوفق لنا وندع غيره، ونضع ما نقتبسه في مكانه الصحيح من حياتنا.

2 - ولنعلم أن الاقتباس يتم لمصلحة المقتبس لا لترسيخ قدم المقتبس عنه، وتمكينه من أعناقنا، كما يأمل الاستعمار الثقافي.

3 - أن يقع ذلك على جرعات متراخية، ونظام رتيب ييسر النفع ويمنع الأزمات الحضارية، والاختناقات الاجتماعية، وعقد النقص التي قد تعتري المقتبسين.

4 - ولا بأس بين الحين والحين أن نراجع ما نقلنا وما أفدنا، وأن نحسب مدى الربح والخسارة في هذا التلاقي الحضاري، وذلك على ضوء ما نقدس من كتاب ربنا وسنة نبينا.

لقد سبقتنا اليابان إلى هذا اللون من الاقتباس ونجحت، واستطاع الشيوعيون أن يستفيدوا من العلم الغربي، مع بقائهم أعداء للرأسمالية الغربية، واستطاع الأوروبيون في العصور الوسطى أن يأخذوا العلم عن آبائنا، فأخذوا كل شيء، ونقلوا إلى بلادهم مكتبات ملأى بنفائسنا، وأحسنوا الانتقال إلى عصر الإحياء ثم استداروا إلينا ليستعبدونا!

ونحن يجب أن ندفع ضريبة تكاسلنا، وما يفكر في الانتحار الأدبي إلا أحمق.

والناس تقسم طلاب الإصلاح في عصرنا إلى قسمين: المحافظين على القديم، والمتطلعين إلى الجديد - وهذه قسمة ساذجة - وقبل أن نعترف بها نريد أن نسأل المحافظين: ما الذي تحتفظون به؟ ما كل قديم يستحق البقاء! ونسأل المتطلعين إلى

الجديد: ما الذي تريدون اقتباسه أو نقله؟ فما كل جديد يستحق الاحترام!

إن ولاء المسلم لشيء واحد، هو الوحي الأعلى! أما ما ألقاه الشيطان في هذا الوحي فهو دبر آذاننا وتحت أقدامنا، وسيتحقق فيه الوعد الإلهي: ﴿ . . . فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِى ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: 52]، وكذلك ما استحدثه فلاسفة المذاهب الحديثة وزاحموا به الإسلام في دياره، منتهزين غفلة أهله، وجمود فقهائه، وزيغ ساسته. إن هذا كله لا قيمة له، ولا يصرفنا عن كتاب ربنا وسنة نبينا(132).

❋ ❋ ❋

(132) انظر: كتاب: «الغزو الثقافي يمتد في فراغنا» (ص: 156 – 160).

8 - تنقية الثقافة الإسلامية والتراث الإسلامي

كان من جوانب الإصلاح التي عنى بها الشيخ الغزالي. ما يتعلق بثقافتنا التقليدية، وتراثنا العلمي الموروث. وقد درسه دراسة الفاحص الناقد، لا دراسة المقلد المتلقي.

ومن ثم وجه نقده – الذي لا يخلو من حدة – إلى تلك الثقافة، وذلك التراث، وبين مواضع الخلل، ونقاط الضعف، وذلك في أكثر من كتاب له. ثم أفرد لذلك كتابًا مستقلًا نشره المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن، وهو كتابه: «تراثنا بين الشرع والعقل».

ينبه الشيخ الغزالي إلى أن الطريقة التي يواجه بها المسلمون الحياة تحتوي على أغلاط كثيرة.

ومردّ ذلك إمام إلى جهلهم بأمور كان يجب أن يحيطوا بها علمًا، وإما إلى علمهم بأمور على غير وجهها الصحيح.

وفي رأيه أن الثقافة التقليدية – وهي التي تصنع عقيدة الأمة ومزاجها وشخصيتها ووجهتها – مسئولة عن ذلك القصور السائد.

لأنها تنقص عناصر لا بد منها لتكوين الغذاء العقلي المطلوب للجماهير.

ولأنها – خلال القرون الطوال – تضمنت جملة من التصورات والأحكام المعيبة.

ولأن ما بها من حقائق ما زال يعرض العرض المنفر أو يفسر التفسير الناقص.

وذلكم هو السر الأول في تخلف العالم الإسلامي خلال الأعصار الأخيرة تخلفًا جعل الأوروبيين - منذ عصر الإحياء - ينفردون تقريبًا بقيادة القارات الخمس.

ومن السخف أن نجعل التصوف المنديل الذي نمسح به أوضارنا، فإن فساد التصوف جزء من الفساد الذي لحق جملة العلوم الدينية، وفي مقدمتها الفقه، والكلام، والتفسير، والحديث.

وانحطاط التعليم الديني في هذه المجالات هو المسئول عن تكوين أجيال ضيقة الأفق بيّنة القصور، لا تتقدم بها دنيا، ولا ينتصر بها دين.

لقد كان من إعزاز الله لرسالته الخاتمة أن خلد كتابها وعصمه، كما استبقى محمدًا الأسوة الفريدة للكمال الإنساني، فجعل سنته مصدرًا ثانيًا للدين بعد قرآنه الكريم.

وعن طريق الكتاب والسنَّة يمكن تجديد التراث الديني كله، وخلق ثقافة إسلامية سليمة كاملة لا عوج فيها ولا شطط.

ولست أعيب أسلافنا أو أنتقص جهادهم، فمن هؤلاء الأسلاف تلقينا فنونًا من المعرفة المشرفة والتربية الصالحة.

وإنما نلفت الأنظار إلى أن القرون الأولى للإسلام مليئة بالخير والذكاء والنشاط، وأن شكوانا تنصب في جملتها على عصور الجمود والكسل العقلي، والسماح للبدع والخرافات بالتعشيش في أرجاء المجتمع وكأنها دين قويم وصراط مستقيم[133]!

(133) انظر: «ركائز الإيمان» (ص: 183، 184).

ملاحظات مهمة على ثقافتنا:

يرى الشيخ أن ثقافتنا في طورها القائم تحمل أخلاطًا لا حصر لها من أفكار ومذاهب تفتقر إلى التمحيص، وتفرض علينا أن نميز بين الخبيث والطيب.

وهناك ملاحظات صادقة على هذه الثقافة يوصي الشيخ بوجوب وعيها؛ لأنها وراء المد والجذر الذي تعرض له تاريخنا الطويل. وهو يوجز هذه الملاحظات فيما يلي:

التقعر فيما وراء المادة:

1 - التقعر في دراسة ما وراء المادة مرض أصاب المسلمين، ولوى مسيرتهم العلمية ليًّا شائنًا. والمعروف أن الآيات المحكمة هي أم الكتاب ومناط التكاليف الاعتقادية والعلمية، وأنه بحسب المسلمين في عالم الخلق والسلوك، وعالم العقيدة والعبادة، وعالم القضاء والتشريع، أن يعتمدوا على هذه الآيات المحكمة وحدها ... أما ما تشابه في الحديث عن ذات الله وصفاته فلا مجال للعقل في بحثه ...

إن العقل البشري أعجز من أن يفقه حقيقة الروح بين جنبيه، بل أعجز من أن يفقه تحول الأغذية في جسده إلى طاقة وخلايا.

فكيف يريد أن يعرف كنه الألوهية، واتصال الذات بالصفات؟

لكن المسلمين - للأسف - خاضوا بحارًا مغرقة في هذه البحوث العقيمة كان لها أثر وخيم في تعجيز العقل الإسلامي عن البحوث المادية وإحسان الإفادة منها. وهذا الاتجاه الشارد عصيان لله الذي أمر بالنظر في الكون، وبنى على هذا النظر السديد حسن الإيمان وجميل المنفعة.

التنطع فيما يسره الله:

2 - الإسلام دين عمل يؤثر الواقع على الخيال، ويؤثر الحقيقة على الظن، ويؤثر الحركة الماضية في مرضاة الله على اللغو والشقشقة وافتراض الفروض وتشقيق الكلام، وهل نجح سلف الأمة إلا بهذا المنهج؟

بيد أننا وجدنا الدراسة الدينية تميل إلى الشروح النظرية المطولة دون سبب واضح.

والذي أحسه أن دراسة الطهارات والصلوات لا تحتاج إلى هذه التآليف المسهبة والأوقات المتطاولة، ومع ذلك فقد أصبح ذلك جزءًا من أعمار المسلمين ... ومثار افتراق واسع بين الدهماء، بل بين نفر من المنتسبين إلى العلوم الدينية.

ولم يكتف البعض بهذا الطول المفتعل، فأضاف إلى أعمال الحج أدعية في أشواط الطواف وأشواط السعي لا أصل لها، حتى يزيد المراسم وعورة وتهيبًا ...

وقد تأدت هذه المزايدات إلى إضعاف علاقة المسلمين بالحياة، وكانت مشغلة لهم عن إنتاج أهم وأجدى.

3 - هناك فارق مؤكد بين درجة التخصص ودرجة التثقيف العام؛ فالمتخصص يلم بمعارف شتى في فنه، ويعيبه أن يجهل ناحية ما في ميدانه ... أما أصحاب الثقافة العامة فيكفيهم ما يحتاجون إليه في بيئاتهم وأحوالهم، ولا معنى لحشو أذهانهم بما لا أثر له في معايشهم ...

وقد رأيت أناسًا من العوام تبلبلت أفكارهم إثر أحاديث نبوية درست لهم، وهي أحاديث صحيحة السند، ولكن ليس من الحكمة أن يعرفها العوام، فهي فوق طاقتهم الذهنية، وقد جاء في الأثر: «إنك ما حدثت قومًا بحديث لم تبلغه

عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[134].

ومع ذلك فإن قرويين وبدوًا أو همَلًا من الخلق، يذكر لهم أن نبيًّا ضرب ملك الموت ففقأ عينه، وأن آدم حج موسى في القدر فغلبه، وأن موسى راجع نبينا في الصلوات الخمسين حتى جعلها خمسًا، وأن الجبار ليلة الإسراء هو الذي دنا فتدلى ... إلخ.

لماذا تُشغل أذهان الجماهير بهذه الأمور؟ ولماذا لا يختار لهم من السنن ما يصحح وجهتهم في الحياة؟ لقد توارث العوام أن سماع هذا الكلام عبادة، وأورثهم ذلك شيئًا من الخدر والاسترخاء غير قليل ...

توجيه الضعاف للتعليم الديني:

4 - ألف المسلمون أن يحفظ القرآن للأطفال، وألفوا أن يوجه للتعليم الديني الضعاف والفقراء ذوو العاهات ... وفي بعض الأقطار الإسلامية يكاد العلم الديني يكون نصيب المطرودين من ميادين التعليم التي يشترط فيها التفوق والتبريز أو حسن المظهر وقوة العصبية ...

وهذا المسلك يزري بمعنى التدين، ويضعف أهل الدين عن اقتياد الحياة بقوة، وقد يعجزهم عن مقاومة الجبارين والخطائين ...

وعلى ضوء التجارب الكثيرة، ينبغي وضع سياسة أخرى للتعليم الديني ...

ولنذكر أن الفجوة عمقت بين العلم والحكم في تاريخنا، وأن عددًا من الأئمة والأشياخ أدى واجبه شامخًا راسخًا.

---

(134) هو من كلام ابن مسعود رضي الله عنه.

ولكن عددًا آخر – ربما كان أكبر – آثر الانزواء، وارتضى في تغيير المنكر أضعف مراتب الإيمان.

وهناك فريق آخر ربما كان أكبر وأكبر، مشى وراء الساسة مداهنًا فأكل من حلوائهم وسكت عن أهوائهم!

وإذا فسد العلماء والحكام أخذت الأمم طريقها إلى القاع!

موقف المسلمين من الدنيا:

5 – الذي أبدع هذا العالم الكبير يعرف أنه أبدع شيئًا يبهر ويعجب، وعندما يلفت النظر إلى أسرار جماله، ووثاقة بنائه، فهو يرجعنا إلى الشعور بعظمته، ويثير في أنفسنا الخضوع والإعزاز لقدرته وحكمته ...!!

ولقد كان جديرًا بالمسلمين أن يفكروا في الكون، وينتهزوا فرصة حياتهم على الأرض ليعرفوا عظمة رب العالمين، بدراسة خواص المادة والقوانين السارية بين شتى العناصر ...

إن الله لا يعرف بدراسة ذاته فهذا مستحيل، وإنما يعرف بدراسة ملكوته الضخم، واستجلاء الآيات الدالة عليه هنا وهناك، لا بأسلوب شعري هائم، ولكن بأسلوب علمي صارم ...

وذلك هو منهج القرآن الكريم. وقد ولدت الملاحظة والتجربة في البيئة الإسلامية، وكان يمكن أن تترعرع وتؤتي ثمارها إلى آخر مدى لولا الانحراف الذي أصاب العقل الإسلامي بالتقعر فيما وراء المادة، ولولا انطلاق بعض المخربين يصرفون الناس عن الدنيا، ويضعون على حواسهم حجبًا، فلا يدركون من قوتها ولا من جمالها شيئًا ...

ويستحيل مع الجهل بالحياة وقوانينها أن يقوى الإيمان ويستوي على الطريق.

إن العلم بالحياة الدنيا وارتفاقها والاستمكان منها معان إنسانية عامة فطر الناس عليها، ولا يعد التنبيه إليها مثار دهشة، بل الدهشة أن يتقلب الناس في جنبات الأرض دون قدرة على إثارتها ...

وكما ينتفع الناس بالحياة الدنيا لذواتهم، ينتفعون بها في دعم أفكارهم وتأييد مبادئهم وقيمهم، فالكف العزلاء تخذل الحق، والسلاح التافه يجر الهزيمة[135] !!...

ضعف التعليم الأصلي:

6 - إن التعليم الأصلي في صدر الإسلام - ولم يكن ثم غيره - لبى حاجات الأمة التربوية والتشريعية والأدبية، وقدر قدرة تامة على تكوين أجيال ناضجة، وجعل المسلمين - عالميًّا - أمة تعطي أكثر مما تأخذ، بل جعلها تدفع ولا تندفع، وتعزو ولا تغزى. نعم كان المسلمون بازدهارهم العلمي الأمة الأولى في العالم ...!

ثم حدثت بعد ذلك أمور ليس هنا مكان متابعتها، فلنقفز قفزة واسعة لنرى هذا التعليم من نصف قرن فقط.

قصور في دراسة التاريخ:

7 - وسأجعل نفسي ومراحل دراستي منطلق التعليق الذي لا بد منه!

في الصف الثاني من المرحلة الابتدائية درسنا تاريخ الدولة العثمانية. حسنًا، إن

---

(135) انظر: «الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر» (ص: 71 - 75).

دراسة أي شعب إسلامي أمر واجب، فالمسلمون أمة واحدة. غير أني أتممت دراستي الأزهرية التي استغرقت خمسة عشر عامًا، دون أن أدرس حرفًا عن المسلمين في جنوب شرقي آسيا وجنوبي آسيا نفسها، وشمالي إفريقيا وغربيها في العصر الحديث!

لم نعرف حرفًا عن الاستعمار الهولندي لجزر إندونيسيا ولا الإسباني لجزر سولو ومندناو وسائر الجزر التي سميت بعد «الفلبين». لم نعرف كيف استعمر الفرنسيون الهند الصينية، ولا ما حدث للمسلمين في فطاني والملايو وسنغافورة ... إلخ.

وما يقال عن هؤلاء يقال مثله عن جهلنا المطبق بمسلمي التركستان الصينية والروسية وبقية الشعوب الإسلامية التي ابتلعها التنين الروسي.

أما القارة السوداء، والإسلام هو الدين الأول في أقطارها، فالوضع أدهى وأمرّ، وقد أنشئنت فيها الآن خمسون دولة وزع المسلمون عليها بخطة بالغة الخبث كي يذوبوا على عجل أو على مكث! المهم أن يذوبوا على مر الأيام.

لقد تبين لي أن دراستنا للتاريخ الإسلامي ضحلة، وأن دراستنا للتاريخ الإنساني فوق الصفر بقليل.

كيف هذا؟ إن رسالة محمد ﷺ للقارات كلها، فكيف نجهل هذه القارات ولا نعرف ما يعمرها من أجناس ومذاهب وفلسفات؟ ولماذا نلوك بألسنتنا أن رسالتنا عالمية، دون أي سعي للاتصال بهذا العالم الرحب؟ ولماذا انتظرنا حتى اكتشف غيرنا الأمريكتين وأستراليا ووضع عليها طابعه المادي والأدبي، ثم جاء يطرق أبوابنا وهو يجرر أذياله خيلاء واستعلاء ليعلمنا ما لم نكن نعلم؟

إن القرآن الكريم يجعل السياحة من خلال الفضل، ويجعل دراسة التاريخ كله من مكونات العقل!

﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: 26].

الحق أن المشرفين على التعليم الأصلي من أمد طويل فرطوا في حقوق الأخوة الإسلامية حين فرطوا في دراسة الأجناس التي اعتنقت الإسلام، وعموا عن قضاياها المصيرية، ونسوها على هذا النحو الشائن.

وأساءوا إلى عالمية الرسالة المحمدية حين انطووا على أنفسهم وانشغلوا بمشكلاتهم، تافهة كانت أو جليلة، فكان عقباهم هذا البلاء الذي نزل بهم من كلاب الأرض وذئابها.

وقفت – وأنا أزور البحرين – أمام بقايا قلعة برتغالية لا تزال جاثمة على أرضنا، وغصت في أعماقي أنبش معلوماتي التاريخية، متى وصل القراصنة هنا؟ ولم أستطع الإجابة! وسكت وأنا محزون.

قصور في معرفة الفقه والتشريع:

8 – ولأترك تقصيرنا في دراسة التاريخ الإسلامي، وتقصيرنا في الإلمام بمعالم تاريخ الإنسانية قديمًا وحديثًا، ولأنتقل إلى موضوع آخر.

إن التشريع الإسلامي أنفس مواريثنا الحضارية.

والقانون الروماني إذا قيس بفقهنا الرحب كان كالكوم التافه إلى جوار جبل أشم.

وعلم أصول الفقه هو - كما قال الشيخ مصطفى عبد الرازق - آية العبقرية العربية، وهو أدل على فكرنا وأصالة بحثنا من الفلسفة الإسلامية لأنه نتاج إسلامي خالص رائع.

غير أن علم الأصول في دراساتنا الأخيرة أمسى علمًا أثريًّا هامدًا يحفل بالأقوال والمناقشات الحرفية، ولا صلة له بتشريع خاص أو عام. وقد جدد الشاطبي منهجه في الموافقات، كما أن لبعض المذاهب الفقهية قواعد أصولية جديرة بالحفاوة! ولكن ذلك كله مهجور في دراستنا.

والمادة العلمية لا تعدو التلخيص أو التمطيط، والاطلاع النظري على مخلفات الماضين.

أما الفقه الإسلامي الذي استبحر قديمًا وحكم العلاقات الدولية كما حكم الروابط العائلية، فهو يحيا الآن على هامش المجتمع الإسلامي، ريثما يتم رميه بعد حين في سلال المهملات.

فقه لا يستفتى في الشئون العمالية أو الدستورية أو الدولية، وقد يسمع قوله أحيانًا في بعض الشئون، أو لا يسمع.

ورجال التعليم الأصلي مسئولون عن هذا المصير الكابي، فنحن ندرس الفقه على نحو عقيم أو قليل الجدوى، وأذكر أني في الحادية عشرة من عمري بدأت أدرس فقه العبادات على المذهب الحنفي وكان زملائي الآخرون يدرسونه على مذاهب أخرى.

وفي ظني أن الفقه المذهبي نوع من التخصص العلمي؛ التخصص المبكر الذي لا معنى له.

وددت لو تعلمنا العبادات من خلاصات سهلة من الكتاب والسنة، ثم بعد فترة نتوزع على الفقه المذهبي، ولا بأس في أن يدرس الطالب أكثر من مذهب فقهي إذا كان سيتجه إلى هذا الميدان. ويجب أن تدرس المذاهب على أنها وجهات نظر متساوية القيمة، وأن تناقش الأدلة وتوزن الاتجاهات بحياد علمي وصدر مفتوح، لا مكان فيه للخصومة والجفاء وتفريق الأمة.

وأرى أن يوضع حد للتقطع القائم بين آراء الفقهاء الكبار، وأن يدرس الأزهر ابن تيمية، وابن حزم وغيرهما إلى جانب الأئمة الأربعة. إننا نواجه طوفانًا من الأفكار والموازين الشائعة للحقوق والمصالح ولا مساغ لمقابلة هذا الطوفان بفكر إسلامي واحد، بل يجب أن يقابل بجميع المدارس الفقهية عندنا.

ثم إن الخلود لكتاب اللّه وسنة رسوله لا لاجتهاد بشر، ويعني هذا ألا نتحرج من وزن الاجتهادات القديمة وأن ننفض يدنا من بعضها إذا بدا ألا مجال لبقائه.

ألا ترى ابن تيمية عدَّ الطلاق الثلاث واحدًا، لما رأى أن اجتهاد عمر في إمضائه ثلاثًا أدى إلى نتائج سيئة؟ لقد عاد به إلى الأصل على عهد النبي ﷺ وعهد أبي بكر ...

وهناك اجتهادات كثيرة ينبغي أن يتوفر الراسخون في العلم على وزنها، وإعادة تقويمها، حتى لا يجيء امرؤ يخدم الاستبداد السياسي بدعوى أن الشورى لا تلزم حاكمًا ... مثلًا! والقضايا الاجتهادية كثيرة، وقد نستبدل اجتهادًا باجتهاد، أو نأتي بجديد تحتاج إليه الأمة وتقره النصوص والقواعد.

وأحسب أن فقه العبادات سوف يبقى على حاله، أما الفقه الإداري والدستوري والدولي فإن تياراته الراكدة يجب أن تتحرك، وأرى لفيفًا من المسئولين عن التعليم

الأصلي كانوا - باسترخائهم وتقاعسهم - سببًا في انهزام الشريعة وهجوم قوانين دخيلة على دار الإسلام، أي أننا أزرينا بأفضل مواريثنا، ومكنا لتشريعات وضعية معيبة أن تتسلل وتحتل أرجاء المجتمع، مع الغنى التام عنها.

قصر الباع في العلوم الكونية والإنسانية:

9 - ومن ذلك: القصور في علوم الكون الإنسانية. يقول الشيخ:

«وأعود إلى ذكريات تعليمنا الثانوي، كانت الشهادة الثانوية قسمين؛ أولًا وثانيًا، وكان مفروضًا في القسم الأول أن ننال من علوم الكون والحياة والرياضة ما يناله زملاؤنا من طلاب التعليم المدني، لا نقل عنهم إلا معرفة اللغات.

ثم شكا بعض قصار الباع من هذا الوضع، فإذا لجنة تتكون لتحذف كثيرًا من علوم الأحياء والرياضة والطبيعة والكيمياء بحجة ضعف الطلاب في العلوم الأصلية! والحجة مفتعلة! وقد نشأ عن هذا الحذف تخرج علماء لا يدرون من العلوم المهمة إلا فتاتًا خفيف الوزن.

وأحب أن أنبه إلى أن كل قصور في العلوم المدنية لا يزيد دارسي الدين إلا خبالًا. إن الإسلام دين لا ترسخ قواعده ولا تنضج معارفه إلا في جو علمي واسع الآفاق، ولا أدري كيف يفهم عظمة القرآن الكريم رجل لم يدرس علوم الأرض والسماء وما بينهما ...

إنني شعرت بخجل حين استبعد عالم ديني الوصول إلى القمر، وقال في التعليق على ما أذيع: إنه خبر آحاد! وشعرت بخجل أشد عندما ألف بعض المنسوبين إلى العلم الديني - بل البارزين فيه - كتابًا ينكر فيه دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وساق آيات من الكتاب لم يفهمها ليدعم رأيه.

إن عقيدة التوحيد تضار حين يعرضها أولئك القاصرون! وهم معذورون؛ لأنهم لم يعرفوا من العلوم الكونية شيئًا، وجل ما يحفظون مرويات تتضمن الغث والسمين، وتعرقل سير الدعوة، بل تلقي ظلمات على الفكر الديني كله.

والواقع أن تكوين العقل الديني لا يتم إذا كان في عزلة عن الاستبحار العلمي الحديث، وأهل الذكر لا تستقيم لهم فتوى إذا كانت معرفتهم بالحياة لا تعدو الأبجديات القديمة.

وأرى ضرورة تنظيم محاضرات فلكية وطبية وجغرافية وجيولوجية وفيزيائية وكيميائية ... إلخ على المشتغلين بالعلم الديني حتى بعد تخرجهم، فإن التخلف في هذا المضمار مصيبة.

ونلاحظ أن هناك وحشة بإزاء عدد من العلوم الإنسانية مثل علم النفس والتربية والأخلاق والاجتماع ... إلخ.

والواجب أن تدرس هذه العلوم، وأن توضع في إطار إسلامي صلب.

غربلة التراث الصوفي:

وعندي أننا لو غربلنا التراث الصوفي، وقدرنا جهود ابن القيم وابن الجوزي والغزالي وابن عطاء السكندري وغيرهم، لأمكننا أن نخرج بحصيلة رفيعة القدر في مجال الخلق والتربية والسلوك، ولأمكننا أن نصوغ نصف العلوم الإنسانية في قالب إسلامي جميل ونافع.

لقد رفض كثير من الموجهين اعتبار التصوف علمًا، وتركوه للجماهير تتبع فيه آثار شيوخ لا يحسنون التربية والقيادة، بيد أن هؤلاء القاصرين كانوا أقدر على اقتياد العامة من فقهاء جافين مكروهين فقدوا صفاء النفس وسماحتها وطيبتها.

فإلى متى يبقى هذا الموقف الرافض؟ وماذا كسبنا منه؟

كسبنا أن الدين عند العوام وأشباههم جملة من الأحكام الجزئية، والمعارف المبتورة، ومن ورائها طباع لم تهذب، وأهواء قد تعلن عن نفسها بمكر في صور الطاعات وقشور العبادات، أما الضمير فميت!

إن الدين يفقد جوهره حين تَهِي علاقته بالقلب، وعلم القلوب أو علم السلوك وجد في التصوف الإسلامي خواطره ومراحله، والمهم هو ضبطها بتعاليم الشريعة، ومنع العواطف السائلة الرجراجة من الانطلاق دون حدود.

وإنه لمما يعين على إدراك هذا الهدف الاستعانة بالعلوم الإنسانية، خصوصًا بعدما هجرت منهجها الفلسفي وخطت لها مجرى علميًّا يحترم الحقيقة ويلتزم بها»(136).

سقوط الخلافة أهون من سقوط الثقافة:

إن بقاء الثقافة الإسلامية حية نابضة نقية، قادر على أن يعيد الحياة والعافية إلى الجسم الهامد العليل.

لقد مرت بالمسلمين قرون أربعة عشر، فيها قرون حية، وأخرى هامدة، فيها أيام مزهرة بالعلم، وأخرى مظلمة بالجهل.

وامتددنا حتى أدبنا الجبابرة، وانكمشنا حتى استنسر بأرضنا البغاث. لكن، فتلك طبيعة الحياة الدنيا ...

والدرس الذي لا يجوز أن يغيب عنا: أننا ما فقدنا الصدارة قط ونحن أوفياء لربنا ونبينا، ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام:

---

(136) «علل وأدوية» (ص: 181 - 188).

131].

ومن قدرنا نحن مسلمي القرن الرابع عشر ـ أن تسقط الخلافة الإسلامية في أوائل هذا القرن، وما هذه أول مرة تسقط فيها الخلافة، لقد ديست في بغداد على أيدي الهمج في القرن السابع ... وسقوط الخلافة الإسلامية حدث شنيع، ولكنه مهما قبح دون سقوط الثقافة الإسلامية ...!!

لقد بقي العلم الإسلامي يضع في العقول النور، ويضع في القلوب اليقين.

وكافح العلماء حتى صنعوا أجيالًا أشرف وأذكى، وعادت الخلافة مرة أخرى ترفع علم التوحيد في المشارق والمغارب ...

وخصوم الإسلام في هذا العصر ـ مستميتون لأن يسقطوا معاقل الثقافة الإسلامية، وأن يردموا منابعها أو يلوثوها ما استطاعوا، وذلك حتى لا تعود للإسلام وحدته الكبرى ودولته الجامعة، ومن ثم بإن الجهاد العلمي الآن فريضة محكمة. إن الثقافة الحارسة لتراثنا كفاح أدبي هائل النتائج، بل إنه الكفاح الذي يوزن فيه مداد العلماء بدماء الشهداء ...

أذكر أن الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين – طيب الله ثراه – قال لي: عندما أسقط الحلفاء الخلافة في أعقاب الحرب العالمية الأولى، قررت جميع القوى التي شاركت في ذلك أن تنتقل إلى القاهرة كي تضرب ضربتها الأخيرة بوصف القاهرة هي العاصمة الثقافية للعالم الإسلامي.

لكن موطن الأزهر قاومت ولا تزال، ونرجو أن تظل راية الثقافة الإسلامية مرتفعة في مصر، وشتى عواصم الإسلام.

وإني إذ أقرر هذه المقاومة لا أريد الترويج لخدعة كبيرة يفهم منها أن التعليم

الديني بخير، وأن الثقافة الإسلامية في أمان.

العكس هو الصحيح، والمسلمون يعانون أزمة ضروسًا في الدعاة والمربين، والفقهاء والمفتين، والميدان الإسلامي من عشرين سنة ينتقص كمًّا وكيفًا، وهنا مكمن الخطر!

لقد قلت: إن الهزائم العسكرية عرض يزول، أما الهزائم الثقافية فجرح مميت، والثقافة الصحيحة هي التي تبني الإنسان المسلم والمجتمع المسلم على قواعدهما الركينة من كتاب اللَّه وسنة رسوله، وعبقرية البناء الصحيح المتين هي التي استبقت صرح الإسلام إلى يوم الناس هذا ...

إنه أمام التمزيق المتعمد للرقعة الإسلامية الكبرى لا بد من ثقافة تؤكد وحدتنا العاطفية والفكرية. وأمام المغالاة بالقشور والرسوم، والمخاتلة بالصور الشائهة، نريد ثقافة تنشئ العقل المسلم، والضمير المسلم، والسلوك المسلم ... وأمام العجز الشائن في شئون الدنيا نريد ثقافة تجعل عبادة اللَّه سواء في المسجد والمصنع.

لقد ضاقت نفسي بلفيف من الناس يدَّعون الإسلام ولا جهد لهم إلا استفزاز الأقوياء وتلقي الضربات! أما العمل الصامت الذكي لخدمة الإسلام وأمته فقلما يحسنون.

وما كان ذلك دأب سلفنا الذين امتلئوا أمانات وكفايات من أخمص القدم إلى ذؤابة الرأس، اقتحمتهم العيون أول ما خرجوا من الصحراء، فلما اشتبكوا مع أبناء الحضارات المدبرة في فارس والروم جثا التاريخ بين أيديهم يسجل ويروي.

ومهما تكن الهزائم التي أصابتنا خلال هذا القرن، فإن يوم الإسلام قادم لا ريب فيه.

سنظل نقاتل الإلحاد الشيوعي، والعدوان اليهودي، والاستعمار الصليبي، تحت علم التوحيد، وسيكون القتال قاسيًا كثير الشهداء.

وفي ذروة هذه المعركة سينزل عيسى ابن مريم ليكذب بنفسه الذين جعلوه إلهًا مع اللَّه، ولن يقبل هدنة إلا إذا اندحر الباطل وسويت قلاعه بالرغام![137].

* * *

---

(137) انظر: «الدعوة الإسلامية» (ص: 220 - 222).

9 - ترشيد الصحوة

عنى الشيخ الإمام بالصحوة الإسلامية، ويُعَدّ واحدًا من أبرز آبائها، إن لم يكن أبرزهم. عنى ببعثها، كما عنى بترشيدها، حتى لا تهدم من الداخل، أو تضرب من الخارج، وكتبه الأخيرة تكاد تدور حول هذا المحور، من هذه الكتب:

- «دستور الوحدة الثقافة للمسلمين».
- «مشكلات في طريق الحياة الإسلامية».
- «هموم داعية».
- «علل وأدوية».
- «جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج».
- «الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر».
- «الغزو الثقافي يمتد في فراغنا».
- «مستقبل الإسلام خارج أرضه».
- «الطريق من هنا».
- «الحق المرّ».
- «السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث».

وهذه الكتب امتداد لكتبه القديمة الناقدة للتدين المعلول، مثل: «تأملات في الدين والحياة»، و«ليس من الإسلام»، و«ركائز الإيمان بين العقل والقلب».

وهو يريد للأمة أن تلتف حول هذه الصحوة لا أن تتفرج عليها، فهي منها ولها.

معالم لترشيد الصحوة:

يقول في أحد كتبه – راسمًا بعض المعالم الرئيسية للصحوة المرجوة – :

«إن العالم الإسلامي لا يبيع دينه، ويؤثر أن يهلك دونه. ولا يغض من موقفه نفر شذاذ من الخونة والجبناء، فقدوا الدين والشرف، ونشدوا العيش على أي حاجة، وبأي ثمن!

ولكي نحسن الوقوف أمام عدو الله وعدونا يجب أن تتوافر لجبهتنا العناصر الآتية:

أولًا: يعود الولاء للإسلام ويستعلن الانتماء إليه، وفي حرب تعلن علينا باسم الدين لا مجال لإطفائها بالتنكر لديننا!

لماذا يتقرر إبعاده عن المعركة؟ ولحساب من؟ إن رفض الإسلام في هذه الساعة هو الانتحار، وطريق الدمار، بل هو قرة عين الاستعمار ...

ثانيًا: الولاء الشكلي للإسلام مخادعة محقورة، ومن المستحيل أن نرتبط روحيًّا ومنهجيًّا بالماركيسية أو بالصليبية، وفي الوقت نفسه ندعي الإسلام ...

يجب أن تعود الروح لعقائدنا وشعائرنا وشرائعنا، والمسلم الذي يستحي من الصلاة بينما يستعلن اليهودي بصلاته في أرقى العواصم لا يمكن عده مسلمًا! ولن ننال ذرة من عناية الله إذا اتخذنا الدين لهوًا ولعبًا ...

ثالثًا: يقصى من ميدان التدين: العلماء الذين يحرقون البخور بين أيدي الساسة

المنحرفين، ويزينون لهم مجونهم ونكوصهم ...

والعلماء الذين يشغلون الناس بقضايا نظرية عفى عليها الزمن، أو خلافات فرعية لا يجوز أن تصدع الشمل أو تمزق الأهل.

والعلماء الذين يظلمون الإسلام بسوء الفهم، ويرونه في سياسة الحكم والمال ظهيرًا للاستبداد والاستغلال وإضاعة الشعوب.

إن المسلمين في المشارق والمغارب مهيئون ليقظة عامة تحمي كيانهم وتستقبي إسلامهم. وهم كارهون أشد الكره لأن تكون الأحوال المعاصرة صورة طبق الأصل لما كان عليه المسلمون قبل الهجوم الصليبي في العصور الوسطى.

أطلب من عباد الله الصالحين أن يصيخوا السمع للنذير العريان، قبل أن يأخذنا الطوفان، فإن الأقدار تقتص من المستضعفين المفرّطين، كما تقتص من المجرمين المعتدين.

وينبغي أن نزيد الأمر وضوحًا فيما يفعل اليهود، وفيما يراد منا فعله، فإن مسافة الخلف واسعة بين الموقفين. لقد تأملت في الأحداث المثيرة التي وقعت، فوجدت أن الذي أضرم النار في المسجد الأقصى من بعض سنين يهودي أسترالي، وأن الذي أطلق الرصاص على المصلين فقتل وجرح عشرات، وصوب طلقاته على قبة الصخرة فكاد يهدها يهودي أمريكي!

إن الأخوة الدينية جمعت بين الأستراليين والأمريكيين لدعم «إسرائيل»، وكذلك جمعت هذه الأخوة بين شرقي أوروبا وغربيها، وبين اليهود العرب في إفريقيا وآسيا! وعد أولئك كلهم أولاد الأنبياء، ونسل يعقوب المبارك!

والعالم المتحضر لا يرى في هذا الرباط شيئًا ينكر ... الشيء الذي ينكر حقًّا هو

الإخاء الديني بين المسلمين وحدهم، وتحول هذا الإخـاء إلى سـياج يحمـي عـرب فلسطين من الهاجمين عليهم!!

ومن ثم كانت قضية فلسطين عنصرية لا دينيـة، كـما يصـورها لنـا الخـادعون المخدوعون!

والوجود اليهودي في فلسطين المحتلة لا يجوز أن يستغربه العرب، لماذا لا يكون إحساسهم به على أنه واقع طبيعي لا بد منه؟ ونتسـاءل: هـل الوجـود العـربي إلى جوار اليهود له أي احترام في توراة اليهود وتلمودهم؟ إن إسرائيل من الفـرات إلى النيل، ومن دمشق إلى المدينة! وبلوغ المرام يتم خطوة خطوة عنـد قـوم يسـتغلون الزمن، ويحسنون التريث، ويعرفون متى يضربون!

ظاهر أن المراد تنويم الأمة المثخنة من الـداخل والخـارج حتـى يـتم الإجهـاز الكامل عليها.

إن المأساة المقلقة وقوع الغارة اليهودية، ومـن قبلهـا الغـارة الصـليبية في أيـام نحسات من تاريخنا المديد! فالعلم بالدين سيء والعمل بـه أسـوأ، وقـد اسـتطاع الاستعمار الثقافي خلق جيل مهزوز الإيمان والفقه، ضعيف الثقة بنفسه وأمته، فهو يعطى الدنية في دينه ودنياه، غير شاعر بأولاه وعقباه.

إننا بحاجة إلى يقظة عامة تتناول أوضـاعنا كلهـا، حتـى نحسـن الـدفاع عـن وجودنا ورسالتنا في عالم لا تسمع فيه إلا عواء الأقوياء»[138].

---

(138) «هموم داعية» (ص: 108 – 112).

الدفاع عن الرموز والأعلام:

ومن ميادين إصلاح الصحوة وترشيدها لدى الشيخ الغزالي: العمل على تجميع الجبهة الإسلامية، وتقريب بعضها من بعض، وضم جهودها للتشييد لا للتقويض، والوقوف في وجه الكيد الصهيوني والمكر الصليبي، والتهجم العلماني.

إنه يأسف أشد الأسف حين يرى الجبهة الإسلامية يناوش بعضها بعضًا، أو يكيد بعضها بعضًا، أو تحاول فئة منها هدم غيرها لبناء نفسها على أنقاض الآخرين.

وهو يأسى كل الأسى إذا وجد بعض الصغار يتطاولون على الكبار، ويحرصون على هدم القمم، وتشويه الرموز في تاريخ الأمة وتراثها الفكري.

دفاع عن الإمام الغزالي:

ولكم تملكه الغضب والحزن حين بلغه أن رجلًا قام يلقي محاضرة في إحدى الجمعيات عنوانها «أبو حامد الغزالي الكافر»!

يقول الشيخ: «فزعت لشناعة التهمة الموجهة إلى إمام ضخم من قادة الفكر الإسلامي، لقد كان أبو حامد عالِمًا أديبًا، وفقيهًا أصوليًّا، ومربيًا فيلسوفًا»(139).

وهو أذكى من أرسطو وأفلاطون وسقراط، الذين تشمخ بهم اليونان، وتعتز بهم أوروبا. لماذا يقوم امرؤ بتكفيره؟

وإذا كانت للرجل أخطاء في الأحاديث النبوية، فقد استدركت عليه من أصحاب هذا الفن، ليتيسر - بعد ذلك - الانتفاع بعلمه الغزير.

---

(139) انظر في ذلك: كتابنا: «الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه»، طبعة دار الوفاء بمصر.

ويوم طغت الفلسفة اليونانية على العقل الإسلامي اجتاحها أبو حامد بكتابه: «تهافت الفلاسفة» ليعيد إلى الأصول الإسلامية مكانتها. ويوم استهلك الترف أمتنا، حكومات وشعوبًا، وأذلها عن رسالتها الكبرى عمل على «إحياء علوم الدين».

هذه العلوم كانت تحتضر، وكان المسلمون قد فقدوا جدارتهم بالحياة، فعندما هجم الصليبيون على الشام، واستباحوا بيت المقدس لم يكن في مواجهتهم أحد.

إن هؤلاء الصليبيين الزاحفين لو قاومهم جيش من الكلاب لهزمهم، فقد كانوا يجرون أقدامهم جرًّا من الإعياء والمجاعة، ولكنهم لم يجدوا أمامهم أحدًا! أين كنا؟

وجهد الغزالي في «الإحياء» مشوب، وقد وقع في أخطاء شتى، بيد أن الكتاب من أخصب المؤلفات في شرح آفات النفوس، وتقويم الطباع البشرية، واقتياد البشر إلى ربهم تبارك اسمه، هل جزاء الرجل بعد ذلك أن يتهم بالكفر؟

إن المسارعة في التكفير دأب الرعاع والحمقى! وهناك علماء مبرزون في ميدان ومقصرون في ميدان آخر يعطون أنفسهم حق إصدار أحكام علمية وتاريخية في كلا الميدانين، وهم يعينون الجهلة على تكوين أفكار منحرفة ضد رجال أبرياء.

ولو اتجهنا إلى البناء بدل الهدم، وإلى الإنصاف بدل الحيف لكنا أهدى سبيلًا[140].

إن الشيخ يؤلمه ويحزنه ما يراه من تفرق العاملين للإسلام، وتشتت الجبهة الإسلامية، في حين أن خصومهم المهاجمين لرسالتهم من دعاة اليمين واليسار،

(140) انظر: «علل وأدوية» (ص: 105، 106).

متفاهمون على الغاية المنشودة، متعاونون في الطريق الطويل، يقيم بعضهم بعضًا إذا كبا، ويغطيه إذا تعرى، ومع أن للكثير منهم أخطاء مذلة فقلما تجد من يتتبعها، وقد وزعوا الأدوار بينهم، ومشوا إلى هدفهم متساندين.

أما الإسلاميون فما بينهم متقطع، وإذا تصالح ندامى الحان، وتشاكس إخوان المسجد، فستنكسر المئذنة ويستولي السكارى على المحراب.

يقول الشيخ:

«اطلعت أمس على مجلة أحبها فقرأت فيها لمزًا للأديب الحر المصلح عبد الرحمن الكواكبي، وتفسيقًا لرجلين من بناة النهضة الإسلامية الحديثة ... وأنا أحد تلامذة «المنار» وشيخها محمد رشيد، وأستاذه الشيخ محمد عبده.

وأنا أعرف أن المتنبي – غفر الله له – كان يحب المال إلى حد البخل! ويحب الإمارة إلى حد الجنون. ومع ذلك أطرب لشعره، وأستجيده وأستزيده، وإذا لم يكن أمير الشعراء العرب فهو من قممهم.

إنني لا أجعل عيبًا ما يغطي مواهب العبقري، ثم لحساب من أهدم تاريخنا الأدبي والديني؟ ولمصلحة من أشتم اليوم علماء لهم في خدمة الإسلام وكبت أعدائه كفاح مقدور؟

ومن يبقى من رجالنا إذا أخذت تاريخ الشيخين أبي بكر وعمر من أفواه غلاة الشيعة، وتاريخ علي بن أبي طالب من أفواه الخوارج، وتاريخ أبي حنيفة من أفواه الإخباريين، وتاريخ ابن تيمية من ابن بطوطة وابن فلان، وتاريخ محمد بن عبد الوهاب من أفواه الأتراك ... إلخ؟

وددت لو أعنت على محاكاة أبي حامد الغزالي مؤلف «إلجام العوام عن علم

الكلام» فألفت كتابًا عنوانه: «إلجام الرعاع والأغمار عن دقائق الفقه ومشكل الآثار» لأمنع الصغار عن مناوشة الكبار، وأشغلهم بما يصلحون له من أعمال تناسب مستوياتهم، وتنفع أممهم بهم.

وجهة نظر في أقدار الرجال:

أكره التعصب المذهبي، وأراه ضيق عقل وقلة علم، أو ضيق خلق وقلة مروءة.

وأستحب التقليد المذهبي للعامة وأشباههم، وللأخصائيين في علوم الكون والحياة وشئون الدنيا، حتى لا تشغلهم الفضول عن الأصول! وأعني بالأصول ما توفروا عليه من مهارات فنية وحيوية، مدنية أو عسكرية لا بد منها لدعم أجهزة الجهاد ورفع كفايتها، فإن مصاب المسلمين في هذه الميادين فادح أو فاضح.

أما المشتغلون بعلوم الدين التقليدية، فلا بأس أن يوازنوا بين وجهات النظر المختلفة، ويرجحوا دليلًا على دليل ومذهبًا على مذهب.

مع إكنان الاحترام للرجال الذين قادوا ثقافتنا القديمة. وليس هذا تفضلًا عليهم نتطوع به، بل هو أدب ننزل به على قول رسولنا الكريم ﷺ: «**ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه**»(141).

واحترامي لك لا يعني بتاتًا أن أسلم بكل ما تقول، وتخطئتي لإنسان ما لا تعني أبدًا أني أفضل منه، إن حقيقة الفضل لا يعلمها إلا الله، والأئمة الراسخون قد تقع منهم هنات، وما يهدم ذلك مكانة حصلوها بالسهر والإخلاص والدأب والتفاني.

---

(141) الحديث رواه أحمد والحاكم والطبراني عن عبادة بن الصامت بلفظ: «**ليس منا من لم يجل كبيرنا ...**» الحديث. قال الهيثمي: «وسنده حسن».

مع محمد عبده:

وقد نبتت في عصرنا هذا نابتة سوء تغمز الأكابر بها تراه مأخذًا عليها، وتتعامى عن كل ما لهم من حسنات.

فمَن مِن عباقرة الأرض رزق العصمة؟ ذاك لو سلمنا بأن ما ذكروا مآخذ ... أقول ذلك لمناسبة ما قرأت من تهجم على الشيخ محمد عبده، وهو أحد رواد الإصلاح الحديث، وروح الفقه المتجدد في مدرسة المنار.

أول ما عرفت الشيخ في كتابه: «رسالة التوحيد»، وهو عرض جديد لعلم الكلام ردم الفجوة بين السلف والخلف، وشرح العقائد شرحًا يمزج بين العقل والنقل، وتجاوز الترف العقلي والجدل اللفظي ومنهج المتون والشروح، وقدم أصول الإسلام تقدمة دقيقة جيدة.

ثم قرأت كتابه عن «الإسلام والعلم» الذي رد به على وزير خارجية فرنسا، فرأيت رجلًا عليمًا بالإسلام وتاريخه وفضله على الحضارة الإنسانية، عليمًا في الوقت نفسه بالنصرانية والهندوكية وتاريخهما وما يكتنفه من غيوم.

وقد ألف الكتاب في ليلة واحدة لشدة غضبه من الهجوم الفرنسي، وملأه بالوثائق التي تشرف الحق وتخزي الباطل[142].

مَن مِن علماء المسلمين في عهده تحرك بهذه العاطفة ورد بهذا الرسوخ؟

---

(142) ومن كتبه الجديرة بالتنويه: كتابه: «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» الذي رد به على النصراني اللبناني فرح أنطون، الذي ادعى أن النصرانية كانت أرحب صدرًا للعلم والمدنية من الإسلام، فأسكته الشيخ بكتابه هذا الرائع، الذي يدل على غيرة الرجل، وعلى سعة علمه بالإسلام والنصرانية أيضًا.

ثم قرأت تفسيره للقرآن الكريم، ووجدت بواكير التفسير الموضوعي للسورة فيما كتب، اهتدى إليها ذهن لمّاح مستوعب، وبصر حديد في إدراك الخيوط التي تشد أجزاء السورة، كما تشد الأعصاب أجزاء الكائن الحي.

ويمكن عند متابعة المنار أن يعرف فضل الرجل في تجلية المعنى والحكمة، ودفع الشبهات ودعم اليقين.

قال صديق: لا تنس أن الرجل - من الناحية العلمية - متهم بتجاوز أحاديث صحاح، وهو اتهام لو صح يسيء إلى مكانته! قلت: نعم، إن الذين يرفضون السنة النبوية مصدرًا للتشريع بعد القرآن الكريم أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان، وإذا كان رفضهم للمتواتر والآحاد جميعًا فهم كافرون يقينًا ... بيد أن هنا خلطًا مزعجًا ينبغي كشفه، فإن جماهير أهل العلم تعترف بالسنة جملة، ويقوم لديها بعدئذ من الأسباب الوجيهة ما ترد به حديثًا من مرويات الآحاد.

والذين يفعلون ذلك لا يسمون مكذبين بالسنة؛ فإن ردهم لهذا الحديث إنما وقع لأنهم يستبعدونه من السنة المطهرة، كأنهم يقولون عنه: هو موضوع، أو فاقد لشرط من شروط القبول المقررة.

وخصوم محمد عبده يكادون يتهمونه بالزيغ؛ لأنه رفض حديث سحر الرسول ﷺ، مع أنه رفضه تعلقًا بظاهر القرآن الكريم وإعلاء لقدر المصطفى.

وأخلص من هذا التطويل إلى أن اتهام الرجل برفض السنة كلها - لأنه اعترض أثرًا محددًا - جور شديد، ومدرسة المنار شديدة الاحترام للسنة، ولكن القرآن عندها الدليل المقدَّم، ومن يعترض هذا؟

قال الصديق: في كلامك وجهة نظر قد تقبل، لكن ما لا يقبل تطويع القرآن

لنظريات علمية أو مفاهيم حديثة، إن تفسير الشيخ للملائكة، وللطير الأبابيل لا مساغ له!

قلت: قد يكون تطرف في تقريب المعاني من أذهان المعاصرين(143)، ولست ممن يرتضون هذا المنهج، غير أني أتساءل: لماذا يحسب عليه ذلك، ولا يحسب له تفسيره، القيم النقي لآيات سورة الأحزاب في زواج بنت جحش، وتفسيره الرائع لآيات سورة الحج:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحج: 52].

إن الرجل دمر خرافة الغرانيق التي وجدت لها أسانيد عند بعض المحدثين الكبار، وذاد عن السيرة الشريفة أوهامًا تعكر صفاءها، وبدا من أسلوبه في الاستدلال أنه استدرك على بعض المحدثين اهتمامهم بالسند وذهولهم عن المتن، وأنه رفض تقوية الفرع على حساب توهين الأصل.

والواقع أنه لا يرد أوهام المستشرقين، ولا يصد مفتريات المبشرين إلا فكر على هذا الغرار، فهل ذلك عيبه؟

صحيح أن الجانب السياسي في حياة الرجل موضع أخذ ورد، وأعرف أنه كان

(143) ظهر الشيخ محمد عبده، والغرب في أوج حضارته وازدهاره، والمسلمون في حضيض هبوطهم، وهذا كان له تأثيره على الشيخ ومدرسته في محاولة التقرب من الفكر الغربي، وإزالة الحواجز بينه وبين الفكر الإسلامي، إلى حد التنازل والتجاوز أحيانًا، فمن الإنصاف أن نضع الرجل في زمانه، لا أن نحاكمه إلى زماننا نحن، وعلى كل حال لم يقع السيد رشيد رضا فيما وقع فيه شيخه من التأويل المردود.

في وضع لا يحسد عليه بين محتل غاشم وقصر خائن. وليست لي دراسة مفصلة لهذا الجانب، وإنما أعلم أن دواعي التزكية والترجيح، والإهانة والتجريح، طيعة لمن أراد المدح والقدح، والمصير إلى الله الخبير بالنيات، وإنما عناني فقط الجانب العلمي الذي يعني المسلمين كلهم، وله بحاضر المسلمين ومستقبلهم علاقة وثيقة.

مع جمال الدين الأفغاني:

وأذكر في سطور قلائل رأيي في جمال الدين الأفغاني، لوددت أن يكون علماء الدين على صفته في عزة النفس وشموخ الأنف والتوكل على الله. عندما ذهب إلى الآستانة طلب منه السلطان عبد الحميد أن يدع مهاجمة شاه إيران، وأنصت جمال الدين دون أن يرد، فلما طال إلحاح السلطان عليه قال منهيًا الحديث: قد عفوت عنه!

وشُده السلطان، وذعرت الحاشية! قد عفوت عنه؟ العهد بعلماء الدين أن يكونوا مدفوعين بالباب ينتظرون الجدا، ويشكرون الندى. فما بال هذا الرجل يناصي الملوك ويحاكم أخطاءهم؟!

قال المؤرخون: ما كان جمال الدين يرى نفسه دون الخليفة.

هل هذا السمو خلق عميل للماسونية كما يقال؟! إنه خلق متوكل وثيق الصلة بربه، راسخ القدم في دينه، وما سمعت قبله ولا في عصره من كشف أحقاد الصليبية العالمية، وألب الجماهير ضدها، وشن الغارات شعواء على المستبدين والظلمة، ونفخ من أنفته في الشعوب الراكدة المستعبدة يحضها على العمل لدينها ودنياها. إن الرجل وحده كان صاحب هذا الصوت ويظهر أن تلك كانت جريمته.

قالوا: كان منتسبًا لأحد المحافل الماسونية، ولا أنفي هذا، وإنما أسأل: في أي كتاب إسلامي شرحت آثام الماسونية وحذر المسلمون منها قبل عصر الأفغاني؟

إنه خدع بكلمات الإخاء والحرية والمساواة كما خدعت أمتنا اليوم في المؤسسات العالمية الكثيرة، والمهم أنه منذ ظهر إلى أن مات عليلًا أو قتيلًا لم يؤثر عنه إلا العمل على استنهاض المسلمين وإحياء جامعتهم وحضارتهم ورسالتهم ... وذاك حسبه من الشرف.

أذكر أن «بابا روما» الأسبق مات عقب مرض ألم به، فألف طبيبه الخاص رسالة لا أدري ما فيها عن حياته الخاصة، فصودرت الرسالة، وفصل الطبيب من النقابة، وانتهت حياته الاجتماعية.

وقد ألفت عشرات الكتب عن «نابليون» تنوه بأمجاده، وتتواصى بالسكوت عن غدره وشذوذه وخسته.

القوم إن رأوا من عظمائهم خيرًا أذاعوه، وإن رأوا شرًّا دفنوه! أما نحن فمبدعون في تضخيم الآفات إن وجدت، واختلاقها إن لم يكن لها وجود، والنتيجة أنه لن يكون لنا تاريخ[144].

والعجيب أن غلاة الإسلاميين اتفقوا في موقفهم من الأفغاني مع غلاة العلمانيين! على بعد ما بين الفريقين في المفاهيم والأهداف والمواقف.

فالدكتور لويس عوض – وهو نصراني الديانة، غربي الثقافة، علماني الوجهة – يصب جام غضبه على جمال الدين، ويصفه بكل موبقة، فهو عنده «مغامر مجهول،

---

(144) «علل وأدوية» (ص: 85، 93).

كافر مجنون، مخاطر مغمور، زنديق مخبول، ملحد مأجور، أفاك دساس، دجال متلون ... إلخ».

وقد كتب الأستاذان أحمد بهجت وسامح كريم في الأهرام 29/ 8/ 1983م تعليقات على طريقة لويس عوض في البحث والحكم، وبيّنا أن الرجل كان يرجع إلى تقارير المخابرات الدولية، ويستقي من مصادر لا تعرف النزاهة والصدق. كما بيّن الأستاذ الدكتور جابر قميحة أن «لويس» كان قاصر البحث، غائب المنهج.

والدكتور لويس – كما يقول الغزالي – يرى أن المعلم يعقوب – الذي خان مصر وانضم إلى الحملة الفرنسية – هو زعيم قومي عظيم القدر! وأن جمال الدين – موقظ الشرق الإسلامي في العصر الحديث – جاسوس ملحد!!

ولا عجب في موقف الدكتور، إنما العجب في موقف الذين تلاقوا معه – من المتدينين – في ضرب رجل الإسلام، والجنون فنون[145]!

إن تشويه الرموز الإسلامية، وتحطيم الأعلام، وتدمير القمم: عمل لا يستفيد منه غير أعداء الإسلام، وخصوم المسلمين. وهو للأسف ما أصبح هواية لبعض المنتمين إلى الدين!

لقد زرت المملكة العربية السعودية في العام الماضي، فوجدت أمرًا رابني وساءني: مجموعة من الكتب تتهم العلماء والدعاة، وتوسعهم سبًّا وقذفًا. صنف هذه الكتب بعض الأخوة الغلاة ممن ينسبون أنفسهم إلى السلفية والحق أن السلفية منهم براء.

---

(145) انظر: «علل وأدوية» (ص: 104).

لم يكد هؤلاء يدعون عالمًا كبيرًا، سابقًا أو لاحقًا أو معاصرًا، يخالفهم في قضية ما، إلا كالوا له الذم بأوسع مكيال.

لم يسلم من طول ألسنتهم الباقلاني ولا إمام الحرمين، ولا الإسفراييني، والغزالي، ولا الرازي، ولا النووي، ولا ابن حجر العسقلاني، ولا السيوطي، ولا غيرهم من المتقدمين.

كما لم يسلم منهم من المحدثين الأفغاني ومحمد عبده، والكواكبي ورشيد رضا وفريد وجدي وغيرهم من دعاة الإصلاح.

وكذلك لم يسلم منهم من بعدهم من المفكرين والدعاة، المودودي والندوي وحسن البنا وسيد قطب والغزالي والقرضاوي ومحمد عمارة وفهمي هويدي ... وغيرهم ... من الأموات والأحياء.

وهو ما جعل بعض العقلاء من علماء السعودية يرد عليهم هذا الإسراف والتطاول، داعيًا إلى وجوب التثبت بين الناس بعضهم وبعض.

ونسي هؤلاء أن حسن الظن بالمسلمين أولى من سوئه، وأن الأصل حمل حال المسلمين على الصلاح، والتماس المعاذير لأهل الإسلام، وافتراض نية الخير منهم.

* * *

٥ - إحياء اللغة العربية

اللغة العربية هي لغة القرآن، ولسان الإسلام، ووعاء ثقافته، وهي اللغة التي شرفها الله تعالى بأن أنزل بها أعظم كتبه، فخلد ذكرها، وعمم أثرها.

وقد ذهب الإمام الشافعي إلى أن تعلم اللغة العربية – أو قدر منها على الأقل – فرض على كل مسلم حتى يستطيع أن يؤدي فرائض دينه، وخصوصا الصلاة اليومية.

وقد كان انتشار الإسلام في العالم سببًا في انتشار اللغة العربية، وخصوصًا في العصور الأولى، حيث كانت اللغة تسير مع الدين جنبًا إلى جنب، وهذا سر تعريب مصر والسودان وشمال إفريقيا كله، والأندلس يوم كان للمسلمين فيه دولة.

وقد وسعت اللغة العربية علوم الحضارة الإسلامية وفنونها في زمن ازدهارها، ولم تضق بعلم ولا فن، بالإضافة إلى علوم العربية نفسها، التي نبغ فيها عباقرة أفذاذ من شتى الأجناس، لا من العرب وحدهم، وارتقى الأدب العربي شعرًا ونثرًا، حتى بلغ الذروة في آداب العالم.

وفي عصور الهزيمة والتخلف وإدبار الحضارة الإسلامية، ذبلت اللغة العربية وآدابها، وطغت على شعرها ونثرها المحسنات اللفظية، وغابت الأصالة والإبداع، وأضحى التكرار والتقليد هو الطابع العام للإنتاج الأدبي، وأصبح المثل السائر هو: ما ترك الأول للآخر شيئًا!

وعندما بدأت اليقظة الإسلامية الحديثة، كان التوجه لإصلاح اللغة وإحيائها، وتحريرها من العوائق اللفظية التي تنوء بها في مقدمة بواكير التجديد والإصلاح.

نجد هذا عند كل المصلحين الإسلاميين، وخصوصًا الشيخ الإمام محمد عبده، الذي عَدَّ إصلاح أساليب اللغة العربية أحد أمرين أساسيين أو أمور ثلاثة كانت في طليعة ما عنى به.

وقد ساهم الشيخ في ذلك بنشر «نهج البلاغة» الذي يضم كلمات وخطب سيدنا علي ﷺ، كما جمعها الشريف الرضي، وتعليق الشيخ عليها.

كما كانت كتابات الشيخ نموذجًا يحتذى في ذلك، بعيدًا عن التقعر والتكلف.

وكذلك عنى الإمام الشهيد حسن البنا باللغة، حتى جعل من وصاياه العشر لأتباعه وتلاميذه التكلم باللغة العربية الفصحى.

فلا غرو بعد ذلك أن يعنى إمامنا الغزالي بالعربية، وأن يدافع عنها، وينوه برجالها وأدبائها وشعرائها الكبار، مثل المتنبي قديمًا وأحمد شوقي حديثًا، ومصطفى صادق الرافعي، وغيرهم.

وهو يهاجم الذين يروجون اللهجات العامية، ويريدون تخليدها وتعميقها، كما يهاجم دعاة الشعر الحديث، الذي لا يراه شعرًا ولا نثرًا. حتى ذكر الشيخ في بعض كتبه: «إن الجرأة على اللغة العربية وصلت إلى حد الفحش، والسكوت على هذا الوضع طريق إلى الارتداد عن دين الله!»(146).

وأثنى الشيخ على الزعيم المصري سعد زغلول لأمرين:

1 - جعل اللغة العربية هي لغة التعليم والتربية في جميع مدارس مصر، بدل الإنكليزية.

---

(146) «علل وأدوية» (ص: 190).

2 – وثانيًا: أنه كان يخطب بالفصحى، فلا يقع في خطابه السياسي لحن ولا عامية ولا إسفاف، على خلاف زعماء جاءوا بعد ذلك يخطبون الجماهير بالعامية المبتذلة!

وفي موضع آخر يقول الشيخ: معروف أن المبشرين والمستشرقين بذلوا جهودًا حثيثة لتغليب العامية، وإماتة لغة القرآن.

فكيف – باسم العروبة – نمقت لغتها ونهجر بلاغتها وأدبها، ولحساب من؟

ولاحظت أنه باسم العروبة كانت الخطب الرسمية الضافية تلقي باللغة العامية الدنيا، وهو تصرف لم يؤثر عن قادة الأمم في شرق وغرب!

ولاحظت أنه باسم العروبة أصبحت العامية لغة البرامج الإذاعية حاشا نشرات الأخبار والدروس الدينية، وتقررت اللهجات العامية لغة للتخاطب والتسجيل ...

كما أنه باسم العروبة فرض حظر رهيب على اللغة العربية أن تدخل كليات الطب والهندسة والصيدلة والعلوم ... إلخ.

وتحجرت هذه اللغة، فلم تواكب سير الحضارة إلا بخطى السلحفاة أحيانًا وفي جو من التندر والسخرية!!

المطلوب لإحياء اللغة:

وفي أثناء حديث للشيخ عن الإعلام الإسلامي وتقصيرنا فيه، وما يتطلبه منا، تحدث عن دور اللغة في الإعلام. وكان مما قاله هنا:

بقي عنصر أخير فرطنا فيه كثيرًا وهو تعليم اللغة العربية، سواء للمسلمين

الأعاجم أو لغير المسلمين! إن الجهل باللغة العربية يشيع بين (80) أو (85) في المائة من المسلمين. وأما الجهل بها في أرجاء العالم فشيء مفزع، ولا يمكن عدها لغة عالمية مع أنها الوعاء الفذ للرسالة العالمية الوحيدة التي طرقت أبواب العالم، وشاء القدر الأعلى أن تبقى فيه إلى يومه الأخير.

ونحن نطلب ثلاثة أشياء محددة لإحياء اللغة العربية والحفاظ على مكانتها:

1 - تأليف بعثات وجماعات لتعليم اللغة وحدها دون ربط هذا التعليم بالبلاغ الديني، أي تهيئة معرفة اللغة وإتقانها لأي إنسان يطلب المزيد من الثقافة. وسوف يجني الإسلام على المدى البعيد ثمرة الازدهار اللغوي المجرد.

2 - الجد في محاربة اللهجات العامية - داخل الوطن العربي - وتضييق الخناق عليها، ومنع البرامج التي تقدم الأحاديث باللغات العامية، ومنع الأزجال والمواويل والشعر الفوضوي المبتدع أخيرًا، والذي يسمونه الشعر المرسل.

3 - إحيا الأدب العربي الخالص وتقريبه من طبيعة العصر، أي تجريده من التكلف وافتعال المحسنات اللفظية، وتشجيع الشعراء المجيدين بشتى الوسائل ...

وقبل ذلك لا بد أن تقوم مجامع اللغة العربية بجهد محترم في نشر ألفاظ الحضارة وجعل العربية لغة للعلوم الحديثة ...

إن العناية باللغة العربية جزء حقيقي من عمل الإعلام الإسلامي.

***

الفصل العاشر

الغزالي . . . رجل المواقف

* * *

الغزالي . . . رجل المواقف

للغزالي مزايا كثيرة، ومن مميزاته المعروفة: أنه رجل موقف.

ومواقف الغزالي في حياته كثيرة. أعني المواقف التي يقف فيها عند رأيه متشبثًا به مدافعًا عنه، مهما يكلفه ذلك من تضحية ومكابدات، على نحو ما قال شوقي:

قف دون رأيك في الحياة مجاهدًا   إن الحيـــاة عقيـــدة وجهـــاد!

ولقد أشرت إلى موقف الشيخ الغزالي عندما ذهبنا إلى معتقـل الطـور، ووجـد القادة المسئولين عن المعتقلين يسرقون أقواتهم، ولا يعطونهم إلا الفتـات، فخطـب الشيخ، وقاد مسيرة بعد صلاة الجمعة، تهتف بسقوط «لصوص التجويع»، وتعلن «اللصوصية المنظمة»،ممـا أدى إلى مفاوضـات مـع المعتقلـين انتهـت بتسـليمهم مستحقاتهم «جافة»، وهم يتولون طهيها وتهيئتها.

المؤتمر القومي العام:

ومن المواقف التي تذكر للشيخ: موقفه في المؤتمر القومي العـام الـذي عقـد في القاهرة أيام عبد الناصر، في أوائل الستينيات، ووقوف الشـيخ يـدعو صراحـة إلى وجوب التحرر من الاستعمار التشريعي، بالرجوع إلى أحكام الشريعة الإسـلامية. وعرج الشيخ في نهاية كلمته على ضرورة التخلص من التقليد والتبعية في الأزيـاء، وأن يكون للأمة أزياؤها الخاصة بها، سواء ما يتعلق بالرجـال أو النسـاء، وضرورة عودة المرأة المسلمة إلى الاحتشام، وهو ما أثار العلمانيين عامة والماركسيين خاصـة وهاجموا الشيخ، ولكن الشيخ لم يبال بهـذا الهجـوم، وثبـت عـلى موقفـه كـالطود الأشم، وانتصرت له الجماهير.

قانون الأحوال الشخصية:

ومن المواقف التي تذكر للشيخ: موقفه من قانون الأحوال الشخصية، الذي يعرف عند المصريين بـ «قانون السيدة جيهان»، يقصدون قرينة الرئيس الراحل أنور السادات، التي كانت متحمسة له، وقد هاجمه الشيخ في قاعة الشيخ محمد عبده بالأزهر، وصفقت له الجماهير، ووقفت بجانبه.

وكان موقف الشيخ في هذه القضية مماثلًا لموقف شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود - الإمام الأكبر شيخ الأزهر - ولذا سقط القانون أو قل جمّد في عهده، ثم وجد من الشيوخ - للأسف الشديد - ما أجازوه!

موقف في الجزائر:

ومن المواقف التي تذكر الشيخ: موقفه في «ملتقى الفكر الإسلامي» في الجزائر في أواخر الثمانينات، عندما وقف صديقنا الدكتور سعيد رمضان البوطي - الداعية الإسلامي المعروف - يتحدث عن ضرورة اشتغال الدعاة بالتربية والتوجيه، وترك السياسة لأربابها، ويكفي الحكام أو الساسة ما يعانون من متاعب الحكم، وآفات السياسة ... إلى آخر ما قال - غفر الله لنا وله - حول هذا الموضوع، مما أثار الحاضرين في الملتقى وأقلقهم.

وكان الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد حاضرًا في ذلك الوقت، وشعر المشاركون بالحرج. وهنا طلب الشيخ الغزالي الكلمة، وصعد إلى المنصة، وأثنى على صديقه الشيخ البوطي، ولكنه خطّأه في توجهه، وإن العالِم المسلم لا يسعه أن يسكت عن باطل، أو يغمض عن ظلم أو يتغاضى عن المنكرات من حوله، وأكبرها تعطيل الحكم بما أنزل الله، وأن الإسلام لا يعرف الفصل بين الحكم

والعلم، وأن المسلمين إنما أصيبوا وهزموا يوم فصلوا بين الأمرين ... إلى آخر ما قال – حفظه الله ورعاه.

وبذلك وضع الشيخ الحق في نصابه، وأتى الأمر من بابه، واستراح الجميع لتعليق الشيخ، ومنهم بن جديد نفسه، وقد ذكر الشيخ له موقفًا في أيام الجهاد، دلل به على أهمية الدين وضرورة الإيمان للسياسة وللجهاد.

لم أكن حاضرًا في ذلك الملتقى، ولكن نقله إليّ الإخوة الحضور، كما نشرته جريدة «الشرق الأوسط» في حينه.

الشهادة في مقتل فرج فودة:

ومن أخطر المواقف وأحدثها للشيخ، موقف «الشهادة» الأخيرة في محكمة أمن الدولة، في قضية مقتل الدكتور فرج فودة، تلك الشهادة التي أحدثت دويًّا، بل زلزالا في دنيا السياسة وعالم الفكر والثقافة، وتناولتها الأقلام المختلفة بالتعقيب ما بين مؤيد ومنكر ومتوقف.

لقد طلبت المحكمة حضور الشيخ بناءً على طلب دفاع المتهمين، ليجيب عن أسئلة معينة وجهها إليه الدفاع[147].

والمحكمة استدعت الشاهد فسألته بالآتي، فأجاب: اسمي محمد الغزالي أحمد السقا، وسني (76) سنة، وأعمل عضوًا بمجمع البحوث الإسلامية، ومقيم بالدقي (10) ش قمبيز بميدان الدكتور سليمان – وحلف اليمين.

---

(147) ننقل شهادة الشيخ هنا كما سجلها حرفيًا كتاب الأستاذ أحمد السيوفي «محاكمة المرتدين» وكذلك التعليقات عليها.

س: ما معلوماتك؟

ج: أنا مستدعى من قبل الدفاع بناءً على طلب المحكمة استجابة لطلب الدفاع.

س: من الدفاع: هل الإسلام دين ودولة؟ وما معنى هذه المقولة؟

ج: الإسلام عقيدة وشريعة، وعبادات ومعاملات، وإيمان ونظام ودين ودولة ... ومعنى هذه المقولة ذكرته الآية الشريفة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89]، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: 114]، فالإسلام دين شامل منذ بدأ من خمسة عشر قرنًا، وهو دين ودولة لم تنفصل فيه السلطة الزمنية عن المعاني الروحية، وقد جاءت النصوص متشابهة في إيجابها لشتى الأركان، فمثلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ [البقرة: 178]، و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216]. وجاءت هذه الأقوال في عبادة جنائية كالقصاص، وفي عبادة شخصية كالصيام، وفي عبادة دولية كالقتال. فالعبارة واحدة وإن اختلفت اتجاهات التشريع. ومعروف أن أطول آية في القرآن هي التي نزلت في الدَّين وهي عبادة اقتصادية، والتي تبدأ آياتها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ إلخ الآية [البقرة: 282]. وبالإحصاء والاستقرار نجد أن الإسلام دين للفرد والمجتمع والدولة، وأنه لم يترك شيئًا إلا وتحدث فيه، ما دام هذا الشيء يتصل بنظام الحياة وشئون الناس.

س: من الدفاع: هل تطبيق الشريعة الإسلامية فريضة واجبة؟

ج: أدع الإجابة عن هذا السؤال للقرآن نفسه، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول لنبيه: ﴿فَلَا

وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]، وقوله في آية أخرى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50].

س: من الدفاع: ما حكم من يجاهر برفض تطبيق الشريعة الإسلامية جحودًا أو استهزاءً؟

ج: الشريعة الإسلامية كانت تحكم العالم العربي والإسلامي كله حتى دخل الاستعمار العالمي الصليبي - وكرهه للإسلام واضح - فألغى أحكام الشريعة الإسلامية، وأنواع القصاص، وأنواع التعزير، وأنواع الحدود، وحكم الناس بالهوى فيما يشاءون. وقد صحب الاستعمار العسكري استعمار ثقافي مهمته هي جعل الناس يطمئنون إلى ضياع شريعتهم وإلى تعطيل أحكام الله دون أن يتبرموا، وأنا كأي مسلم أقرأ قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ إلخ [النور: 2] أجد الآية مقلوبة في المجتمع، وأجد القانون يقول: إذا اتفق شخصان بإرادة حرة على مواقعة هذه الجريمة فلا جريمة، وقد تسمى حبًّا، وتسمى عشقًا. ولكن نص الشريعة عُطل وروح الشريعة أزهقت ... فكيف يقبل مسلم هذا الكلام أو يستريح لهذا الوضع، وبالتالي كيف يسخرون مني إذا قلت يجب إقامة الشريعة؟ وأعرف أناسًا كثيرين يرون تعطيل الشريعة، ويجادلون في صلاحيتها، ويثبتون حكم الإعدام الذي أصدرته الحكومات الأجنبية أو الاستعمار العالمي على هذه الشريعة التي شرفنا الله بها. إنهم يعدمونها إعدامًا ويريدون تثبيت هذا الإعدام، ويجادلوننا باستهزاء أحيانًا في صلاحية الشريعة للتنفيذ. هذا كما قلت وكما قال الله تعالى، وليس بمؤمن يقينًا من يجاهر برفض تطبيق الشريعة الإسلامية جحدًا أو استهزاءً، بل كما قال الله تعالى في وصف هؤلاء

الناس في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: 44]، ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: 47]. ويعرف الإنسان أنه منافق من رفض حكم الله. وقد قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: 47]، ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ 48 وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ 49 أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ إلى آخر الآيات في نفس الموضوع [النور: 48 – 50].

س: من الدفاع: ما حكم من يدعو إلى أن يستبدل بحكم الله شريعة وضعية تحل الحرام وتحرم الحلال؟

ج: ليس هذا بمسلم يقينًا: يقول الله تعالى في هؤلاء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 60].

س: هل يُعَدّ هذا العمل عملًا كفريًّا يُخرج صاحبه من الملة؟

ج: نعم، فمن رفض الحكم بما أنزل الله جحدًا واستهزاءً هو بلا شك يخرج من الملة.

س: من الدفاع: فما حكم المسلم الذي يأتي هذا الفعل الكفري أو القول الكفري عن تعمد وعلم بمعانيه ومراميه؟

ج: مهمتي الشخصية هي أن أشرح له كعالِم وأدحض شبهاته وأبيّن له الحقيقة. وليست مهمتي كداعية إلى الله أن أتلمس العيوب للناس، ولست أفرح بإيقاع أقدامهم في الحبائل والشباك ... وإنما أنا طبيب أعالج المرضى، وأريد أن

أنقذهم من الجراثيم التي تفتك بهم. فإذا كان عنيدًا يرفض كل ما أقول، ويأبى إلا تكذيب الله ورسوله، فلا أستطيع أن أقول إنه مؤمن.

س: من الدفاع: هل يصح لإنسان نطق بالشهادتين الادعاء بالإسلام مع المجاهرة ورفض تطبيق الشريعة الإسلامية، والدعوى إلى أن يستبدل بشرع الله شرائع الطواغيت من البشر؟

ج: أولًا يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8]، بل إن بعض الناس كان يحلف أنه مؤمن ولكن ميله للكفار وجبنه عن مقاتلتهم والدفاع عن الإسلام نفى الدين عنه، قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ 56 لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: 56، 57]. ومعنى الآية أن قولهم مؤمنون مع تكذيب أعمالهم لهم لا يقبل، والإيمان باتفاق العلماء قول وعقيدة وعمل. ثم ألفت النظر إلى أن ديننا اسمه الإسلام ... أي الخضوع لله، ومعنى ذلك أن إبليس كان يعلم أن الله حق ويجادله ... فرفض الأمر والنهي يخرج الإنسان عن الملة.

س: من الدفاع: هل يُعَدّ من يأتي هذه الأفعال الكفرية، والأقوال الكفرية مبدلًا لدينه مفارقًا للجماعة؟

ج: نعم، يُعَدّ مرتدًّا عن الإسلام.

س: من الدفاع: ما حكم هذا المرتد شرعًا؟

ج: حكم المرتد في الشريعة واضح، وأنا لي رأي خاص. فالرأي العام في الإسلام أنه مخطئ، وأن الارتداد قد تكون له أسباب، فيمكن أن يكون لإنسان شُبهة ولا

يحسن فهم الدليل ... فأنا مهمتي كشف الشبهة وبيان الدليل. وقد يرى الحاكم بدل أن يقتل أن يسجن سجنًا مؤبدًا لأمر ما. وعندما كان الجدال بين النبي وزعماء مكة في صلح الحديبية فقد عرض أمر على الرسول. وقد انتهى الرسول إلى أن من ترك المدينة وجاء لمكة لا يمنعه الرسول، ومن ترك مكة وذهب إلى المدينة يمنعه الرسول، وقد سأل الصحابة الرسول في ذلك فقال لهم: «**شر وأريد أن أبعده عنكم**». ورأيي الخاص لو أن واحدًا من الناس ارتد لا أتعقبه، ولكن بقاءه في المجتمع جرثومة ينفث سمومه ويحض الناس على ترك الإسلام، فيجب على الحاكم أن يقتله.

س: من الدفاع: قررتم فضيلتكم أنه قد يكون صاحب القولة الكفرية لديه شبهة أو لم تبلغه الحجة، فماذا إذا بلغته الحجة؟

ج: هذا ككفر الفراعنة ... جحدوا وجود الله وعصوا موسى، وهذا يكون ارتدادًا صريحًا حاسمًا.

س: من الدفاع: من الذي يملك إيقاع الحد على المرتد المستوجب قتله؟

ج: المفروض أن جهاز القضاء هو الذي يقوم بهذه المهمة، فهو الذي يقيم الحدود ويقيم التعازير ويحكم بالقصاص، ولا يكون ذلك لآحاد الناس حتى لا تكون فوضى.

س: من الدفاع: فماذا لو كان القاضي لا يعاقب على الردة والقضاء لا يوقع الحدود؟

ج: هذا عيب القضاء، وعيب المسئولين عنه، والقانون معيب.

س: من الدفاع: ماذا لو أن القانون المطبق لا يعاقب ... هل يبقى الحد على

أصله من وجوب الإيقاع؟

ج: حكم الله لا يلغيه أحد ... والحد واجب الإيقاع.

س: من الدفاع: ماذا لو أوقعه فرد من آحاد الأمة، هل يُعَدّ مرتكبًا جريمة أو مفتئتًا على السلطة؟

ج: يُعَدّ مفتئتًا على السلطة، وأدى ما يجب أن تقوم به السلطة.

س: من الدفاع: هل هذا المفتئت على السلطة بفرض أن السلطة توقع حدًّا، هل له عقوبة في الإسلام؟

ج: أنا لا أذكر أن له عقوبة في الإسلام.

س: من المحكمة: هل لديك أقوال أخرى؟

ج: لا.

تمت أقواله. ووقع «محمد الغزالي».

أثر شهادة الشيخ في الحياة العامة:

زلزلت الأرض زلزالها بعد شهادة الشيخ؛ لمكانته المرموقة في مصر والعالم العربي والعالم الإسلامي والعالم كله، وثارت ثائرة خصوم الفكر الإسلامي، وأعداء الحل الإسلامي، وكل الحاقدين على الإسلام، والخائفين منه، والمبغضين له، وتكالبت الأقلام المسعورة والمأجورة على الشيخ الجليل، وانتهزها الشيوعيون المهزومون، والمغتربون المقهورون، والعلمانيون الموتورون، انتهزوها فرصة لينهشوا من لحم الشيخ، ناسين أن لحمه سم زعاف.

وسالت أنهار الصحف بالكلام عن الشهادة والشاهد، ولم يعبأ الشيخ بما قيل

ويقال.

حتى بعض الأقباط دخل في المعركة[148]، وهاجم الشيخ بوقاحة وسلاطة، مع أنهم كانوا من قبل لا يجترئون على أن يمسوا بكلمة علماء الإسلام!

وذهب وزير مسئول إلى الشيخ في بيته ملحًّا في الضغط عليه، ليصدر تصريحًا أو بيانًا، أو يكتب كلمة – أو نحو ذلك مما يروق له – يفسر به موقفه بما يشبه التراجع عما قاله في الشهادة.

ولكن الشيخ أبى إلا أن يثبت على موقفه، وظل كالصخرة العاتية، التي تحطمت عليها كل المحاولات، ولم تجد فتيلًا.

ولما ألح هذا المسئول على الشيخ وكرر عليه القول مرة بعد مرة، قال له في صراحة وجلاء: أنا لم أكتب مقالًا في صحيفة، ولا ألقيت خطبة في جامع، ولا محاضرة في جمعية، ولكني استدعيت للشهادة أمام محكمة، فشهدت بما أعتقد أنه الحق الذي أدين الله به وألقاه عليه، فإذا كان في شهادتي بعض الغموض، فلتدعني المحكمة مرة أخرى، وأنا أشرح لها موقفي.

وبهذا حسم الأمر، ولم يعد هناك مجال للقيل والقال.

ولكن الصحافة لم تصمت، وخصوصًا بعد أن انضم إلى شهادة الشيخ: شهادة أ. د. محمود مزروعة رئيس قسم العقائد والأديان بكلية أصول الدين بالأزهر، والتي كانت أصرح وأشد من شهادة الشيخ، والتي اتهم فيها الشاهد فرج فودة بالردة صراحة، وقدم من كتبه ومقالاته ما يدل على ذلك للمحكمة.

---

(148) غالي شكري، في مجلة له في مقال طويل عن الشيخ الغزالي.

ومن أهم ما نشرته الصحافة المصرية في الموضوع: ما أثاره الصحفي المعروف صلاح منتصر في جريدة الأهرام القاهرية. ونحن نورده هنا لأهميته.

أسئلة مهمة للشيخ:

في أهرام (18) من يوليو فجَّر صلاح منتصر عدة أسئلة لفضيلة الشيخ الغزالي، نظرًا لأهميتها نوردها ونورد الرد عليها من الشيخ، وخاصة أننا استشعرنا أن الأستاذ صلاح يحاول أن يضع فخًّا للشيخ ... ولكن الشيخ الغزالي خرج من هذا المطب بسهولة متلحفًا بقواعد الشريعة. وهذا نص ما كتبه الأستاذ صلاح منتصر في عموده اليومي[149]:

أسئلة إلى الغزالي:

فضيلة الشيخ محمد الغزالي له منا كل احترام وتقدير ... بالإضافة إلى ما نعرفه عن علمه وجهده الكبير للقيام بدور الداعية، الذي يتمنى قوة المسلمين وخروجهم من مرحلة الضعف والهوان التي يمرون بها اليوم.

ولقد كانت لفضيلة الشيخ الغزالي شهادة أمام المحكمة التي يمثل أمامها المتهمون باغتيال الدكتور فرج فودة، وحسنًا تم نشر هذه الشهادة بالنص حتى نعرف على وجه الدقة ما قال فضيلة الشيخ ... وإن كان أحد الزملاء «الأستاذ فهمي هويدي، أهرام (6/ 7)» قد وجد أن حديث الشيخ أمام المحكمة يحتاج إلى إيضاح للعامة، فكتب يحاول هذا الشرح تحت عنوان: «حاشية على شهادة الغزالي». ولكن يبدو أن الحاشية في حاجة إلى حاشية ... وليس في الدين حرج كما تعلمنا ...

---

(149) نقلًا عن كتاب: «محاكمة المرتدين»، السابق ذكره.

كما أن الدين كدستور للحياة لا بد أن يصل إلى الناس ببساطة حتى وإن كان معقدًا في بعض التفاصيل ... لكن مهمة الداعية أن يسهل لا يصعب، وهو ما يجعلني أرجو فضيلة الشيخ الغزالي – بعد أن قرأت شهادته، وبعد أن قرأت الحاشية التابعة لشهادته – أن يجيب عن هذه الأسئلة التي أتصور أن ملايين مثلي قد سألوها وينتظرون من فضيلة الشيخ إجابة عنها.

إن أسئلتي يا فضيلة الشيخ هي:

1 – أي الدرجات أعلى في المعصية: الكافر أم المرتد؟

2 – متى يكون الفرد كافرًا، ومتى يكون مرتدًّا؟

3 – من الذي يملك تكفير فرد، ومن الذي يملك الحكم عليه بالردة؟

4 – هل يحتاج الأمر السابق إلى فقهاء ودعاة دارسين وبطريقة علنية وواضحة ... أم يستطيعه أي فرد أو جماعة وبطريقة سرية ومغلقة؟

5 – هناك بعض الدارسين من يشكك في حد الردة، ويقول: إن حد الردة ليس موجودًا صراحة في القرآن الكريم ... فهل هذا صحيح؟

6 – هل يتعارض ما ورد في القرآن الكريم عن حرية العقيدة. واعتبار الحكم على إسلام الفرد من اختصاص الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مع القول بحق أي فرد أو جماعة في تكفير فرد أو الحكم بأنه مرتد؟

7 – المعروف أن فضيلتكم اشتركتم في ندوة كان فرج فودة طرفًا فيها، وكان ذلك في معرض الكتاب في يناير من العام الماضي قبل اغتياله بنحو ستة أشهر، فهل كان قبولكم للاشتراك في هذه الندوة لمناقشة فرج فودة كمسلم أو محاولة

استتابته كمرتد؟

8 – حماية لأنفسنا وأبنائنا وشبابنا من الزلل، ما الذي ورد في كتابات فرج فودة يجعله في موضع الشبهة بالكفر أو الردة؟

فضيلة الإمام ... إن الدعوة ضريبة وفرض ... وأحسب أن تساؤلاتي هي أمانة في عنقك كداعية للرد عليها، مع كل تقديري واحترامي.

صلاح منتصر

رد من الغزالي:

أبدأ أولًا وأشكر فضيلة الشيخ محمد الغزالي على سرعة استجابته بالرد على ما وجهته إلى فضيلته من أسئلة (أهرام الأحد 18/ 7) ... وقد أرسلها لي مكتوبة بخط اليد مع مقدمة، بأمل نشرها كاملة دون تلخيص، «فإني قمت عنكم بمهمة الإيجاز، وأحسب أن أي نقص في العبارة يفسد الرد ... وهذا ما لا يرضيكم». وها أنا ذا أنشر نص الرد كاملًا:

1 – أي الدرجتين أعلى في المعصية: الكافر أو المرتد؟

جواب: الكافر أقل سوءًا من المرتد. فإنني قد أشترك في عمل تجاري مثلًا مع كافر بالإسلام، يهوديًا كان أو نصرانيًا، وفي كلتا الحالتين يجب البر بهم وبذل الود لهم. أما المرتد فهو كخائن الوطن منبوذ مكروه، وقد استعمر الأوروبيون أرضنا ومحوا شرائعنا وشعائرنا، فمن انضم إليهم في عداوتهم ... فكيف نصادقه؟

2 – متى يكون الفرد كافرًا، ومتى يكون مرتدًّا؟

جواب: الكافر امرؤ خالي البال من تعاليم الإسلام. لعلها لم تبلغه أو بلغته ولم

يقتنع بها، ولا سبيل لنا عليه إلا إذا اعتدى علينا. أما المرتد فهو رجل كان منا وعرف ما نحن عليه ثم رأى لمأرب خاص أن ينضم إلى خصومنا، وأن يؤيدهم بما يستطيع. أي أنه خائن غادر. أما إن كانت لديه شبهة عقلي، فلا بد من إزالة شبهته ومحو ما يتعلق به من أوهام ولو ظل سنين على قيد الحياة.

3 - من الذي يملك تكفير فرد، أو الحكم عليه بالردة؟

جواب: أهل الذكر وحدهم ... أعني الراسخين في العلم، فإن اتهام فرد بالكفر جريمة، والإسلام دين مضبوط التعاليم. فمن استباح الخمر مثلًا وسخر من حرمتها، أو من ترك الصلاة جاحدًا واستهزأ بشريعتها فليس بمسلم، بل هو ناقض للمجتمع ومنكر للوحي وخارج على الأمة.

وسلطة الاتهام بالكفر محددة، وليست كلًّا مباحًا لأي إنسان.

4 - هل يحتاج الأمر السابق إلى فقهاء ودعاة دارسين وبطريقة علنية وواضحة، أم يستطيعه أي فرد أو جماعة وبطريقة سرية مغلقة؟

جواب: قلنا: إن الفقهاء الثقات وحدهم هم مصدر الفتوى. ورأيهم يكون واضحًا ومعلنًا، إلا إذا كان الإسلام مضطهدًا وحرية العمل به مصادرة. إن جو الحرية الرحب هو الذي يستطاع الأخذ والرد فيه، ولن تكون الحرية لطرف واحد بداهة، بل تضمن الحرية لجميع الأطراف يقولون ما لديهم في أمان.

وبقيت أربعة أسئلة أخرى سبق أن وجهتها إلى فضيلة الشيخ ... أكمل بإذن اللَّه غدًا رده عليها.

صلاح منتصر

بقية رد الغزالي:

في عمود أمس نشرت النص الكامل لما تضمنته رسالة فضيلة الشيخ محمد الغزالي ردًّا على أربعة أسئلة سبق أن وجهتها إليه، وفيما يلي بقية إجاباته عن أربعة أسئلة أخرى أنشرها بالنص دون انتقاص حرف واحد ... حتى علامات التعجب، فهي كما وردت في رسالة فضيلته:

5 - هناك بعض الدارسين الذين يشككون في حد الردة ... ويقولون: إنه ليس موجودًا صراحة في القرآن الكريم، فهل هذا صحيح؟

جواب: نعم لم يرد في القرآن الكريم قتل المرتد(150)، وإنما وردت بذلك السنن الصحاح. وعندي أن جريمة الردة متفاوتة السوء والخطر، وقد تستحق القتل إذا ساوت ما نسميه الآن: الخيانة العظمى، أو ما نسميه: الخروج المسلح على الدولة. وقد تكون شبهة عارضة يكتفى فيها بالتوبة النصوح. وأمام القضاء تعرف الحقيقة، ويتحدد العقاب العدل، ويوزن خطأ كل فرد!!

6 - هل يتعارض ما ورد في القرآن الكريم من اعتبار الحكم على إسلام الفرد من اختصاص الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مع القول بحق أي فرد أو جماعة في تكفير فرد أو الحكم بأنه مرتد؟

جواب: إن قلوب الناس إلى الله بيقين. ولكن لمسالكهم حدودًا وضوابط من وضع الله ذاته، وإلا سرت الفوضى بين الناس. فمن يدعو إلى ترك العلاقات

---

(150) هذا ليس مسلمًا، فبعض فقهاء السلف يرون آية الحرابة في سورة المائدة تشمل المرتدين؛ لأنهم يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا. انظر: بحثنا عن عقوبة المرتد في الفصل الأول من كتابنا: «ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده».

الجنسية حرة، ويماري في جريمة الزنا وعقوبتها، لا يمكن اعتباره مسلمًا؛ لأنه مخاصم لحكم الله وخارج عليه. ولذلك قال في ضرورة الطاعة التامة: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 11]. فما العمل إذا لم يتب ويقم الصلاة ويؤت الزكاة؟ حكم الله واضح.

7 - اشتركتُ في مناظرة مع فرج فودة لأني كنت طامعًا - إذا شرحت له الحق، وبسطت أدلته - أن أعود بالرجل إلى الإيمان، ولكني وجدته يكره الإسلام ونظامه، وينكر صلاحية أحكامه للبقاء. أي أنه يؤيد حكم الإعدام الذي أصدره الاستعمار على شريعتنا وينحاز إلى أعدائنا بصراحة!!

هذا وقد أصدر نفر من علماء الأزهر كتابًا تضمن ما نسب إلى فرج فودة من خروج على الإسلام واستهزاء بتعاليمه ... ويستطيع الأستاذ صلاح منتصر أن يقرأ هذا الكتاب ... ذلك وأقول أخيرًا: إنني رجل من الدعاة إلى الله، لا أتمنى إلا الحرية لي ولخصومي على السواء، وأكره العدوان والمشاكسة، ولكني أشكو من أن ديني يجار عليه وينتقص منه ويحرم أهله ما يسمى في عصرنا بحقوق الإنسان، وأن المنتمين إلى هذا الدين في طور سيئ من تاريخه، وتكاد تذهب كراماتهم الخاصة والعامة في مهب الرياح.

محمد الغزالي

عقوبة قتل المرتد:

كان سؤالي الأخير إلى فضيلة الشيخ محمد الغزالي هو: إذا قتل إنسان إنسانًا آخر بحجة أنه كفر أو ارتد ... فما عقوبته؟ هل يقتل قصاصًا أم تعزيرًا، أم نقول - كما فهم البعض من شهادتكم أمام القضاء - بأنه لا عقوبة عليه؟

وقد تلقيت شاكرًا رد فضيلة الشيخ الغزالي ... وفيما يلي نصه كما أنقله من رسالته المكتوبة بخط يده:

«إذا ارتد أحد عن الإسلام رفع أمره إلى القضاء ليبت في مصيره وفق حكم الله ... وقد قلت: إن جريمته إذا ساوت الخيانة العظمى حكم القضاء بقتله. وتتقرر هذه المساواة في حالات شتى، نذكر منها: التهوين من شأن القرآن والطعن في مكانته، وجحد الفرائض المعلومة من الدين بالضرورة والدعوة إلى تركها، واستباحة الكبائر وطلب فتح حانات الخمور ومواخير البغاء ... والسخرية من الحدود الشرعية، وإهانة الرسول ﷺ، إلى آخره ... فإذا أعلن المرتد توبته وأصلح نفسه سقط الحد عنه ... وعاد مسلمًا كما كان ... وليس للجمهور إقامة الحدود أو إيقاع العقوبات من قصاص وتعزير، فذلك للقضاء، ومن فعل شيئًا من ذلك فقد افتأت على السلطة ... وهنا يقوم القضاء بتعزيره حسب ما يصون المصلحة العامة وهيبة القضاء.

وليست هنالك عقوبة محددة لهذا المسلك ... بيد أننا نلفت النظر إلى أن التهاون في معاقبة المرتدين يفتح باب الفوضى. ومعروف أن هناك من ارتد وبسطت عليه بعض الحكومات حمايتها كسلمان رشدي، واعتقادي أن حكومتنا ترفض هذا السلوك، وأن قضاءنا - مع غيبة التعاليم الإسلامية - سيمنع هذه الفوضى، ويصون حق الله سبحانه في ذلك، ولكم الشكر على سعة صدركم وكريم خلقكم».

محمد الغزالي

ولعلنا بعد نشر نص الرسالتين اللتين تضمنتا رد فضيلة الشيخ الغزالي على ما

وجهته إليه من أسئلة نفتح الباب لمن يريد التعليق ... راجيًا ممن يقول رأيه مراعاة القراءة الجيدة لكلمات الشيخ، ولا مانع من إعادة قراءتها مرة وأكثر، حتى لا يختلط عليه الأمر، ويعلق على معنى لم يقصده، وأن يكون الحديث موضوعيًّا وموجزًا كلما أمكن، وأن يتم في إطار الاحترام الكامل للشيخ ... فقد نتفق أو نختلف على بعض ما يقول، ولكننا بكل العفة والموضوعية نتحاور ونتبادل الأفكار.

صلاح منتصر

***

خاتمة

***

خاتمة

لقد طالت هذه الدراسة وطالت أكثر مما كنت أتوقع لها. وما حيلتي إذا كانت المادة غزيرة، ومجال القول ذا سعة؟

لقد كنت أعرض الفكرة وأريد أن أستشهد لها من كلام الشيخ الغزالي، فأجد أمامي بدل النص اثنين وثلاثة وأربعة وأكثر، كلها تتناول الموضوع الواحد بأساليب مختلفة، وصور متنوعة، وكلها معجب ورائع، فيحتار المرء: أيها يأخذ، وأيها يدع، وكم يأخذ منها، وكم يترك؟

وكنت أوثر دائمًا أن أعبر عن أفكار الشيخ ما استطعت بقلمه لا بقلمي، وبكلامه لا بكلامي، فقلمه أبلغ، وكلامه أبين وأروع، وأدل على المقصود الذي أنشده. ومن هنا نقلت فقرات طويلة أحيانًا من كتبه تعبر عما أريد. وأعتقد أن قارئي اليوم سيفرح وينشرح صدره عندما يقرأ هذه الفقرات في موضعها اليوم، وإن كان قد قرأها من قبل في كتب الشيخ.

والحق أن هذه الدراسة أثبتت أننا أمام قائد كبير من قادة الفكر والتوجيه، وإمام فذ من أئمة الفكر والدعوة والتجديد. بل نحن أمام مدرسة متكاملة متميزة من مدارس الدعوة والفكر والإصلاح، لها طابعها، ولها أسلوبها، ولها مذاقها الخاص. وتحتاج إلى دراسات عدة لإبراز خصائصها ومواقفها وآثارها. فليس الغزالي ملك نفسه، ولا ملك جماعة أو حركة، ولا ملك قطر أو شعب، بل هو ملك الأمة الإسلامية جمعاء.

نحن أمام عالم مفكر حر، عاش عمره كله للإسلام، لا يشرك به شيئًا آخر، ونذر

له فكره وقلبه، ولسانه وقلمه، وجهاده واجتهاده، وخاض معارك حياته كلها تحت راية الإسلام، رافضًا كل راية جاهلية، بأي اسم ظهرت، وتحت أي عنوان تزينت للناس، متخذًا شعاره: ﴿ . . . إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162، 163]. لم يتخذ غير الله وليًّا، ولم يبتغ غير الله حكمًا، ولم يبغ غير الله ربًّا، وهو رب كل شيء.

لقد عاش الشيخ بشعور يغمره ويملأ فؤاده ووجدانه أبدًا: أنه حارس من حراس هذا الدين الأيقاظ، ولا ينبغي أن يؤتى الدين من قِبَله وتفريطه، بل يجب أن يتنبه دائمًا لأعدائه في الداخل والخارج، وأن يقف لهم بالمرصاد مدافعًا ذائدًا، بل مقاتلًا مهاجمًا، فخير وسائل الدفاع الهجوم، لا يلقي السلاح، ولا ينشد الراحة، ومعركة المصحف في العالم الإسلامي قائمة، والحرب على الإسلام وأمته دائرة، والدم الإسلامي مستباح، وأكثر الموكلين بالحراسة يغطون في نوم عميق، أو مشغولون بالجدل حول فروع المسائل، وصغائر الأمور!

لقد كتبت الأقدار على الشيخ أن يحارب في جبهتين واسعتين:

الأولى: جبهة الخصوم الكائدين للإسلام، المتربصين به الشر، الكارهين لانتشار أنواره وعودته إلى قيادته الحياة من جديد.

بعض هؤلاء من خارج الإسلام، وخارج أرضه من القوى العالمية التي تخافه أو تبغضه: من اليهودية والصليبية والشيوعية والوثنية، الذين اختلفت دياناتهم، واختلفت طرائقهم، ولكن اتحدت أهدافهم على ضرب الإسلام، ووقف مسيرته، ووضع الأحجار والعثرات في طريقه. وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: 73]، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الجاثية:

19].

وبعض آخر – للأسف الشديد – من داخل الإسلام، بل من أبناء المسلمين أنفسهم، وممن يحملون أسماء المسلمين: محمد وأحمد وحسن وحسين، وعمر وعلي ... ولكنهم لا يضمرون للإسلام إلا شرًّا، ولا لدعاته إلا عداوة، ولا لشريعته إلا تنكرًا ... وربما عادوه؛ لأنه ضد شهواتهم المحرمة، وضد مظالمهم المفترسة، وضد مصالحهم الآثمة، وضد مطامعهم الفاجرة.

والجبهة الثانية: جبهة «الأصدقاء الجهلة» للإسلام، الذين يضرون الإسلام أبلغ الضرر من حيث يريدون أن ينفعوه، يهشمون وجهه من حيث يظنون أنهم يدفعون ذبابة عنه! هؤلاء الذين سماهم الشيخ «الدعاة الفتانين» الذين يشغلون الناس بالفروع عن الأصول، وبالجزئيات عن الكليات، وبالمختلف فيه عن المتفق عليه، وبأعمال الجوارح عن أعمال القلوب.

إنه يشكو من دعاة أغلبهم نكبة على الإسلام، وقذى في عينه! إنهم لا يقرءون ولا يعانون، والقليل من الحقائق لديهم لا يضعونه في موضعه الصحيح، وعلل الأمة لا تلقى منهم أساة ولا بكاة؛ لأنهم مشدودون إلى جدليات الماضي السحيق، ولا يدركون ما جدّ حولنا، والطفرات الهائلة التي قفزت بها الحياة على أرضنا.

وإذا كان الجسم المصاب بفقر الدم يسقط في أول مراحل الطريق، فالعقل المصاب بفقر المعرفة أعجز من أن يلاحق مطالب الجهاد، أو يلبي حاجات الحق.

إن مكمن الخطر على مستقبل الإسلام ومستقبل أمته وصحوته، تكمن في هؤلاء الذين وجه إليهم الشيخ جل كتبه في المرحلة الأخيرة، عساهم أن يتعلموا من جهل، وينتبهوا من غفلة، وينتهوا عن الإعجاب بالرأي، والازدراء للغير، وأن

يتعلموا الذلة على المؤمنين، والتوقير للكبار، والرحمة للصغار.

يقول الشيخ: «والخطورة تجيء من أنصاف متعلمين أو أنصاف متدينين، يعلو الآن نقيقهم في الليل المخيم على العالم الإسلامي، ويعتمد أعداء الإسلام – في أوروبا وأمريكا – على ضحالة فكرهم في إخماد صحوة جديدة لدينا المكافح المثخن بالجراح.

إن الحضارة التي تحكم العالم مشحونة بالأخطاء والخطايا، بيد أنها ستبقى حاكمة ما دام لا يوجد بديل أفضل!

هل البديل الأفضل جلباب قصير ولحية كثة؟ أو عقل أذكى، وقلب أنقى، وخلق أزكى، وفطرة أسلم، وسيرة أحكم؟

لقد نجح بعض الفتيان في قلب شجرة التعاليم الإسلامية، فجعلوا الفروع الخفيفة جذوعًا أو جذورًا، وجعلوا الأصول المهمة أوراقًا تتساقط مع الرياح!

وشرف الإسلام أنه يبني النفس على قاعدة: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا 9 وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 9، 10]. وأنه يربط الاستخلاف في الأرض بمبدأ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [الحج: 41]»[151].

وهذا ما يخيف الشيخ الإمام ويثير فزعه على غد الأمة. يقول سدده الله:

«لقد خامرني الخوف على مستقبل أمتنا لما رأيت مشتغلين بالحديث ينقصهم الفقه، يتحولون إلى أصحاب فقه، ثم إلى أصحاب سياسة تبغي تغيير المجتمع

---

(151) «السنة النبوية» (ص: 8).

والدولة على نحو ما رووا ورأوا ...!!

إن أعجب ما يشين هذا التفكير الديني الهابط هو أنه لا يدري قليلًا ولا كثيرًا عن دساتير الحكم، وأساليب الشورى، وتداول المال، وتظالم الطبقات، ومشكلات الشباب، ومتاعب الأسرة، وتربية الأخلاق ... ثم هو لا يدري قليلًا ولا كثيرًا عن تطويع الحياة المدنية، وأطوار العمران لخدمة المثل الرفيعة، والأهداف الكبرى التي جاء بها الإسلام.

إن العقول الكليلة لا تعرف إلا القضايا التافهة، لها تهيج، وبها تنفعل، وعليها تصالح وتخاصم! هززت رأسي أسفًا وأنا أرمق مسار الدعوة الإسلامية!

إن الرسالة التي استقبلها العالم قديمًا استقبال المقرور للدفء، واستقبال المعلول للشفاء، هانت على الناس فلم يروا ما يستحق التناول، وهانت على أهلها فلم يدروا منها ما يرفع خسيستهم ويحمي محارمهم»[152]!!

في مقدمة كتابه: «الإسلام في وجه الزحف الأحمر» كتب الشيخ يقول:

رأيت أن أكتب هذه الصحائف الحافلة بالحقائق العلمية والتاريخية، وأودعتها صرخات قلب غيور على دينه، شفيق على أمته. وأعرف أنني بكتابتها سأتعرض لعداوات مميتة!! ولكن بئست الحياة أن نبقى ويفنى الإسلام!!

وفي مقدمة كتاب: «قذائف الحق» قال الشيخ:

أعداء الإسلام يريدون الانتهاء منه، ويريدون استغلال المصائب التي نزلت بأمته، كي يبنوا أنفسهم على أنقاضها.

---

(152) «هموم داعية» (ص: 55).

يريدون بإيجاز القضاء على أمة ودين.

وقد قررنا نحن أن نبقى، وأن تبقى معنا رسالتنا الخالدة، أو قررنا أن تبقى هذه الرسالة، ولو اقتضى الأمر أن نذهب في سبيلها، لترثها الأجيال اللاحقة! إلى أن يقول في نهاية المقدمة:

إن الله أخذ على حملة الوحي أن يعالنوا به، ويكشفوا للناس حقائقه. وأكد عليهم ذلك في قوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: 187]. فما بد من البيان وعدم الكتمان.

وأعلم أن ذلك قد يعرض لمتاعب جسام، ولكني أقول ما قال صديقنا عمر بهاء الدين الأميري:

الهول في دربي وفي هدفي   وأظل أمضي غير مضطرب!
ما كنت من نفسي على خور   أو كنت من ربي على رِيَب!
ما في المنايا ما أحاذره   الله ملء القصد والأرب!

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: 147].

صدق الله العظيم

* * *